Mngool.com

دراسة أدبية

لأحاديث نبوية مختارة

تأليف:
الدكتور كامل سلامة الدقس
رئيس قسم الدراسات الإسلامية
جامعة الملك عبد العزيز - جدة

الطبعة الثالثة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

(الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ..) . والصلاة والسلام على محمد نبي الرحمة وهادي الأمة ، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، والذي اصطفاه ربه بهذه المعجزة الخارقة ، التي تحدى بها العرب فعجزوا ، وسمعها فصحاؤهم وأرباب البلاغة فيهم فسجدوا لها خاشعين ..

وبعـد :

فهذه محاولتي الثانية لدراسة أسلوب الحديث النبوي وخصائصه الفنية عساي ادرك أسرار سموه البياني العالي الذي لايتعالى ، والذي يأتي بعد القرآن الكريم مباشرة في اعجازه البياني والمعنوي .

ولا غرو فهو قبسة من قبساته ، ونفحة من نفحاته ، (وما ينطق عن الهوى إن هـو إلا وحي يوحى ..) فلم تكن احاديثه تصدر عنه على نهج الشعراء والخطباء ، وإنما كانت روحه العلوية تتلقى مـن الملأ الأعلى ، ما شاء الله من معاني الحكمة ، ثم يصوغها في تراكيب تعبر عن هذا الوحي الباطني الإلهي وهو السنة المطهرة .

ولقد اجتمعت لرسول الله ﷺ كل اسباب الفصاحة والبلاغة ، وتوفرت لديه كل دواعي اللسانة ، والاقتدار ، وحسن البيان .

ولعمر الحق لن يصفه واصف بأبلغ ولا اوجز ولا ادل من قوله عليه الصلاة والسلام : (انا افصح العرب ، بيد اني من قريش ، واسترضعت في بني بكر بن سعد . .) . .

كما قال جماعة من الصحابة : يا رسول الله ما راينا الذي هو افصح منك . قال : (وما يمنعني : فإنما انزل القرآن بلسان عربي مبين) .

ولقد سأله ابو بكر رضي الله عنه عن سر هذه الفصاحة التي انفرد بها عن غيره من سائر العرب ، فقال: (لقد طفت للعرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ فقال رسول الله : ادبني ربي فأحسن تاديبي) .

وهو عليه الصلاة والسلام كما وصف نفسه قد أدبه ربه وصنعه على كرائم ما يؤتى الناس من مبان ومعان جل مواهبها ، وذلك الركن الركين ، والسر الكمين ، والغاية التي لاتدرك .. فهو تلميذ القرآن ، وخصيصه وصفيه ونجيه ، وهل كان إلا للقرآن يتعهده ، ويهذبه ويعلمه البيان ؟..

ففي مدارسة القرآن ، وتأديب الرحمن موضع التفرد في رسول الله ﷺ ، فقد اصطفى له ما شاء من صور البيان فكانت له : بلاغة سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها . .

ولقد سخر الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام لغة العرب يتخير منها ويتصرف فيها ويبدل سيئاتها حسنات ، كما فعل ذلك في كل الجهات. فانك لاتسمع منه إلا الفصل والقول الجزل، والحكمة البالغة والبلاغة العالية، والعذوبة السائلة ، التي تجري مع النفس سهولة ويسرا ، فتخر لهـا رؤوس السامعين ساجدين !! وكان ذلـك عاملاً اعظم من سواه في نشر دعوته ، وصيرورة سمعته ، لأنه في قـوم لدٌ يتفاخرون بالبيان ويتحدون برجاحة الأحلام ، والبلاغة اكبر مظاهرها ، واعظم ظواهرها ..

وإن ناحية الامتياز الكبرى في كلامه ﷺ هي اجتمـاع الكـلام بقلة الفاظه مع إتسـاع معناه ، وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ، واطراد ذلك في كل معنى وفي كل باب شيء لم يعرف لأحد قبله ..

وتلك ــ لعمري ــ من أخص خصائص نبوته وآيات عبقريته إنـه يقصد إلى الهدف ويهدي إلى الجادة في القول كما هدى إليها في العمل .

وهذا ما جعله ﷺ يتحدث بنعمة الله عليه فيقول : (أوتيت جوامع الكلم ، واختصر لي القول اختصارا) ..

وقد رايت ــ في اول الأمر ــ ان اجعل موضوع هذا الكتاب دراسة البلاغة النبوية بألفاظها في دلالتهـا على معانيها ، وما فيهـا من صفـات وامتيازات ، وجمال التعبير ، وروعة التصوير .. الخ .. ولكني رايت أن ذلك لايشتمل على كل مقاصد الحديث النبوي ، وما فيه من إعجـاز بياني ومعنوي معاً .

ومن هنا فقد اتجهت النفس متسامية إلى هذه القمم السامقة لدراسة الأحاديث النبوية دراسة أدبية وفكرية ، رائدها الاخلاص للدين والعلم ، والوصول إلى مكنون حقائقها وأسرارها ، وغايتها ترقية الأرواح وتزكية النفوس ، وتقوية الأخلاق وإصلاح الأعمال ، وقوامها البحث العلمي الذي لاتشوبه شوائب الاغراض والأهـواء ، ولا تتحكم فيـه عصبية المذاهب وتقديس الآراء . . .

ولذا فقد جعلت موضوع هـــذا الكتاب « دراسة ادبيـة وفكريـة لأحاديث نبوية مختارة » . وإن ركزت القول على الناحية البلاغية والروائع الأدبية ، ذلك لأنني أردت ان اوجه القارىء صوب البلاغة النبوية ، واذكره بالواجب نحوهـا ، واجدد في نفسه معاني تقديرها ، حتى لايتخذ هـذا الكلام السامي مهجوراً ، وحتى يلتمس اقرب الطـرق إلى تذوق هـذا البيـان العظيم .

ومن فضل الله تعالى عليّ وعلى الناس أجمعين أن صادفت هـذه الدراسات قبولاً حسناً وإقبالاً رائعاً من العلماء والأدباء وطـلاب العلم فنفدت جميع الكتب التي ظهرت من هذه السلسلة بطبعاتها المختلفة .

وها هي الطبعة الثالثة من هذا الكتاب : « دراسة ادبية لأحاديث نبوية مختارة » آمل أن تجد فيها بغيتك ، وغذاء لروحك وفكرك ، وهداية لنفسك ، وطهارة لقلبك .

والله أسأل ان يتقبل مني هذا الجهد المتواضع لوجهه الكريم ، وأن

يلهمني السداد والرشاد ، والا يؤخذني بما نسيت أو اخطأت ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

والله مـــن وراء القصد .

جدة في : غرة رمضان المبارك ١٣٩٩ هـ
الموافــق ١٩٧٩/٧/٢٥ م

الدكتور كامل سلامة الدقس
الاستاذ المشارك للدراسات الاسلامية والأدبية



الأعمال بالنيات

عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنَّما الأَعمال بالنِّيَّات ، وإنَّما لكل امرىء ما نَوَى ، فمَن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله ، فهجرتُه إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرتُه لِدُنْيا يُصيبها ، أَو امرأَة ينكحُها فهجرته إلى ما هاجر إليه) رواه الشيخان .

مكانة الحديث وفضله : –

أجمع الأئمة على جلال هذا الحديث ، وعظيم خطره ، وتعظيم قدره ، وكثرة فوائده ، وقد صدر به الإمام البخارى كتابه الصحيح ، وجعله كالخطبة له ، إتباعاً لما كان يستحبه السلف الصالح من تقديمه أمام كل شيء يبتدأ به من أمور الدين ، ولعموم الحاجة إليه ، وإشارة منه إلى أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل ، لا ثمرة له فى الدنيا ولا فى الآخرة . تنبيها بذلك على مزيد الاعتناء بحسن النية ، والاهتمام بالإخلاص فى الأعمال .

حتى قال الإمام الشافعى وأحمد وغيرهما : إنه ثلث الإسلام ، يعنون أن الإسلام ينتظم أركاناً ثلاثة : عمل الجنان ، وقول اللسان ، وفعل الجوارح ، أو يريدون أنه أحد الأحاديث الثلاثة التى ترد إليها جميع الأحكام والثانى : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها – ، والثالث : (الحلال بيّن والحرام بيّن . . . (رواه الشيخان عن النعمان بن بشير . وقيل حديث : (من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه) .

وقد نظم الحافظ المعافرى هذه الأبيات فى ذلك فقال : –

عمدة الدين عندنا كلمــــات   مسندات من قول خير البريــة

أترك الشبهات وازهد ودع ما   ليس يعنيك واعملن بنيـــة

وقد أجمع العلماء على أن هذا الحديث من قواعد الدين وأسسه التى يقوم عليها ، لكثرة معانيه وجمعه الفوائد الجليلة والأحكام التى تحصل من كلام قليل ، إذ كان من منطوق سيد البشر الذى آتاه الله جوامع الكلم ، والذى لا ينطق عن الهوى ، ، إن هو إلا وحى يوحى .

وقال عنه الحافظ بن مهدى : (لو صنعت كتاباً فى الأبواب ، لجعلت حديث عمر بن الخطاب فى الأعمال بالنيات رأس كل باب ، وينبغى لمن أراد أن يصنف كتابا أن يبدأ بهذا الحديث .

سبب وروده : —

وقيل فى سبب مورده : إنه لما أمر بالهجرة من مكة إلى المدينة ، تخلف جماعة عنها فذمهم الله تعالى بقوله :

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأَرضِ ، قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فيهَا ؟ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) ، ولم يهاجر جماعة آخرون لفقد استطاعتهم ، فعذرهم الله ، واستثناهم بقوله : (إلا المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّساءِ وَالوِلْدَانِ لاَيَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ، فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا).

وهاجرت جماعة ثالثة ، فمدحها الله فى غير موضع من كتابه . واشتهر أنه كان بين المهاجرين رجل أراد أن يتزوج امرأة يقال لها : أم قيس ، فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر ، فهاجر لأجلها ، وتزوج بها ، وكانوا يسمونه مهاجر أم قيس ، فَعَـرض به ، تنفيراً عن مثل مقصده .

وهذا السبب ، وإن كان خاص المورد ، لكن العبرة بعموم اللفظ ، وذكر الدنيا مع المرأة من باب زيادة النص على السبب .

أهمية النية فى الشريعة الإسلامية : —

وهذا الحديث كما يرفع من شأن النية ، ويعلى مكانها ، ويبين أنها من العمل بمنزلة الأس من البناء ، والروح من الجسد ، والعماد من البيت . وإذا قدرت القوانين النية قدرها ، وربطت بها آثارها ، وأدخلت فى الثواب أو العقاب حسابها ، فان شريعة من الشرائع لم تبلغ مبلغ الإسلام فى تقدير النية والاعتداد بها . وحسبك أن يهدر العمل إذا خلا من النية ، ويجعله أو يكاد ضربا من ضروب اللغو أو الخطأ ، وهو لا يجزى على واحد منهما وإن أدى بطريق المصادفة إلى غاية حسنة ، فان عاقب المخطىء إذا أفضى خطؤه إلى ضرر ، فلتربية اليقظة فى النفوس ، وتحذيرها أن تتهاون أو تتغافل حتى تنحرف عن الجادة . ومن هنا رفع القلم عن الصبى حتى يبلغ ، وعن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ ، كما رفع عن المخطىء والناسى والمكره ، لأن هؤلاء جميعاً لا نية لهم ، اللهم إلا الصبى إذا ميز فانه يؤدب إذا أساء ، ويكافأ إذا أحسن ، وإن تكن نيته دون من بلغ الحلم .

على أن الإسلام لم يترك هذا الباب مفتوحاً على مصراعيه ، يلجه كل من تحدثه نفسه بالتخلى عن التبعة ، بل وضع شروطاً للخطأ والنسيان والإكراه تأخذ بتلابيب كل مغتر أو متصنع .

وإذا أردت أن تبلغ الغاية فى تقدير الإسلام للنية والإعتداد بها ، فانظر إليه إذ يفضل النية المجردة من العمل على العمل المجرد من النية ، وهذا تأويل الأثر المشهور : (نية المرء خير من عمله)(١) ، وذلك لأن العمل الذى خلا من النية كالصورة لا حياة فيها ، والنيات لا أساس له ، فلا خير منه يرتجى ولا ثمرة له ترتقب ، أما النية الصالحة فهى تزكى صاحبها وتوجه إلى صالح العمل وشيكاً ، بل هى تلحقه بالعاملين المخلصين إن صلحت ، وبالمفسدين إن فسدت ، وإن لم يضع صاحبها شيئاً . وشاهد هذا ما رواه الترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم :

---

(١) حديث ضعيف ولكن له طرق تجعل فيه قوة . وله تأويلات أخرى ذكر بعضها كشف الخفاء واحياء العلوم .

(إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلماً فهو يتقى فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا أفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا ، فهو صادق النية ، يقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، فأجرهما سواء ، وعبد رزقه مالا ولم يرزقه علماً ، فهو يخبط بماله بغير علم ، لا يتقى فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً ، فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، فوزرهما سواء) .

وقد دلت صحاح الآثار على أن من اعتاد عمل خير أو هم به فحبسه حابس من مرض أو عذر ، كتب له ثواب ما نوى ، فمن ذلك ما رواه البخارى عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا مرض العبد أو سافر ، كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحاً) وما رواه البخارى أيضاً عن أنس رضى الله عنه قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال : (إن اقواماً خلفنا بالمدينة ، ما سلكنا شعباً ولا واديا إلا وهم معنا ، حبسهم العذر) .

وكما يجزى العبد على الحسنة يهمّ بها فلم يستطعها ، يجزى كذلك على السيئة يريدها ثم يكف عنها خشية الله عز وجل ، وربما انتظم بخوفه من الله فى سلك الطوائف السبعة التى يظلها الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله .

ولما كانت النية تختلف قوة وضعفاً ، على حسب منزلة العبد فى الإخلاص قربا وبعداً — اختلف الجزاء على الأعمال كثرة وقلة ، حتى جوزى المحسن على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله عز وجل ، روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من تصدق بعَدل تمرة (١) من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فان الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فَلُوَّه (٢) حتى تكون مثل الجبل) .

---

(١) أى بقيمتها لان العدل بالفتح : المثل وبالكسر : الحمل .

(٢) مهره وفيه لغتان : الفتح بالضم فالتشديد ، والكسر فالسكون بوزن جرو .. والتقبل باليمين كناية عن الرضا .

وروى النسائى وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سبق درهم مائة ألف درهم ، فقال رجل : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال : رجل له مال كثير أخذ من عُرضه مائة ألف درهم تصدق بها ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به) .

ولعل فى هذا الذى أسلفناه بياناً لفضل النية الصالحة . وانها جوهر العمل وروحه ، وتلك خلاصة الجملة الأولى « إنما الأعمال بالنيات » ، وتصويراً صادقاً لجزاء العاملين ، وأنه على حسب نياتهم ، ومرتبة كل من الإخلاص ، وهم فى ذلك درجات ، وتلك خلاصة الجملة الثانية (وإنما لكل امرىء مانوى[1])

المعانى والتصوير : —

وأول ما يلفت انتباهك من خصائص هذا الحديث الجليل وسماته الفنية : براعة الاستهلال ، وهذا الابتداء الحسن ، وشمول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيها ، والإشارة إلى من ورد الحديث بسببه .

فقد صدر الحديث بكلمتين جامعتين ، وقاعدتين شاملتين ، هما : (إنما الأعمال بالنيات) و (إنما لكل امرىء ما نوى) ، ويراد من الجملة الأولى الإخبار عن الأعمال الاختيارية بأنها لا تقع من العامل إلا عن قصد هو سبب عملها ووجودها ، وبأن صلاح العمل وفساده إنما هو بحسب النية المقتضية لإيجاده .

ويراد من الجملة الثانية الإخبار عن المرء بأنه لا يحصل له من عمله إلا ما نواه به ، فان نوى خيراً ، حصل له خير ، وإن نوى شراً حصل له شر ، وبأن ثواب العامل على عمله بحسب نيته الصالحة ، وعقابه عليه بحسب نيته الفاسدة .

وتأمل كيف استخدم الحديث أسلوب التخصيص (أو القصر) استخداماً فنياً رائعاً ، إذ يوحى بألوان من النية الخالصة ، ويضع الباحثين فى البلاغة أمام جديد من الصياغة عن طريق هذا الأسلوب .

---

(١) انظر ما كتبه فضيلة الشيخ طه الساكت حول هذا الموضوع بمجلة الأزهر .

فليس المراد فى الجملة الأولى : (إنما الأعمال بالنيات) نفى ذات العمل ، لأن الذوات غير منفية ، إذ تقدير إنما الأعمال بالنيات : لا عمل إلا بالنية ، ولأن ذات العمل الخالى من النية موجودة ، وإنما المراد نفى أحكامها المتعلقة بوجودها كالصحة والكمال على إختلاف التقدير فيها .

فقد قال الأئمة الثلاثة بأن التقدير فيها : إنما صحة الأعمال بالنيات ، وأدخلوا جميع الأعمال من الصلاة والصوم والزكاة والحجوالوضوء ، وغير ذلك مما تطلب فيه النية ، عملا بقضية العموم .

وذهب أبو حنيفة وأصحابه الثلاثة ، والثورى ، والأوزاعى وغيرهم ، إلى أن التقدير إنما كمال الأعمال ، أو ثوابها ، أو نحو ذلك بالنيات ، لأنه هو الذى يطّرد ، فان كثيراً من الأعمال يوجد ويثمر ويعتبر شرعاً بدونها .

وجعل بعضهم المقدر فى الجملة هو القبول ، فقال : إنما قبول الأعمال بالنيات .

وعلى هذه التقديرات جميعها ، فان الخلاف ليس فى اشتراط النية فى المقاصد ، وإنما الخلاف فى إشتراطها فى الوسائل ، ومن ثم لم يشترطها الحنفية فى الوضوء مثلا ، لأنه مقصود لغيره لا لذاته ، فكيفما حصل ، حصل المقصود ، وصار كستر العورة ، وباقى شروط الصلاة التى تفتقر إلى النية .

ونتوقف قليلا عند الجملة الأولى (إنما الأعمال بالنيات) لنتأمل طريقة تركيبها وروعة سبكها ، ودقة اختيار كلماتها . فكلمة (إنما)جاءت هنا لتقوية الحكم الذى فى حيزها اتفاقاً ، ولإفادة الحصر عند المحققين ، وهو إثبات الحكم المذكور ، وصرفه عما عداه ، واختلفوا فى إفادتها الحصر ، هل هو بالمنطوق أو بالمفهوم ، أو بالوضع ، أو بالعرف ، أو بالحقيقة ، أو بالمجاز ، ورجح بعضهم أنها بسيطة ، ورجح آخرون أنها مركبة من إن التوكيديه ، وما الكافة ، وهى حرف زائد .

وجاءت إنما فى هذا الحديث بمثابة جواب عن سؤال ، أو تبيان حالة اقتضاها السياق ، فقصرت قبول العمل عند الله على إخلاص النية فيه وصدق العامل . وإن الأصل فى استخدام (إنما) فى أسلوب الحديث النبوى

إنما يأتى فى الأمور التى يدعى أنها من الوضوح بمكان ، ، فالخبر بعد (إنما) لا يجهله المخاطب ، ولا يكون ذكره لمجرد فائدته ، وهى أقوى ما تكون ، وأعلق بالقلب ، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه .

فأفادت (إنما) فى هذا الحديث تأكيد تلك الحقيقة الكبرى التى يتوقف عليها مصير كل عمل ، وهى إخلاص النية ، وبالتالى التشنيع والتعريض بمن تنازل عن ثواب عمله وهو أحوج ما يكون إليه فى ذلك اليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وتصويره بأقبح الصور التى لا تليق بالرجل المؤمن . وتأمل سر عدول الحديث عن استعمال كلمة الأعمال على كلمة الأفعال ، وذلك لأن لفظ العمل أخص من لفظ الفعل ، فالأعمال جمع عمل ، وهو حركة البدن بكله أو بعضه ، وربما أطلق على حركة النفس ، فالفعل ينسب إلى البهائم والجمادات ، كما ينسب إلى ذوى العقول ، بخلاف العمل ، فانه يعتبر فيه القصد ، وأما الصنع فهو أخص من العمل ، لأنه لا يقال إلا إذا كان من الإنسان بقصد واختيار بعد تفكر وتدبر .

والنيات جمع نية ، وهى لغة القصد ، وشرعاً : قصد الشىء مقترناً بفعله ، فان تراخى عنه كان عزماً ، أو يقال : قصد الفعل ابتغاء وجه الله ، وامتثالا لأمره ، وهى هنا محمولة على معناها اللغوى ، ليطابق ما بعده من التقسيم. وجُمعت باعتبار تنوعها ، لأن المصدر إذا اختلفت أنواعه جمع كالعلوم ، أو باعتبار مقاصد الناوى كقصده تعالى ، أو تحصيل موعوده ، أو اتقاء وعيده.

والنية لها فى إصطلاح العلماء معنيان : أولهما : تمييز العبادات بعضها عن بعض ، كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر ، وكتمييز الصلاة من الصوم ومن الزكاة ، وتمييز الفريضة من النافلة ، وتمييز العادات من العبادات ، وبهذا المعنى يستعملها الفقهاء عادة .

والآخر : تمييز المقصود بالعمل ، لأن الواجب على الإنسان هو أن يقصد بعمله الله وحده بلا شريك ، وبهذا المعنى يستعملها السلف والعارفون ، وقد يطلقون عليها كلمة الإرادة ، وفى هذا يقول القرآن الكريم .

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

ويعبر عنها بكلمة (الابتغاء) كما فى قوله تعالى :

(وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ)

فالنية تكون مصدراً واسما من نويت وهى توجه القلب نحو العمل ، وأن يكون خالصاً لوجه الله تعالى ، لأن الإنسان إذا سار فى أعماله دون نية أو تحديد ، فانه يخبط خبط العشواء ، ويهيم فى صحراء ، فتتوزعه السبل ، وتضل به المسالك ، وتختلط عليه الأمور ، ولكنه حين يعرف طريقه ويتبين خطته ، يمضى على بصيرة ، ويعمل بوعى .

فالرسول يرشد المؤمن فى هذه الجملة بأن يجعل عمله مقصوداً به إرضاء لله ، لأن ذلك يجعله بعيداً عن الأهواء والشهوات ، كما يجعله أهلا لمعونة الله ونصره وتأييده .

ولا يكتفى الأسلوب النبوى البليغ بتأكيد هذه الحقيقة وهى أن قبول الأعمال بإخلاص النية لله بل زاد هذه الحقيقة تأكيدا وتعميقاً فى النفس وترسيخاً فقال : (وإنما لكل امرىء ما نوى) ، وليس هناك تكرار بين الجملتين ، فان الحكم قد ذكر فى الجملة الأولى ، وأكد فى الجملة الثانية ، تنبيهاً على شرف الإخلاص وتحذيراً من الرياء المانع من الإخلاص ، ففى الجملة الثانية (وإنما لكل امرىء ما نوى) بيان وتأكيد أن حظ العامل من عمله مقصور على نيته ، فان كانت النية صالحة ، كان العمل صالحاً كذلك ، وله أجره وثوابه ، وإن كانت فاسدة أو سيئة كان العمل فاسداً سيئاً ، وعليه وزره وعقابه .

وقد دلت الجملة الثانية أيضاً على أن الأعمال العادية التى لا تتوقف على النية قد يحصل فاعلها على الثواب إذا نوى بها التقرب إلى الله ، وجعلها فى سبيله ، فتصبح هذه الأعمال الدنيوية كأنها عبادة وقربى من الله جل جلاله .

ولقد أرشد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى هذه الحقيقة فى كثير من أحاديثه من ذلك (إنك لن تنفق النفقة تبتغى بها وجه الله إلا أثبت عليها ، حتى اللقمة تجعلها فى فم امرأتك) ، وحتى قضاء الرجل شهوته مع زوجته له عليه

أجر إذا قصد به وجه الله بأن يعفها ويعف نفسه ، وحتى نومه ، ويقظته وطعامه وشرابه ، وزيارته لأصدقائه ، وزيارتهم له ... الخ .

ولذلك قال زيد الشامى : (إنى لأ حب أن تكون لى نية فى كل شىء ، حتى فى الطعام والشراب) .

كما دلت هذه الجملة أيضاً على أن من نوى شيئاً يحصل له ثوابه ، وإن لم يعمله لمانع شرعى كالمرض أو السفر ، وقد سبق ذكر ذلك .

وأنت ترى من هاتين الجملتين أن الرسول قد وضع شروط العمل وكيف يكون كاملا مقبولا عند الله ، ومجزياً بالخير والثواب ، وذلك إذا توافر فيه أمران الصلاح ، وحسن النية .

والرسول عليه الصلاة والسلام متأثر بهذه الفكرة بالقرآن الكريم ، فقد قال الله تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّه أَحَدًا) .

فالآية تدل على المطالبة بأنيكون العمل صالحاً طيباً ، وأن يكونمقصوداً به وجه الله دون إشراك أحد معه ، لأن الله غنى الشريك والشركاء .

ولذلك قال الفضيل : (وإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً وصواباً)

ومن هنا فقد نبه الحديث إلى الميزان الدقيق الذى تقاس به الأعمال صلاحاً وفساداً ، نجاحاً وحبوطاً ، وهو : (النية) فى جملتين تكمل كل واحدة منهما الأخرى وتؤكد معناها تأكيداً دقيقاً حاسما : (إنما الأعمال بالنيات) ، (وإنما لكل امرىء ما نوى) . ولقد صدر الحديث بهاتين الجملتين وفيهما نوع إجمال ، قصد به إثارة الانتباه والتشويق على أسلوب المربى العظيم فى الإرشاد والتعليم . . وهنا تتطلع النفس وتتشوق إلى مزيد من التفاصيل والإيضاح لهذه الحقيقة الضخمة فى عالم النفس والضمير ، تلك الحقيقة التى يتوقف عليها نجاح الأعمال أو هبوطها وسعادة المرء أو

تعاسته وشقاوته فى الدنيا والآخرة . فقد دلت هاتان الجملتان على وجازة ألفاظهما — على الكثير من المعانى والمقاصد .

فما أروع هذا الأسلوب التربوى الخبير بخبايا النفس البشرية ، وخطراتها وما يهجس فيها ، فبعد أن أجمل الحديث هذه الحقيقة فى هاتين الجملتين المجملتين ، ساق عقبهما مفرعاً عليهما تفصيل بعض ما تضمنتاه زيادة للإيضاح ونصاً على صورة السبب الباعث على هذا الحديث ، فذكر مثلا من الاعمال المتحدة فى الشكل والصورة الخارجية ، المختلفة صلاحاً وفساداً باختلاف المقاصد والنيات والأهداف . . فكأن الحديث قد قصد بهذا الإرشاد الموجز إلى إثارة الانتباه وإيقاظ الشعور ، وأن هناك أمراً قد يغيب عن أذهان المخاطبين ، فليست العبرة بكثرة الأعمال أو قلتها ، أو ثمرتها ونتيجتها — كما يخطر ببال كثير من الناس — بل لا بد أن تكون هذه الأعمال خالصة لوجه الله حتى ينال عليها فاعلها الأجر والمثوبة .

وبعد هذا الأسلوب التقريرى لهذه الحقيقة العظيمة ، وهى أن الأعمال تصح وتطيب بالنيات الصالحة الحسنة ، وأن جزاءها يتوقف على نيتها ، ضرب لنا مثلا لتوضيح هذه الحقيقة وتجليتها فقال عليه الصلاة والسلام : (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينحكها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه) .

ومعنى هذا المثال الكريم ، الذى قصد به الإيضاح والتوكيد — لما سبق — أن من نوى بهجرته التقرب إلى الله ، وأراد بها وجه الله تعالى ، والتخلص من دار الكفر والظلم ، والانتقال إل دار الإيمان والعدل ، والاستمساك بأوامر الله وهدى رسوله (كانت هجرته إلى الله ورسوله) ، أى فهما نصيبه وهما حسبه ، وأكرم بهما وأعظم ، فكيف يضام من كان اعتصامه بالله واعتزازه برسول الله ؟ ولذلك لم يزد الحديث على أن قال : (فهجرته إلى الله ورسوله) فهذا يكفيه شرفاً وعزاً ، لأن الله ورسوله هما نهاية كل مطلوب ، وغاية كل مرغوب .

وأما من يريد بهجرته عرضاً من أعراض الدنيا يناله ويحصل عليه ، ليطلب دنيا يصيبها ، أو امرأة يتمتع بها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه ، أى فهجرته مقصورة فى قيمتها وعاقبتها على هذين الغرضين التافهين . فالأول تاجر ، والثانى : خاطب ، وليس واحد منهما بمهاجر . . .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم : (إلى ما هاجر إليه) تحقير لما طلبه الإنسان بهجرته من أمر الدنيا ومتاعها الزائل . ولذلك لم يعد الحديث هنا لفظ (الدنيا) ولا لفظ (المرأة) .

فالاهداف المنشودة من الهجرة كثيرة تتنوع بتنوع الغرض منها ، فالهدف من الهجرة إلى الله ورسوله هو اتباع أوامرهما ، وامتثال حكمهما ، وابتغاء مرضاتهما ، وهو كما ترى هدف واحد ، يتناول سائر أقسام الهجرة : من هجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وهجرة القبائل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، وهجرة ما نهى الله عنه . . ومن ثم اقتصر جواب الشرط على إعادته بلفظه .

أما الأهداف فى الهجرة لأمور الدنيا ، فكثيرة لا تنحصر ومتعددة لا تقف عند حد ، ولا يجمعها غرض واحد ، فقد يهاجر الإنسان من أجل تجارة ، أو إمارة ، أو زيجة ، أو تراث ، أو ثأر ، أو أى شىء آخر غير ذلك من شئون الدنيا ومطالب الحياة ، ولهذا عبر فى الجواب بقوله عليه الصلاة والسلام : (فهجرته إلى ما هاجر إليه) ، إشارة إلى تحقير ما طلبه من أمور الدنيا ، واستهانة به ، فترك الحديث إعادة لفظ الدنيا والمرة ، لأن هذه الأهداف وأمثالها لا تستحق حتى مجرد الذكر عند الله ولا عند رسوله .

وفى هذا الأسلوب المعجز إشارة عظيمة بالأول إلى تعظيم الهجرة والمهاجر إليه ، وبالثانى إلى ازدراء وتحقير وتشنيع الهجرة والمهاجر إليه ونلاحظ أن الحديث فى هذا المثال الذى ضربه قد مال إلى جانب التصوير الفنى البديع وتلك هى الميزة العجيبة التى اختص بها حديث رسول الله وكلامه ، وهى إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع ، وإبراز المعنويات فى صورة

المحسوسات ، فترى المعنى المجرد فى مظهر الأمر المحس الملموس ، تراه بعينك ، وتلمسه بيدك .

ومصدر هذه الروعة البيانية هو دقة اختيار الألفاظ المصورة لمعناها ، بأن تلصق صورة المعنى وشكله بإحساسك ، فهى نصب المعانى الفكرية المجردة فى قوالب من الشخوص والمحسوسات تتحرك فى داخل الخيال ، وتفيض بالحياة والروح والحركة .

فكلمة « هجر » ومشتقاتها هى التى أفادت هذه الصورة التى أتحدث عنها فأصل الهجرة فى اللغة الانتقال من محل إلى محل ، وهجران دار الشرك والانتقال منها إلى دار الإسلام ، كما كان يفعل المهاجرون قبل فتح مكة ، حيث كانوا يهاجرون إلى الحبشة ، وإلى المدينة ؛ ولكن المراد هنا مطلق الانتقال والتجاوز من شيء إلى شيء صورياً ومعنوياً ، والهجرة إلى الله معناها فى حقه سبحانه وتعالى ، إما على التشبيه البليغ ، أى كأنه هاجر إليه ، أو على حذف مضاف ، أى هاجر إلى محل رضاه وثوابه ورحمته ، أو يقال : إن الانتقال إلى الشيء عبارة عن الانتقال إلى محل يجده فيه ، ووجدان كل أحد على ما يليق به ، فالمراد الانتقال إلى محل قربه المعنوى ، وما يليق به .

فأنت تلحظ معنى أبعد من معنى الانتقال المكانى على الأرض ، فقد نقلتنا كلمة « الهجرة إلى الله » من عالم المعنويات إلى عالم المحسوسات فهذه هجرة الأرواح وفرارها من الأدناس والأرجاس إلى عالم الطهر والنقاء والصفاء !!

وإنك لتجد الجملة كلها : (من كانت هجرته إلى الله ورسوله) تحمل إلى خيالك صورة المعنى شاخصا مجسما ، فأنت تلمح شخصاً خلع عن نفسه ثياب الرذيلة وفر منها كما يفر من الأسد متجها إلى المأوى الأمين ، والحصن الحصين ، والظل الظليل ، إنه مهاجر إلى مولاه عز وجل ، إننا نراه وهو يخطو فى الأفق البعيد وضيء الوجه ، باسم الثغر ، يرنو بنظراته إلى الأفق الأسنى ، والحياة الأرحب ، إنه مهاجر إلى ربه لينعم بقربه ، وينال رضوانه وحسن مثوبته .

نعم : إنه مهاجر إلى مولاه ، مخلفاً وراءه الدنيا وملذاتها ومشتهياتها كلها : وما الدنيا ومتاعها الفانى بجنب رضا الله ، والفوز بجناته ونعيمها الذى لا لا يحول ولا يزول .

نعم إن هذا المهاجر لا يبالى بالدنيا ، ولا يعبأ بوسوسة إبليس وجنوده ، إنه مهاجر بروحه ، حيث يزكى المرء نفسه ، ويطهر قلبه ، باجتناب المآثم ، واجتناء المكارم ، تلك هى الهجرة كل الهجرة التى أرشد إليها الرسول الكريم فى جوامع كلمه الطيب ، إذ يقول : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه[1]) .

فما أروعها من هجرة دائمة إلى يوم القيامة ، وما أكرم ثوابها ، وأعظم نوالها .

والحديث يرسم صورة مزرية لمهاجر آخر انضم إلى قافلة المهاجرين إلى الله ورسوله ، ظاهره يدل على أنه منهم ، ولا يختلف عنهم من حيث مظهره الخارجى فى شىء ، فهو يتجه إلى حيث يتجهون ، ويسير معهم فى نفس الطريق الذى يسيرون ، ويتعرض لنفس الأخطار والأهوال التى يتعرضون لها ، وكان من المنتظر أن يحظى بنفس الجزاء الذى سيجزون به وينال نفس الكرامة التى يوعدون ، ولكننا نعجب بل ويستولى علينا العجب بأن ذلك الرجل قد أضاع أجره ، وأحبط عمله ، وخسر دنياه وآخرته ، وذلك لأنه لم يكن مهاجراً إلى الله بل كانت هجرته من أجل امرأة يتزوجها ، أو تجارة يأمل ربحها ، أو أية متعة من متع الدنيا يسعى لتحقيقها فما أضعف همته ، وما أحقر طلبته ، وما أضيعه وأحمقه ؟ ؟ أيتحمل كل هذه الأهوال من أجل متعة دنيوية زائلة ويبيع آخرته بدنياه ، ودائماً بفان ، وجنات عرضها السموات والأرض ، بعرض حقير من أعراض الدنيا ؟ ؟ ؟ ! ! .

وقد عمد الحديث إلى التعريض بهذا المهاجر الأحمق ، وصورة بصوره مزرية تثير السخرية والاشمئزاز فقال (ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه) .

---

(١) رواه البخارى .

نعم إنها للوحة فنية مضحكة ، تستثير العطف والشفقة فى ناحية ، وعلى الجانب الآخر صورة رائعة تملأ النفس والقلب بهجة وسرورا ، وإعجاباً وإكباراً وإجلالا .

إنها لصورة عجيبة حقاً ، جمعت فى لوحة واحدة أجمل المناظر ، وأقبحها فى آن واحد . فنحن نرى صورة رجلين يسيران جنباً إلى جنب اتفق ظاهرهما ، واختلف باطنهما ، اتحد طريقهما ، واختلف هدفهما . فالأول رجل ربانى اختار الهجرة إلى الله طمعاً فى رضاه ، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، غايته عظيمة ، ونيته سليمة ، والآخر رجل دنيوى حقير ، كره لقاء الله فكره الله لقاءه ، وأعرض عن الله فأعرض الله عنه ، عزيمته ضعيفة ، وغايته دنيئة ، ونيته سقيمة .

فما أعجبها من صورة اتحدت خطوطها وألوانها وإطارها واختلفت فى بعض ظلالها وجزئياتها اختلافاً دقيقاً ، لا تدركه الأبصار ، ولا يعرفه أحد إلا الذى خلق فهدى سبحانه وتعالى ..

وما أروع الأسلوب الحكيم الذى أزرى على غاية ذلك الرجل وسوء مصيره بتلميح أبلغ من التصريح ، إذ أهمل السياق ذكر غايته ولم يكررها ويعيدها كما أعاد غاية رفيقه . فقد قال تنويها وتعظيماً وتكريماً لعمل الأول (المهاجر إلى الله ورسوله) ، (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله) ، وقال فى المهاجر إلى دنياه (ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) .

وتلحظ مدى مشاركة الألفاظ فى هذه العبارة الشريفة فى التعبير عن دنو همة ذلك المهاجر وحقارة هدفه . فقد اختيرت كلمة (الدنيا) التى ما سميت بذلك إلا لدنوها وحقارتها ، ومآلها إلى الزوال والفناء ، أو لدناءتها وخستها ..

ولا ريب ، فهى لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، ولولا ذلك لما سقى الله الكافر منها شربة ماء .

وهنا فقد وصفها القرآن الكريم بأنها متاع الغرور ، وأنها دار لهو ولعب وزينة وتكاثر وتفاخر بالأموال والأولاد ، وأن القيمة الحقيقية التى يجب أن تتجه لها أنظار المؤمنين هى الدار الآخرة ، دار البقاء والخلود .

وما أكثر الأحاديث النبوية المصورة لهوان الدنيا على الله ، والتحذير من غرورها ومتاعها وملذاتها وشهواتها التى هى سلاح إبليس . فقد قال صلى الله عليه وسلم : (من كانت الدنيا أكبر همه فرّق الله شمله ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له .. ومن كانت الآخرة نيته ، جمع الله له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة) .

ولذلك لم يذكر هذا الحديث الشريف — الذى نحن بصدده — فى الجواب الدنيا ولا المرأة ، لأن قيمة هذين الفرضين تافهة حقيرة لا تستأهل حتى مجرد الذكر ، وإعادة الكلام فيها .. وتأمل قوله : (إلى ما هاجر إليه) وفى ذلك مافيه من التحقير والإزدراء .

ولقائل أن يقول : « المرأة » من متاع الدنيا ، بل هى جزء يسير مما فيها من المخلوقات والجواهر والأعراض الموجودة قبل الدار الآخرة ؟ فلماذا ذكرت « المرأة » فى الحديث مع « الدنيا » ، وجعلت قسما قائماً بذاته مقابلا لها مع أنها داخلة فى مسماها ؟ .

والحق إنها لمسألة محيرة ، وتستحق التساؤل والتعجب ، ولا بد من سر دفين وراء ذلك ، حيث جعل الحديث مشتهيات الدنيا وأعراضها كلها فى كفة ووضع فى الكفة الأخرى المرأة ، وهذا يوحى إلينا — والله ورسوله أعلم — بمدى خطورة المرأة وفتنتها للرجل ، وينبهنا إلى عدم الاستهانة بخطرها ، وضرورة إتقاء شرها ، واجتناب فتنتها باعتبار أنها أفضل متع الدنيا ، ومن أشدها خطراً على الرجال .. وقد أشار إلى هذا المعنى رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فى الحديث الذى يقول فيه : (ما تركت فى الناس بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء) ..

وكما أن الحديث عمد إلى التعريض بذلك المهاجر الذى هاجر مع المهاجرين من مكة إلى المدينة لا إلى الله ورسوله كما كانت هجرتهم ، بل كانت هجرته لأجل امرأة يتزوجها ، ويتمتع بها وهو ذلك الرجل الذى ورد الحديث بسببه — كما قيل —

وفى هذا تلقين مستمر المدى إلى يوم الدين لهؤلاء المستهترين بفتنة النساء ، والذين ينادون باختلاط الرجال بالنساء ، وخروج المرأة إلى العمل وأماكن الرجال .. إن هذه الاشارة لتكفى لهؤلاء الذين ينادون بحرية المرأة وخروجها من قيود شريعتها التى وضعها الله لحمايتها وصيانتها وبالتالى لحماية الرجال من فتنتها ، وسلامتهم من خطرها وضررها ..

والحديث قبل كل هذا وبعد كل هذا يعلم المسلمين منذ دخولهم فى الإسلام وانتسابهم إليه ، أن يخلصوا نياتهم فى أعمالهم لربهم ، ولذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ) الآية ..

قال : (كانت المرأة إذا أتت النبي صلى الله عليه وسلم حلفها بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ماخرجت من رغبة بأرض عن أرض ، وبالله ماخرجت التماس دنيا ، وبالله ماخرجت إلا حباً لله ورسوله) .

ويقاس على ذلك سائر الأعمال والأقوال من أصغرها إلى أعظمها ، فقد قال عبد الله بن عمرو : يا رسول الله ، أخبرنى عن الجهاد والغزو ، فقال : (إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً ، وإن قاتلت مرائياً مكاثراً بعثك الله مرائياً مكاثراً ، على أى حال قاتلت أو قتلت بعثك الله بتلك الحال) .

أما بعد فأرجو أن نكون قد وفقنا إلى إبراز — ولو بعض الشيء — من عظمة الأسلوب النبوى الكريم ، وخصائصه الفنية ، وروعته البيانية ، وبلاغته المعجزة ، التى تأتى فى الرتبة الثانية بعد القرآن الكريم مباشرة .

كما أنى أدعو بما دعا به مطرف بن عبد الله فأقول : (اللهم إنى استغفرك مما تبت إليك منه ثم عدت إليه ، واستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أوف به لك ، واستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ماقد علمت) ..

طعم الايمان

عن العباس بن عبد المطلب ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ذاق طعم الإيمانَ من رضى بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد نبيًّا رسولاً[1]) .

المعانى والتصوير : —

إن هذا الحديث النبوى الشريف روعة من الروائع الأدبية ، ومعجزة من المعجزات النبوية ، وأول ما يطالعنا فيه أنه يحول أبصارنا عن القشرة إلى اللّب ، وعن المظهر إلى المخبر ، إنه ينقلنا نقلا إلى حقيقة الإيمان وطبيعته النقية الأولية ، ولا يحدثنا عن شيء من آثاره وثمراته القريبة أو البعيدة .

فالإيمان فى حقيقته وجوهره ليس من فصيلة الأقوال التى لا تؤيدها الأعمال ، أو الظواهر التى لا تدركها الأسماع والأبصار ، ولكنه شيء فى جذر النفس ، وفى أعماقها البعيدة . فى ذلك القرار المكين يستقر بذر الإيمان وينمو حتى يخرج ثمراته بإذن ربه شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .. وكل مظهر من المظاهر الإيمانية لم ترسخ عروقه فى هذا الحرز الحريز والحصن الحصين فانه يظل فى مهب الرياح وعرضة للتحول والزوال كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

ونحن إذا رجعنا إلى نشأة الإيمان فى النفوس البصيرة ، نجده يولد فيها غالباً من خلال نظرة فاحصة يلقيها المرء على الكون ، فاذا الوجود المادى فى عينيه هباء فى هباء ، قادم من العدم سائر إلى الفناء ؛ وإذا العظمة والثبات والخلود ، إنما هى للحق ، لله الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، والذى لا يسع الفطرة السليمة متى استيقظ وعيها إلا أن تخشع له وتتطامن أمامه .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه ، والترمذى فى جامعه . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وختـام الحديث عند الترمذى : (وبمحمد نبياً) وعند مسلم (وبمحمد رسولا) ، أما الجمع بين النبوة والرسالة كما هنا فهو احدى روايتى أحمد .

فالإيمان المستنير يجىء فى إثر هذا الموقف الخاشع الفطرى ، تقريراً له ، ومصادقة عليه ، فى انبعاثه إختيارية مستقلة .

ولعلك معى — أخى القارىء — أن التاريخ لم يشهد عصراً أحوج من عصرنا إلى هذا الهدى النبوى الحكيم ، فما أبعد الشقة بين الأسماء ومسمياتها ! ! فما أكثر المنتسبين إلى الإسلام ، والإسلام منهم براء ؛ وما أكثر الملقبين بلقب الإيمان وأفئدتهم منه هواء ! !

فان أحببت ألا تكون من أولئك ولا هؤلاء ، فتعال معى قبل كل شىء نعرض أنفسنا على أشعة هذا الحديث الكاشف ، لنختبر بمعاييره مبلغ إيماننا ومدى جدنا فى دعوى الإيمان .

فلننظر الآن فى سياق النطق الكريم ، نجده يجعل الحد الأدنى للفوز فى هذا الاختبار الروحى ، نجاح المرء فى ثلاث مواد مجتمعة :

١ — الرضا بالله ربا .

٢ — الرضا بالإسلام دينا .

٣ — الرضا بمحمد نبيا رسولا .

وهنا ربما يستهين الكثير من الناس بمواد هذا الامتحان ويتعجلون الإجابة عليها ، ويظنون أنهم من الفائزين ، والحقيقة أنهم من أخسر الخاسرين .

فقد يقول قائل : إذا كانت هذه هى كل مواد الاختبار التى تريد أن تمتحن به إيماننا ، فقد هانت المسألة ، وانحلت المشكلة ، ألسنا كانا بحمد الله نرضى بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا رسولا ؟ !

أليست هذه هى الكلمات التى ترددها ألسنة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بملء أفواههم ، أليس هذا هو الشعار المشترك الذى يرفعه مئات الملايين من المسلمين ؟. أولا تسمع أصوات المؤذنين وهم يرددون أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ! !

إذن فقد نجحنا وذقنا طعم الإيمان ، واستمتعنا بحلاوته ! !

ولكننى أقول لا تعجل علينا أيها القارىء الكريم — قبل أن نبين لك معانى كلمات المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وتتحقق من أهداف الحديث ومراميه ، فليست الكلمات هنا كسائر الكلمات التى يتفوه بها الأدباء والشعراء يمكن أن تحل كلمة محل أخرى دون أن يختل المعنى أو تتغير صورته ، فكل كلمة وضعت فى مكانها المناسب ، واختيرت اختياراً دقيقاً ، لو ذهبت لتستبدل بها كلمة أخرى لتغير المعنى ، ولشوهت صورته تماماً .

فقد قال لك المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وهو يضع لك العلامة التى جعلها معياراً لصدق إيمانك (أن ترضى بالله ربا) ، ولم يقل أن (تعرف) ، أو (تقول) أو (تعلن) الخ ...

وشتان بين هذه المعرفة العقلية المجردة ، وبين الرضا القلبى الراسخ فى أعماق النفس .

فالشريعة ليست معرفة ذهنية كسائر المعارف والعلوم النظرية أو العملية ، ولكنها هى أن « يرضى » بذلك قلبك ، وتطيب به نفسك [١] .

ألم يقص علينا القرآن الكريم معرفة بنى إسرائيل للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، بصفته ونعته ، وزمانه ومكانه ، كما يعرفون أبناءهم ، ثم لم تغن عنهم هذه المعرفة شيئاً ، لأنها كانت غصة فى صدورهم ، وشجا فى حلوقهم ، فكفروا به ، لا عن جهل أو ريبة فى أمره ، ولكن حسداً من عند أنفسهم أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ؟ !

فقد جاء فى سيرة ابن هشام [٢] أن صفية بنت حيي بن أخطب سيد اليهود قالت إن أباها وعمها حين ذهبا لرؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم إلى قباء ، والتأكد من أنه هو الذى حدثت عنه كتبهم وأنبياؤهم فقالت صفية : (سمعت عمى أبا ياسر يقول لأبى : أهو هو ؟ قال : نعم والله. قال : أتعرفه بنعته وصفته ؟ قال : نعم والله ، قال : فماذا فى نفسك منه ؟ قال : « عداوته — والله — مابقيت) ! !

---

(١) من مقال للدكتور محمد عبد الله دراز فى مجلة الأزهر .
(٢) سيرة ابن هشام ٥١٣/١ تحقيق الأبيارى والسقا .

وقد كشف الله تعالى عن سر هذه العداوة فى كثير من السور والآيات فقال (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَاآتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) . وقال تعالى :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ) .

وقد تضمنت هذه الآية تقريراً بمعرفتهم صحة التنزيل معرفة لا يتطرق إليها أى شك كما يعرف الأب ابنه . وهم مع ذلك لا يبادرون إلى الإيمان به والوقوف إلى جانبه :

ومعظم الناس **يعرفون** الحلال والحرام ، والجزاء والعقاب ، ومع هذا تراهم ينتهكون حدود الله غير مبالين بسخط الله ، وسوء المصير ، ولم تغن عنهم معرفتهم شيئاً .

فهذه ضروب من المعرفة العقلية المجردة لم تصادق النفس عليها مصادقة طائعة مختارة ، ولكنها تنظر إلى هذه الحقائق الواضحة نظرة ساخطة متبرمة راغمة ناقمة ، وكأنها تشتهى زوالها ، أو تتمنى لو لم تكن جاءت على هذه الكيفية . ولو ذهبنا نستمع إلى بعض الهواجس والخواطر التى تدور فى نفس كثير من الناس لسمعناه يقول : آه ! ولو أحل الله مسألة كذا أو مسألة كذا ، هذه المسألة صعبة لا أستطيع احتمالها ، كما جاء ذلك الشاب إلى رسول الله وطلب منه أن يرخص له فى الزنا ! !

ولكن ما هكذا يكون الإيمان ، إنما الإيمان محبة الله والأنس به ، والانضواء تحت رايته ، فى طمأنينة وأريحية ، وفى هشاشة وبشاشة قلب ، وليس هذا هو معنى « الرضا » بل إنه لا يمثل من الرضا إلا نصف معناه ، فالرضا نصفان : « نصف » ارتياح وطمأنينة وسكون وركون إلى الشىء الذى تعرفه و « نصف » قناعة واكتفاء به ، وعدم تطلع إلى ما وراءه .

فلو أنك استحسنت شيئاً وأحببته ، ثم استحسنت وأحببت غيره كما تستحسنه وتحبه ، أو كنت به أشد استحساناً وحباً ، لم تكن راضياً بالأول قانعاً به .

المعنى المعقول بألفاظ تدل على محسوسات ، وذلك أن تصوير المعنى فى صورة الشيء المحسوس يزيده تمكنا فى النفس ، وتأثيراً فيها ، ويكفى أن تقرأ قوله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث : (ذاق طعم الإيمان) حيث صورت كلمات العبارة المعنى أكمل تصوير ، ليشعرك به أتم شعور وأقواه .

فكلمة (ذاق) تلقى فى حسك ونفسك المعنى إلقاء ، سيما إذا قلت (ذاق طعم) فالذوق يعرف باحدى الحواس المعروفة ، والطعم تناول الغذاء ويسمى ما يتناول منه طعم وطعام. قال الله تعالى : (وطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ) .. ويقال : استطعمه فاطعمه ، ورجل طاعم حسن الحال ، ومطعم مرزوق ، ومطعام كثير الاطعام ، ومطعم كثير الطعم ، والطعمة ما يطعم .

فالذوق ، والطعم كلمتان تستعملان للتعبير عن الأمور المحسوسة عادة ، ولكن انظر إلى التعبير النبوى الكريم كيف استعملهما مع « الإيمان » ، والإيمان أمر معنوى لا يمكن أن يذاق طعمه ، إلا بهذا الأسلوب التصويرى الذى يجسم المعنويات على طريقة التخييل والتجسيم حيث يخرج المعنى الذهنى شاخصاً مجسما عن طريق إثارة الوجدان وإمتاع العاطفة .

وطعم الإيمان استعارة بالكناية ، حيث شبه الرسول عليه الصلاة والسلام الإيمان بشيء له طعم يذاق ، تشتهيه النفوس وتتقبله الأذواق وترتاح إليه .. ووجه الشبه الشعور باللذة فى ذوق الطعم وميل القلب ، ثم حذف المشبه وأثبت له لازم ذلك وهو الطعم بالمعنى السالف .

فالتعبير بذوق طعم الإيمان تصوير فنى بديع ، فالصورة هنا تكاد تكون مرئية ، حيث عبرت عن نعمة الإيمان بصورة من يذوق طعم شيء لذيذ من أصناف المحسوسات ، وهى صورة رائعة لما تلقيه فى روح السامع ، وما تتركه فى نفسه من آثار ، وإيحاءات ، تبقى صورتها شاخصة أمام عينيه .

فالصورة هنا اعتمدت على أخذ الكلمات الموضوعة للأمور المحسوسة ، لتدل بها على معقول معنوى ، حتى يصير كأنه ملموس مرئى .

فالجملة النبوية الشريفة (ذاق طعم الإيمان) جسمت الإيمان كأنه شيء له جسم وحيز وأبعاد ، ونقلت السامع من حد السماع إلى حد العيان ، وشخصت

وهنا يجب أن نقف وقفة متأملة عند كلمة (الرضا) التى اختارها رسول الله صلى الله عليه وسلم للتعبير عن حقائق الاسلام ، والتى لا يتم إيمان أحد إلا « بالرضا » بالله وبرسوله وبالإسلام . !

فما معنى هذه الكلمة التى هى ميزان الموازين جميعاً ؟ .

فاذا رجعنا إلى اللغة وجدنا العلماء يقولون : رَضِيَ يَرْضَى رِضا فهو مَرْضِيٌّ وَمَرْضُوٌّ ، ورضا العبد عن الله أن لا يكرَه ما يجرى به قضاؤه ، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمراً لأمره ومنتهياً عن نهيه ، قال الله تعالى: (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْه) . والرضوان الرضا الكثير ، ولما كان أعظم الرضا رضا الله تعالى خص لفظ الرضوان فى القرآن بما كان من الله تعالى ، كما قال عز وجل :

(يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا) وقال : (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَة مِنْهُ وَرِضْوَان) .

فهذه الكلمة (رضى) كلمة مختارة موحية مصورة لمعناها بما تلقيه فى خيالك وحسك من معنى الرضا الشفيف اللطيف ، وجوه الطاهر المنعش النقى ، الذى يملأ النفس غبطة وسروراً . وهذا من أخص خصائص الأسلوب النبوى أنه لا يتهاون فى استعمال اللفظ ، ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا تمويه ، فاختيار الكلمة أدق من السحر ، وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر ، كما يقول الباقلانى رحمه الله [١] .

فكل كلمة فى الأسلوب النبوى كاللبنة فى البناء ، لا يصلح غيرها فى موضعها ، لأن لكل كلمة دلالة خاصة ، وإيحاء خاصاً ، وانسجاماً فى التركيب ، يضع الكلمة المعبرة عن المواقف والأحداث والمصورة لخلجات النفوس ، وخطرات الضمائر أصدق تصوير ، وكما أن أسلوب الحديث يدقق فى اختيار كلماته فانه يختار الكلمات المصورة لمعناها أكمل تصوير . فتجعل المعنى مصوراً تراه بعينيك ، وتلمسه بيديك ، إذ يعبر عن

---

(١) اعجاز القرآن / ١٨٤ .

هذا المعنى المجرد (الإيمان) بصور الحالات النفسية والمعنوية .. وذلك عن طريق الانتقال بالكلمات من حيز إلى حيز ، ومن مجال إلى مجال ، وهذا أقرب وألصق إلى خاق مشهد ، أو تجسيم منظر تنبض من خلاله المعانى والأفكار ، فتصور المنظر للعين ، وتنقل الصوت للأذن ، فهذا التصوير عدل عن التعبير المجرد إلى الرسم المصور .

وبهذه الطريقة التصويرية التى هى سمة من سمات البلاغة النبوية — تنقل المعانى المجردة من ظلالها الجميلة إلى النفس من منافذ شتى . من الحواس بالتخييل . ومن الحس عن طريق الحواس . ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء ، ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس ، لا منفذها الوحيد الفريد .

وبعد هذه الإثارة الوجدانية ، واستجاشة عاطفة السامع بهذه الجملة الرائعة (ذاق طعم الإيمان) فان النفس تتطلع إلى معرفة الكيفية التى يمكن أن يذوق بها الإنسان حلاوة الإيمان ، ويجد صداه فى نفسه ، ومن ياترى لا يود أن يتمتع بهذه اللذة ؟ فحتى المكابر المعاند فان نفسه تتوق إلى تجربة ذلك والتأكد من صحته ؟ فالجملة مثيرة للغاية ، فالايمان يذاق ، وله طعم ، وأى طعم ؟ كيف يمكن هذا ؟ فالحديث امتاز ببراعة الاستهلال ، وإثارة الرغبة الشديدة فى النفس للتعرف على ذلك المجهول .

ففى التعبير بذوق طعم الإيمان روعة وسحر ، فيه إبراز للمعنويات فى صورة المحسوسات ، إذ جعل الإيمان وهو أمر معنوى ، لا تدركه الحواس فى منزلة المحسوسات التى يمكن أن يتذوقها الانسان بحواسه ، ويجد له طعماً خاصاً ، ويشعر بلذة متميزة لهذا الطعم ، وهذا يثير فى النفس عنصر التشويق واللذة ، وترقب الفائدة ، وامتلاك ناصية الفؤاد التى يدفع إليها إبهامه . فالإيمان شىء يمكن أن تصيبه ، وتدركه ، وتظفر به ، بل يمكنك أن تذوق طعمه ، وتجد حلاوته ، وتشعر بلذته ...

وهكذا بدأ الحديث فى هذه الجملة بتقدير أن ثمة أشياء إذا هى اجتمعت فى قلب مؤمن فقد ذاق طعم الإيمان ووجد حلاوته التى لا تطيب الحياة إلا بها ، ولا يشعر الإنسان بالسعادة إذا فقدها .

وهذا التقرير قصد به الإثارة والتنبيه والتشويق وتهيئة عقل السامع وقلبه وكل حواسه وملكاته للتلقى والحفظ والفهم والعمل حتى تنال هذه الثمرة العظمى التى هى أمنية كل نفس وأمل كل إنسان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ..

وبعد هذه الإثارة الفنية الرائعة وضع الرسول المربى العظيم شروط الحصول على هذه اللذة ، ورسم معالم الطريق إليها فى كلمات قليلة هى الغاية فى الفصاحة والبلاغة والاعجاز . فقال صلى الله عليه وسلم (ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا) . فهذا هو الشرط الأول من شروط ذوق الإيمان (الرضا بالله ربا) فما معنى الرضا بالله ربا على ضوء هذا الميزان الدقيق الذى وضعه الرسول عليه الصلاة والسلام لنضع أنفسنا فى كفته ، ولنعرف منزلتنا ونحاسب أنفسنا قبل أن يحاسبنا ربنا سبحانه ؟

إننا إذن أمام ميزان توزن به الأشياء ، ولكن هذا الميزان من الموازين التى لا عهد لنا بها فى حياتنا الدنيوية ، إنه ميزان الإيمان ، ولا أقول ميزان الذهب أو الفضة أو الميزان الحساس أو غيرها من الموازين .

عجباً ، وهل يوزن الإيمان ؟ نعم ، وهذا الميزان الدقيق لا يخطىء أبداً ويضع الدرجة التى يستحقها الإنسان ، ويعرف منزلته حق المعرفة ، فان وجد خيراً فليحمد الله ، وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

نعم . إن مدار الإسلام كله وقطب رحاه يتوقف على هذا الميزان (من رضى بالله ربا) :

وإننا هنا فى حاجة إلى التعرف على كلمات هذه الجملة التى سنزن أنفسنا بها ، فكل كلمة وضعت فى مكانها المناسب ، واختيرت اختياراً دقيقاً ، وهذا الاختيار سمة فنية من أهم سمات الحديث النبوى ، وخاصية من أخص خصائصه . وهذه الكلمات من أهم ما يميزها عن غيرها أنها تعطى المعانى والأحكام الغزيرة بحروفها القليلة ، كما أنها هى القادرة وحدها على التعبير عن هذه المعانى ، وهى أنسب كلمات اللغة للمكان الذى وضعت فيه واختيرت له .

فكلمة (رضى) ومشتقاتها بحر من المعانى الفياضة ، والأحكام النفسية يصعب أن يعرف مداه إلا الله ، ورسوله الكريم الذى أدبه فأحسن تأديبه .. وإنك تستطيع أن تكتب مؤلفاً كاملا حول معنى الرضا وشروطه وأحكامه وثمراته ، وما أظنك ستوفى رغم هذا « الرضا » حقه .. وإننى مضطر إلى أن أغرف لك غرفة من فيض هذا البحر الزاخر بالدرر والجواهر الفريدة ..

وقد كثرت أقوال العلماء فى الرضا : فقال الجنيد : الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلب . فاذا باشر القلب حقيقة العلم أداه الرضا .

وقال عطاء : الرضا سكون القلب إلى قديم إختيار الله للعبد أنه اختيار له الأفضل . فيرضى به . قيل : وهذا رضا بما منه ، وأما الرضا به : فأعلى من هذا وأفضل . ففرق بين من هو راض بمحبوبه ، وبين من هو راض بما يناله من محبوبه من حظوظ نفسه .

وقد سئل عثمان رضى الله عنه عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : (أسألك الرضا بعد القضاء) ، فقال : لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا ، والرضا بعد القضاء هو الرضا .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما : (أما بعد فان الخير كله فى الرضا . فان استطعت أن ترضى وإلا فاصبر) .

ومن هنا أن معيار الإيمان هو الرضا بشطريه جميعاً . فلا يذوق طعم الإيمان إلا من كانت منزلة الحق تبارك وتعالى عنده منزلة « حب » و« إيثار » حقاً .

وذلك أن الحق غيور ، يتطلب الانفراد والوحدانية ، ولا يقبل المشاركة ، ويتطلب أن يكون له فى نفس المؤمن المنزلة العظمى التى لا يحتلها ولا يزاحمه فيها غيره .

ومن ثم كان شأن المؤمن أن تسخو نفسه بأن يضحى بكل شىء فى سبيل الحق .. فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته كلها إليه ، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له .

والرضا بربوبيته : يتضمن الرضا بتدبيره لعبده . ويتضمن انفراده بالتوكل عليه ، والاستعانة به ، والثقة به ، والاعتماد عليه ، وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به .

فالأول : يتضمن رضاه بما يؤمر به . والثانى : يتضمن رضاه بما يقدر عليه .

وقيل ليحيي بن معاذ : متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا ؟ فقال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه ، فيقول : إن اعطيتنى قبلت . وإن منعتنى رضيت ، وإن تركتنى عبدت . وإن دعوتنى أجبت) .

فمعنى قوله صلى الله عليه وسلم إذن (من رضى الله ربا) أى أن يرضى العبد بعباده ربه وحده ، وأن يسخط عبادة غيره ، ومن رضى به رباً حقاً نبذ عبادة مادونه قطعاً ، لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته ، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهيه . وعبادة الله الحقة هو الحب مع الذل لله . فكل من ذلات له وأطعته وأجبته أكثر من الله ، فأنت له عابد . فمن البدهى أن الحب يستلزم الطاعة للمحبوب ، والحرص على رضاه ، بكل وسيلة . على أن الحب مشروط هنا أن يكون أقوى الحب ، وأرسخه وأدومه ، فمن نتائجه المحتومة اتباع كل ما أمر الله ورسوله به ، واجتناب كل مانهى الله ورسوله عنه .

فلا يصح الرضا إلا بثلاثة شروط : أن يكون الله عز وجل أحب الأشياء إلى العبد وأولى الأشياء بالتعظيم ، وأحق الأشياء بالطاعة .

وهذا يعنى أن يكون الله عز وجل أحب شيء إلى العبد ، بأن تسبق محبته إلى القلب كل محبة . فتتقدم محبته المحاب كلها ، وتقهر محبته كل محبة فتكون محبة غيره تابعة لمحبته . فهو وحده المحبوب المعظم المطاع . فمن لم يحبه ولم يطعه ولم يعظمه فهو متكبر عليه . ومتى أحب معه سواه ، وعظم معه سواه ، وأطاع معه سواه فهو مشرك .

كيف لا ؟ والله تعالى يقول : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وإِخْوَانُكُمْ وأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتِكُمْ وأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ) .

فتوعد الله سبحانه بالعقاب الشديد الذى لايقدر قدره إلا الله ، كل من آثر على رضا الله ورسوله رضا أبيه وأخيه أو زوجه أو عشيرته ، أو هؤلاء جميعاً.

أو من زاد اهتمامه بأمواله وتجارته أو مسكنه أو بها جميعاً – على اهتمامه بطاعة الله وطلب رضاه . ثم وصف هذا وذاك بالفسوق ، أى الخروج عن طاعته ، والكفران بنعمه .

وصدق أبو بكر الصديق رضى الله عنه : (من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر) .

وإذا عرفت معنى الرضا ، وشروطه ، على قدر ما يسمح به المقام عرفت هذه الخاصية العجيبة من خصائص البلاغة النبوية وهى إعطاء المعانى الغزيرة فى كلمة واحدة أو كلمتين .

وتأمل الدقة المتناهية فى هذا الأسلوب النبوى المعجز فى قوله صلى الله عليه وسلم (من رضى بالله) ولم يقل (عن الله) وما أعظم الفرق بين الاستعمالين .. فالرسول الكريم وهو أفصح العرب جميعاً يدقق كثيراً فى إختيار كلماته وهذه سمة من سماته الفنية ، وروعته البيانية .

إن الرضا بالله رباً وإلها معبوداً فرض ، بل هو من آكد الفروض باتفاق الأمة ، فمن لم يرض به ربا ، لم يصح له إسلام ولا عمل .

وإن الرضا به رباً يتضمن الرضا عنه ويستلزمه . فان الرضا بربوبيته : هو رضا العبد بما يأمره به ، وينهاه عنه ، ويقسمه له ويقدره عليه ، ويعطيه إياه ، ويمنعه منه ، فمتى لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضى به رباً من جميع الوجوه ، وإن كان راضياً به من بعضها ، فالرضا به رباً من كل وجه يستلزم الرضا عنه ، ويتضمنه بلا ريب .

وأيضاً : فالرضا به ربا متعلق بذاته ، وصفاته ، وأسمائه ، وربوبيته العامة والخاصة . فهو الرضا به خالقاً ومدبراً ، وآمراً وناهياً ، وملكاً ومعطياً ، ومانعاً ، وحكماً ، ووكيلا ووليا ، وناصراً ومعيناً . وكافياً وحسيباً ورقيباً ، ومبتلياً ومعافياً ، وقابضاً وباسطاً ، إلى غير ذلك من صفات ربوبيته .

وأما الرضا عنه ، فهو رضا العبد بما يفعله به ، ويعطيه إياه . ولهذا لم يجيء الثواب والجزاء . كقوله تعالى

(يَـأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً).

فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته . كقوله تعالى :

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدا . رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ . ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه) .

والرضا به : أصل الرضا عنه ، والرضا عنه ثمرة الرضا به .

وسر المسألة : أن الرضا به : متعلق بأسمائه وصفاته . والرضا عنه : متعلق بثوابه وجزائه .

ومن هنا ترى الأسلوب النبوى المعجز قد علق ذوق طعم الإيمان بمن رضى بالله ربا . ولم يعلقه بمن رضى عنه (ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبياً ورسولا) ، فجعل الرضا به قرين الرضا بدينه ورسوله . وهذه الثلاثة هى أصول الإسلام التى لا يقوم إلا بها وعليها .

وأيضًا فإن الرضا به رباً يتضمن اتخاذه وليًا ومعبودًا ، وإبطال عبادة كل ما سواه . وقد قال تعالى لرسوله : (أَفَغَيْرَ اللهِ ابْتَغِي حَكَمًا ؟) وقال : (أَغَيْرَ اللهِ اتَّخِذُ وليًا ؟) وقال : (أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا ؟ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيءٍ؟) . فهذا هو عين الرضا به ربًّا ، أى لايتخذ ربا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره ، وينزل به حوائجه .

وقد جعل الحديث حقيقة الرضا به رباً : أن يسخط عباده ما دونه . فمتى سخط العبد عبادة ما سوى الله من الآلهة الباطلة ، حباً وخوفاً ، ورجاء وتعظيماً ، وإجلالا ، فقد تحقق الرضا به ، الذى هو قطب رحى الإسلام .

وأيضاً : فان الحديث جعل حصول هذه الدرجة من الرضا موقوفاً على كون المرضى به رباً سبحانه وتعالى أحب إلى العبد من كل شىء ، وأولى الأشياء بالتعظيم ، وأحق الأشياء بالطاعة . ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية ، وينظم فروعها وشعبها .

ولما كانت المحبة التامة ميل القلب بكليته إلى المحبوب : كان ذلك الميل حاملا على طاعته وتعظيمه . وكلما كان الميل أقوى : كانت الطاعة أتم ، والتعظيم أوفر . وهذا الميل يلازم الإيمان ، بل هو روح الإيمان ولبه . فأى شىء يكون أعلى من أمر يتضمن أن يكون الله سبحانه أحب الأشياء إلى العبد ، وأولى الأشياء بالتعظيم ، وأحق الأشياء بالطاعة [1] .

وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان كما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله . وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار [2]) .

فعلق ذوق الإيمان بالرضا بالله رباً ، وعلى وجود حلاوته بما هو موقوف عليه ، ولا يتم إلا به ، وهو كونه سبحانه أحب الأشياء إلى العبد هو ورسوله ، ولما كان هذا الحب التام ، والإخلاص — الذى هو ثمرته — أعلى من مجرد الرضا بربوبيته سبحانه : كانت ثمرته أعلى . وهو وجدان حلاوة الإيمان وثمرة الرضا : ذوق طعم الإيمان ، فهذا وجد حلاوة ، وذلك ذوق طعم ، وإنما ترتب هذا وهذا على الرضا به وحده رباً ، والبراءة من عبودية ما سواه ، وميل القلب بكليته إليه ، وانجذاب قوى المحب كلها إليه ، ورضاه عن ربه تابع لهذا الرضا به . فمن رضى بالله رباً رضيه الله له عبداً ،

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ١٨٥ ، ١٨٦

(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى

ولا ينال هذه الدرجة الكريمة إلا بالرضا به لا بالرضا عنه ، فان العبد قد يرضى عن الله فيما أعطاه وفيما منعه ، ولكن لا يرضى به وحده معبوداً وإلهاً . ولهذا ضمن رضا العبد يوم القيامة لمن رضى به رباً . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (من قال كل يوم : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة) .

وبعد : وماذا عساى أن أقول فى هذه العبارة الرائعة (من رضى بالله رباً) غير أنها من كلام النبي الكريم الذين آتاه الله جوامع الكلم الطيب ، واختصر له القول اختصاراً ، وأدبه فأحسن تأديبه ، فكان خلقه القرآن ، وأسلوبه يأخذ من القرآن ، ويتأثر به أيما تأثير فى لفظه ومعناه .

فإذا تأملت قوله تعالى : (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا) وقوله (قلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا) وقوله (أَفَغَيْرَ اللهِ ابْتَغِي حَكَمًا) .

نعم إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل ، رأيتها هى نفسها الرضا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ورسولا . ورأيت الحديث يترجم عنها ، ومشتق منها ، فكثير من الناس يرضى بالله رباً ، ولا يبغى رباً سواه ، لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصراً . بل يوالى من دونه أولياء . ظناً منه أنهم يقربونه إلى الله ، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك . وهذا عين الشرك . والقرآن مملوء من وصف المشركين أنهم اتخذوا من دونه أولياء .

وكثير من الناس يبتغى غيره حكماً ، يتحاكم إليه ، ويخاصم إليه ، ويرضى بحكمه .. وهذه المقامات الثلاث هى أركان التوحيد : أن لا يتخذ سواه رباً ، ولا إلها ، ولا غيره حكماً (١) .

هذا هو حجر الأساس فى بنية الإيمان . فما هو مبلغ رسوخه فى نفوس الناس اليوم ؟ .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٨٢

فلننظر معشر المسلمين كم منا من لا يتخذ من دون الله أرباباً يخشونهم كخشية الله أو أشد خشية ؟ ويحبونهم كحب الله أو أشد حباً ؟

وكم منا من نجا من شرور هذه الوثنيات الحديثة بمسمياتها العجيبة وثنية تعيش معنا تأكل وتشرب وتنطق كما نأكل ونشرب ونفكر . إنها من فصيلة البشر ولكنها امتازت بأنها أوتيت حظاً من المال أو الجاه أو السلطان ، فترى الناس يتزامون على أعتابها ، مملوءة قلوبهم رغبة ورهبة ، خاضعة أعناقهم لطاعتها فى المعروف والمنكر ، يعلقون عليها آمالهم ، ويشكون إليها آلامهم ، واثقين بأن فى أيديها حل كل مشكلة ، وتفريج كل أزمة . ولو فتشت قلوبهم فى تلك اللحظات لوجدت اسم الله لم يخطر لهم على بال ، ولوجدتهم قد غابت عنهم تلك الحقيقة الناصعة .

(مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ومايُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ) وَقوله (وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بضُرٍّ فَلَا كاشِفَ لَهُ إلَّا هُوَ ، وإن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) .

تلك عبادة الأشخاص الزائلة ، والظلال الآفلة ، وهناك وثنية الأرض والوطنية والقومية وغيرها من الضلالات التى لا تقع تحت حصر .

وإنها لعمرى لوثنية عم بها البلاء ، وعز منها الشقاء .

وهناك وثنية ألعن وأضل سبيلا من كل هذا ، وهى أن كثيراً من الناس اتخذ معبوده أصناماً لا يدركها الحس ، بل تكمن فى داخل النفس ، وهى على فرط دقتها وخفائها أشد تسلطاً واستعباداً للنفوس . تلك هى عبادة الأهواء والشهوات . ولعلها هى بداية الطريق إلى سائر الوثنيات :

(أَفَرَأَيتَ مَن اتَّخَذَ إلٰهَهُ هَواه!) (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن اتَّبَعَ هَوَاهُ) .

فأين هى وثنيات الشجر والحجر ، والشمس والقمر وأشباهها من هذه الوثنيات الحديثة ؟ .

هذا ، وإذا عرضنا أنفسنا على مادة الاختبار الأولى من هذه المواد التى وضعها النبي الكريم ليقيس بها المؤمن مدى إيمانه فتعال — نجرب حظنا مع المادة المادة الثانية : (الرضا بمحمد نبياً رسولا) .

والسؤال الذى يطرح نفسه ، هل كل المسلمين (الجغرافيين ، أو الذين يحملون شهادات ميلاد إسلامية) ينعمون بنعمة هذا الرضا ؟ . أليست فى ملايين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها اليوم فئة تعد فى عداد أهل الإسلام ، وتزعم أنها تؤمن بنبي القرآن ، ثم هى قد اتخذت نبياً دعياً زعمت أنه يوحى إليه بما يعدل فى الشرع ويبدل ، ويحرم ويحلل ، وينسخ ويمسخ ؟ فهل قنع هؤلاء بمحمد نبياً رسولا ؟ كيف وقد زعموا نبوة بعد نبوته ورسالة بعد رسالته ؟ ألم يعلموا أنه صلى الله عليه وسلم « خاتم النبيين » بنص القرآن ؟ فلينظر المعرضون عن هذا الحديث هل دخل الإيمان فى قلوبهم ؟ وهل ذاقوا طعم الإيمان ووجدوا حلاوته ؟

وهناك فئات أنكرت السنة النبوية جملة وتفصيلا ، وقالت لا حاجة لنا بها ما دام القرآن موجوداً ، وسمت نفسها « أهل القرآن » ، والقرآن برىء منهم ؟ وهؤلاء كأولئك يدعون الاسلام والإيمان ؟

وهناك فئات كثيرة لا تتخذ الرسول عليه الصلاة والسلام قدوة فى حياتها بل خرجت على سنته قولا وعملا ؟

وهناك فئات تؤمن بالله وترضى به وتدعى محبة الله ورسوله ولكن لاتعمل بما — أمر الله ورسوله به ولا تجتنب ما نهى الله ورسوله عنه ؟

وهناك ، وهناك . الخ . فهل هؤلاء وهؤلاء وأولئك قد رضوا بالله رباً وبمحمد نبياً رسولا ؟ لا ، وألف لا .. وهذا هو سر البلاء وسبب الشقاء الذى حل بالمسلمين اليوم ..

أما مادة الإختبار الثالثة فهى : (الرضا بالإسلام ديناً) . وقد حدثتك عن نبأ من فئات المسلمين أو هذه المسميات الإسلامية ، فإليك نبأ فئات من المسلمين بل من المنتسبين إلى العلم والدين ، تراهم لا يعتنقون شريعة الإسلام جملة ، ولا يدينون لها كُلاً ذا وحدة ، ولكنهم يأخذون منها ويذرون ،

كأنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، فما وافق أهواءهم ، نوهوا بعدالته ، وأشادوا بسمو حكمته ، وما عارض ميولهم وأذواقهم ، رأيتهم يقفون منه مواقف شتى : (فمنهم) من يحاول تأويله بتحريف الكلم عن مواضعه عسى أن يجد فيه شاهداً له أو عليه فيصبح فى حل أن يقول برأيه ما شاء فى حكم مسكوت عنه .

ومنهم : من لا يجد فى النص مجالا للتأويل ، فلا يجد أمامه حيله إلا أن يشير بوقف تنفيذه مؤقتاً ، نزولا على ما يسميه ضرورات المدنية العصرية . والله يعلم ما هى بضرورات ، ولكنها الشهوات والنزوات . . . ومنهم : من لا يبالى بمعارضة حكم الله جهاراً ، فينادى بأنه تشريع وضع لبيئة غير بيئتنا ، وعصر غير عصرنا ، وأنه يجب تعطيله واتخاذ تشريع جديد غيره وفقا للمصلحة ، ولو أنصف لقال : وفقا للهوى المتحكم ، والمنفعة العاجلة .

ومنهم ومنهم ، ومنهم ، وأخشى لو مضيت فى تصنيفهم وذكر فئاتهم لا أبقى على أحد من المنتسبين إلى الإسلام . فهم مسالك شتى ، وأساليب متنوعة ، ولكنها تصدر كلها عن وضع نفسى واحد سافر أو مقنع ، هو التبرم بشىء من شرائع الإسلام ، والرغبة الملحة فى التخلص من قيودها .

فمن كان يظن أن هؤلاء ذاقوا طعم الإيمان فهو مخطىء لا يعرف عن شرع الله شيئاً ؟ ؟

وبعد ، فقد استعرضنا هذا الميزان الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين لكى يقيسوا به إيمانهم وأن يحاسبوا بموجبه نفوسهم . .

ولقد شعرنا من خلال التجوال فى جنبات هذا الحديث الشريف بلذه ونشوة روحية ، ومتعة عقلية ، ذلك أن أسلوب الحديث قد عمد إلى إقناع العقل ، وإمتاع العاطفة ، ولقد جمع هاتين المتعتين معاً ، ذلك لأن فى النفس الإنسانية قوتين : قوة التفكير ، وقوة الوجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة الأخرى . فان أحدهما تنقب عن الحق لمعرفته ، وعن الخير للعمل به ، وأما الأخرى فتسجل لك إحساسها فى الأشياء لذة وألماً . والتصوير البيانى البديع هو الذى حقق لك هاتين الحاجتين وطار إلى نفسك بهذين الجناحين ، فحصلت على المتعة الوجدانية ، والفائدة العقلية .

والحديث بجملته — كما قد رأيت — مال إلى جانب التصوير الفنى الرائع فى التعبير عن المعنى المقصود ، وتلك هى ميزة من مزايا الأسلوب النبوى بعامة وهو إخراج ما لا تقع عليه الحواس إلى ما تقع عليه ، وسر روعة هذا الأسلوب وسحره ، هو أن الألفاظ تقوم بإلصاق صورة المعنى وشكله بإحساسك ، فهى وسيلة لصب المعانى الفكرية المجردة فى قوالب من الشخوص والمحسوسات تتحرك فى داخل الخيال حاملة صورة المعنى مثبته فيه الحركة والحياة . فكل عبارة ، بل كل كلمة مثل (ذاق طعم الإيمان) تلقى فى الفكر والخيال صورة بيانية كاملة فى روعتها ، دقيقة فى تصويرها :.

وميزة أخرى امتاز بها أسلوب هذا الحديث هى إعطاء المعانى الغزيره والأحكام الكثيرة بألفاظ قليلة فى غير تعقيد ولا تكلف . مثل كلمة (رضى). وصدق الجاحظ فى وصف كلامه عليه الصلاة والسلام (هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، استعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصد) .

وإنك لترى التناسق والإتساق التام بين عناصر هذا الحديث الشريف ، كل عبارة مرتبة على سابقتها ، وكأنها نتيجة وثمرة طبيعية لها . فتأمل قوله صلى الله عليه وسلم : (ذاق طعم الإيمان : من رضى بالله ربا — وبالإسلام ديناً — وبمحمد نبياً رسولا) ، فالرضا بالله رباً يتقدم هذه العناصر جميعاً لأن بدونه لن تكون بقية العناصر ، لأن الرضا بالله هو الركيزة الأساسية التى تقوم عليها كل العناصر ، فمن رضى بالله ربا رضى بالإسلام ديناً لأن الدين من عند الله ولا يجوز أن يرضى بالله ويدين بدين غير دينه ، وكيف يرضى بالله وبدينه ولا يرضى برسوله الذى اختاره واصطفاه وأمر باتباعه واتخاذه قدوه حسنة ، وجعل طاعته من طاعة الله ، ومحبته من محبته ؟ وهذا سر من أسرار هذا الحديث البلاغية حيث رتب كل فكرة على أختها فى تسلسل وإحكام تام .

ولا يخفى عليك بعد هذه كله هذه الموسيقى الداخلية التى تنبعث من خلال الانسجام الصوتى من توالى حرف الراء والميم وتكرار الكلمات (ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً رسولا) .

ثم تأمل الفاصلة الموسيقية فى الكلمات (رباً ، ديناً ، نبياً ، رسولا) .

فهذه موسيقى تنبعث من الانسجام الصوتى بين حروف الكلمات ومقاطعها وتتناسب مع جو الحديث الندى الهادىء الرقيق الذى ينساب ، لأنه يخاطب قلوب المؤمنين الشفافة الرقيقة ، ويرغبهم فى محبة الله ورسوله وشريعته .
فجاءت الموسيقى شاجية النغم ، حلوة الجرس ، عذبة الرنين ، تطرب بلفظها كما تطرب بمعناها ليتم لها الحسن من جميع جهاته ؟ ؟ .

الاشتغال بالمهمات

روى الترمذى وابن ماجة عن أَبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(مِنْ حُسنِ إسلامِ المرءِ تَركُه مالا يَعنيه) .

المعانى والتصوير : —

أوتى النبى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصاراً ومن جوامع كلمه هذا الحديث الذى نحن بصدده ، والذى نحاول بعون الله أن نكشف الغطاء عن بعض ما يكن من دقائق وأسرار .

وهذا الحديث أصل عظيم من أصول تأديب النفس وتهذيبها وردعها عن الرذائل والنقائص . ويعلمنا الذوق وحسن الحديث، وجمال الأخلاق ، كما يعلمنا الجد والإجتهاد ، والانصراف إلى الواجبات ، والاشتغال بالمهمات.

والأئمة العلماء يعتبرون هذا الحديث من أهم الأحاديث فى قواعد الأخلاق وأصول الأدب . فقد حكى الإمام أبو عمرو بن الصلاح عن أبى محمد ابن زيد إمام المالكية فى زمانه أنه قال : جماع أداب الخير وأزمّته تتفرع من أربعة أحاديث : قول النبى صلى الله عليه وسلم : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) . وقوله عليه الصلاة والسلام : (المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه) وقوله للذى اختصر له الوصية : (لا تغضب) . وهذا الحديث .

وقال أبو داود عن هذا الحديث : (إنه من الحكم التى لا يصح نظيرها عن أحد قبله صلى الله عليه وسلم ؛ أما ما روى عن إبراهيم عليه السلام من أنه قال : (من عد كلامه من عمله ، قل كلامه إلا فيما يعنيه) ، فهذا على تقدير صحته خاص بالكلام . أما تركه ما لا يعنيه ، فهو أعم من الكلام ، مع أن لفظه أبلغ وأوجز . .

وتتمثل أهم سمة من سمات الحديث النبوى وخصائصه الفنية فى هذا الحديث ، فقد كان صلى الله عليه وسلم موجز اللفظ يقصد إلى الهدف ويهدف إلى الجادة فى القول كما هدى إليها فى الفعل ، وهى من خصائص النبوة وآيات العبقرية . . ولهذا وصفت البلاغة بين الأدباء بأنها الإيجاز ، لأن كل متكلم يستعين على الإفهام ويردد فى سياق الكلام لنقص علمه بحاجة السامع ، وعدم اطمئنانه إلى أنه وفّى . . ولهذا تكثر الإطالة فى كلام الأعاجم ومن على شاكلتهم فأما العرب الخلص فيتنافسون فى لمحة دالة وكلمة جامعة . . وهذا ما جعل السيد الرسول عليه الصلاة والسلام يتحدث بنعمة الله عليه فيقول : (أوتيت جوامع الكلم واختصر لى القول اختصاراً) .

وجوامع الكلم غير الاختصار كما قد يتوهم . وكان عليه الصلاة والسلام يقول : (نحن معاشر الأنبياء بكاء) ، لأنهم يكرهون الفضول ، ويقصدون إلى الأهداف ، ويعمدون إلى الصراحة .

وعن جرير بن عبد الله ، قال ، قال له النبى عليه الصلاة والسلام : (إذا قلت فأوجز ، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف) ولهذا قال عليه السلام : (أبغضكم إلى الثرثارون المتفيقهون) . . وقد أحصى العلماء كثيراً من الكلام المفيد السامى الذى يشتمل على كلمتين من كلامه كقوله : (الإيمان يمان) ، (والدين النصيحة) و (الدين المعاملة) . (السماح رباح) ، وما إلى ذلك من الكلام العذب المغدق الخصيب المتحلى بمحاسن البديع الطبيعى .

ولعلك ترى فى هذه المحاولة أن ذلك توفيقاً لا إقلالاً ، وإصابة لا عجزاً ، وهو من الحكمة التى وصف بها الجاحظ هذا الكلام فقال : (هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانية ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف . قال الله تعالى : (قل لا أسالكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) ، فكيف وقد جانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر . . وهجر الغريب والوحشى ، ورغب عن الهجين والسوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشدّ بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن

الإفهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، ولم تسقط له كلمة . ولا زلت به قدم . ولا بارت له حجة ، ولم يقم له الخصم إلا بما يعلمه ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] .

هذا ولغلبة الإيجاز على كلام النبي صلى الله عليه وسلم فى غير تكلف ولا عناء مع بلوغ الغاية كان إعجاب الأصحاب به وتعجبهم من مسلكه ، وفى الحق إن ذلك ناحية الامتياز الكبرى فى بيانه صلى الله عليه وسلم ، فإن اجتماع الكلام بقلة ألفاظه مع اتساع معناه وإحكام أسلوبه فى غير تعقيد ، وإطراد ذلك فى كل معنى ، وفى كل باب شىء لم يعرف لأحد قبله . . فأما غيره فإنه يستهلك بالاختصار معنى الكلام ويستولى عليه بالتكلف . ومن شاء فلينظر فى المختصرات فيما بين أيدينا من الكتب ليرى كيف يصنع الاختصار من تشويه الحقائق وتكلف ما يحول دون الفهم . .

وإذا تأملنا هذا الحديث الذى نحن بصدده اوجدناه خير ما ينطبق عليه وصف كلام النبوة الطاهر فقد قال هذه العبارة الموجزة الغنية بأحكامها ومعانيها : (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) . وفى رواية : (من إيمان المرء تركه ما لا يعنيه) ، وفى رواية ثالثة : (إن من حسن إسلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه) .

ومجمل معنى هذا الحديث أن المسلم إذا احسن إسلامه ، وصدق إيمانه فإنه سيترك من الأمور ما لا يهمه . أى من حسن إسلامه ترك ما لا يعنيه من قول وفعل ، واقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعال . .

ولنبدأ بكلمات فى إسلام المرء ، وحسن إسلامه ، وما يعنيه ، وما لا يعنيه ، فإنها المنفذ إلى مكونات هذا الحديث وأسراره .

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٨ .

أما إسلام المرء ، فهو انقياده لشرع الله الذى شرع لعباده وتعبدهم به ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، والوقوف عند حدوده وآدابه .

و (الحسن) عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه ، والشيء إما استحسن من جهة العقل ، أو من جهة الهوى ، أو من جهة الحس ، وأكثر ما يقال الحسن فى متعارف العامة فى المستحسن بالبصر ، وليس المراد هنا أن يترك ما لا عناية له به ولا إرادة بحكم الهوى وطلب النفس ، بل بحكم الشرع والإسلام ، ولهذا جعله حسن الإسلام .

فإذا أحسن الإسلام ترك ما لا يعنيه فى الإسلام ، فإن الإسلام يقتضى فعل الواجبات كما جاء فى حديث جبريل عليه السلام الذى رواه مسلم فى صحيحه : (يا محمد أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . فقال جبريل : صدقت) .

والإسلام الكامل الممدوح يدخل فيه ترك المحرمات كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) . وإذا أحسن الإسلام اقتضى ترك ما لا يعنى كله من المحرمات أو المشتبهات والمكروهات ، وفضول المباحات التى لا يحتاج إليها ، فإن هذا كله لا يعنى المسلم ولا يهمه إذا كمل إسلامه وبلغ إلى درجة الإحسان ، وهو أن يعبد الله تعالى كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه . .

فمن عبد الله على استحضار قلبه ومشاهدته بقلبه ، أو على استحضار قربة منه وإطلاعه عليه فقد حسن إسلامه ، ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه فى الإسلام ، ويشتغل بما يعنيه فيه . فإنه يتولد من هذين المقامين الاستحياء من الله وترك كل ما يستحيا منه ، كما وصى رسول الله رجلا أن يستحى من الله كما يستحى من رجل من صالحى عشيرته لا يفارقه . .

وقد روى الترمذى وأحمد والحاكم بسند صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (استحيوا من الله حق الحياء ،

قالوا : إنا لنستحى من الله والحمد لله . قال : ليس ذاك ، من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، من فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء) .

وقال بعضهم : استحي من الله على قدر قربه منك ، وخف الله على قدر قدرته عليك .

وقال بعض العارفين : إذا تكلمت فاذكر سمع الله لك ، وإذا سكت فاذكر نظره إليك . .

وجاء فى معجم مقاييس اللغة[1] ما يفيد أن مادة « عنى » تدل على قصد الشيء والحرص عليه . .

ويعنيه : من عناه الأمر ، إذا تعلقت به عنايته ، وكان من مقصده ومطلبه .

والعناية شدة الاهتمام بالشيء ، يقال : عناه يعنيه ، إذا اهتم به ، وطلبه . وأما حسن إسلام المرء ، فهو قيامه على هذا الشرع ، وتقبله له بجميل الرعاية ، فيما أمر ونهى ، وأحب وكره ، وتختلف مراتب الحسن باختلاف هذه الرعاية فعلى قدر ائتماره وانتهائه يكون إسلامه ، كما أنه بحسب إخلاصه ويقينه يكون إيمانه . وتبعاً لهذا اختلف المسلمون قوة وضعفاً ، وحقيقة وزعماً حتى سما بعضهم على الملائكة الكرام ، وسفل بعضهم عن بهيمة الأنعام ،

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) .

فيكون معنى (ما لا يعنيه) : ما لا ترتبط به عنايته ، ولا يكون مطلوباً له ولا مقصوداً منه ، لأن العناية هى قوة الاهتمام بالشيء ، والطلب له لما فيه من فائدة ومنفعة . وليس المراد بالعناية هنا العناية الخاضعة للهوى ورغبة النفس ؛ لأن النفس قد تهتم بالملذات والآثام ؛ لما فيها من إغراء

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٤ / ١٤٦ .

وشهوة حسية ، ولكن المراد هنا بالعناية التى يوجه إليها الإسلام ، ولذلك قال الحديث فى أوله : (من حسن إسلام المرء) ففهمنا منه أن ترك ما لا يعنى ينشأ عن تحل المرء بالإسلام ، وعن حسن هذا الإسلام ، أى صدقه واستقامته ولا شك أن ترك ما لا يعنى — إذ كان ناشئاً عن حسن إسلام — يقتضى أن يترك المرء كل ما لا يقيم له الإسلام وزنا أو اعتباراً .

وترك ما لا يعنى لا ينصب فى معناه الأساسى على أداء الفرائض والواجبات أو اجتناب الكبائر والمعاصى ، وإنما يراد منه أن يتعود المسلم الإبتعاد عما لا يليق به شرعاً أو عقلا أو خلقاً ، سواء أكان ذلك عملا أم قولا أم إشارة أم فكرة ، وهذه مرتبة تستلزم البدء بالواجبات والحذر من المنهيات ، ثم تشمل تجنب المشتبهات والمكروهات ، وفضول المباحات .

ولما كان ترك ما لا يعنى ، ليس هو كل حسن الإسلام بل بعضه ، وأن جميع حسن الإسلام إنما هو فى ترك ما لا يعنى ، وفعل ما يعنى ، جاء بلفظ « من » المفيدة لهذا المعنى .

وقد آثر الحديث ذكر « الإسلام » على « الإيمان » لأن الإسلام هو الذى يظهر ، إذ هو الأعمال الظاهرة التى يتأتى فيها الترك والفعل اختياراً . وهذا يدل على دقة الرسول عليه الصلاة والسلام فى اختيار كلماته المعبرة عن المعنى أصدق تعبير . .

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة بفضل من حَسُنَ إسلامه ، ومضاعفة حسناته ، وتكفير ذنوبه ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إذا أحسن أحدكم إسلامه ، فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وكل سيئة تكتب بمثلها ، حتى يلقى الله عز وجل) .

وأخرج النسائى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إذا أسلم العبد فحسن إسلامه ، كتب الله كل حسنة كان أزلفها ، ومحيت كل سيئة كان أزلفها) .

والسيئات التى كان أزلفها ما سبق من الإسلام . وهذا يدل على أن من حسن إسلامه يثاب بحسناته فى الكفر ، ويكفر عنه سيئاته ، بشرط إحسان الإسلام ، واتقاء تلك السيئات فى حالة الإسلام .

ويشهد لهذا ما فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : قلنا يارسول الله أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية ؟ قال : أما من أحسن منكم فى الإسلام فلا يؤاخذ بها ، وأما من أساء أخذ بعمله فى الجاهلية والإسلام » .

وفى صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال للنبى صلى الله عليه وسلم ، لما أسلم : أريد أن أشترط ، قال : تشترط ماذا ؟ قال : أن يُغفر لى ، قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله) ، وهذا يحمل على الإسلام الحسن الكامل . .

ومن هذا ترى أن هذا الحديث الشريف قد وجه الإنسان إلى الاشتغال بالمهمات وعدم التقصير فى الواجبات ، والابتعاد عن المنهيات بكلمات موجزات هى الغاية فى الروعة وغزارة المعانى . فأما ما يعنى المرء فهو كل ما يهمه فى دينه ودنياه ، وآخرته وأولاه ، من علم نافع ، وعمل صالح وسعى حميد إلى غرض مجيد .

ولا ريب أن الناس مختلفون فيما يعنيهم اختلافهم فى النزعات والميول بما أودع الله كلا من عدة ، وما وهب لكل من هبة .

فيعنى المرء فى حياته أن يحسن إلى أهله وعشيرته ، بتعليمهم وإرشادهم ، وتقويمهم وإصلاحهم ، فإنه راع والله سائله عما استرعاه (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته[1] . إلخ ، وأن يحسن إلى أمته ومجتمعه الإسلامى فلا يدخر وسعاً فى رفعتها وإعلاء شأنها ، ولا يألو جهداً فى ابتغاء الخير لها ، فإنه عضو منها ولبنة فى بنائها ، وإذا شل عضو تداعت له سائر الأعضاء ، وإذا سقطت لبنة أوشك أن يتصدع البناء .

ويدخل فيما يعنى المرء ما يروح النفس ويجم القلب من عناء العمل وهموم الحياة ، على ألا يجافى المروءة ، أو يجاوز حد الأدب .

---

(١) راجع يتوسع كتابنا نفحات من النبوة .

والنفس كما قال صاحب العقد موثرة الهوى آخذة الهوينى ، جانحة إلى اللهو ، أمارة بالسوء ، مستوطنة للعجز ، طالبة للراحة ، نافرة عن العمل ، فان أكرهتها أنصبتها (أهزلتها) وإن أهملتها أرديتها .

وجماع القول فيما يعنى المرء هو ما ينفعه فى حاله وماله وعاجل أمره وآجله . وكل ميسر لما خلق له(١) .

وإذا عرف كل امرىء ما يعنيه سهل عليه أن يعرف ما لا يعنيه ، وبضدها تتميز الأشياء . فاذا لم يكن بد من قول جامع لما لا يعنى المرء ، فهو كل ما لا يهمه فى دينه ودنياه ، وحاله ومستقبله ، من لغو القول ، وعبث الفعل ، وسفساف الفضول .

وفضول الناس لا يقف عند حد ، ولا يستطاع البتة حصرها فى عدد ، لأنها فنون متشعبة ، وضروب متكثرة ، وألوان مترجحة بين لغو المباحات ، وكبائر المنكرات . وقصارى ما يمكن إنما هو سياقه أمثلة لها تكون نموذجاً لما وراءها . وربما يكون أكثر ما يراد بترك مالا يعنى حفظ اللسان من لغو الكلام(٢)

وقد روى الخرائطى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : (أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يارسول الله إنى مطاع فى قومى فما آمرهم ؟ قال له : (مرهم بإفشاء السلام ، وقلة الكلام ، إلا فيما يعنيهم) .

وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : (كان فى صحف إبراهيم عليه السلام : (وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها لحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل أن لا يكون ساعياً إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو حرفة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظاً للسانه . ومن علم أن كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه) .

---

(١) مجلة الأزهر — من مقال للشيخ طه الساكت .

(٢) راجع بتوسع كتابنا نفحات من النبوة .

ولقد صدق فيما قال ، فإن كثيراً من الناس يتكلم فيما لا يعنيه ، فينزلق لسانه . ويجازف فى بيانه ، ولايتحرى فى حديثه ، فيقع فى كثير من الأخطاء والمسئوليات ، وقد خفى هذا المعنى على معاذ بن جبل رضى الله عنه حتى سأل عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : أنؤخذ بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يامعاذ ؟ وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار إلاحصائد ألسنتهم ؟ ؟) .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : (من عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه) وهو كما قال رضى الله عنه . . وليس معنى هذه العبارة العمرية أن عد الكلام من العمل أمر مختلف فيه ، أو أنه قد يعد عملا وقد يعد غير عمل ، لأن العلماء متفقون على أن كلام المرء من عمله ، بل معناها أن الإنسان يجب عليه أن يتذكر دائماً أن كلامه من عمله ، وبذلك يقل كلامه إلا فيما ينفع ويفيد .

وروى أسد بن موسى قال حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أول من يدخل عليكم رجل من أهل الجنة . فدخل عبد الله بن سلام ، فقام إليه ناس فأخبروه وقالوا له : أخبرنا بأوثق عملك فى نفسك . قال : إن عملى لضعيف ، وأوثق ما أرجو به سلامة الصدر وتركى ما لا يعنينى . . .

وأهم مالايعنى المسلم لغو الكلام ، ولو تذكر الإنسان أن القرآن الكريم قال : (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) ، ويقول : (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَانَسْمَعُ سِرَّهُمْوَنَجْوَاهُمْ؟ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) — ولعرف أن كل كلامه محسوب عليه ، فإن كان خيراً فله ثوابه ، وإن كان شراً فعليه عقابه ، وإن كان لغوا أو لهوا فهو عبث يتنزه عنه العقلاء ويتجنبه الفضلاء .

ولعل هذه الناحية هى أهم ما يعنيه الحديث ، بدليل الرواية الثالثة للحديث التى تقول : (إن من حسن كلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه) .

وقد أرشد الحديث بعد هذا إلى تهذيب النفس ، ورياضتها على السمو والكمال ، والوصول بصاحبها إلى مكانة مرموقة بين الخلق . وذلك بأن يستحيي العبد من الله تعالى بترك كل شيء يستحيا منه . وإذا وصل الإنسان إلى هذه الرتبة ، فإنه يكون مثالا من العفة والنزاهة والإستقامة والزهد ، وطاعة الله في فعل كل ما أمر به ، واجتناب كل ما نهى عنه .

مر فضولي على لقمان ، وهو في حلقة عظيمة ، يتكلم بالحكمة ، فقال له : ألست عبد بني فلان ؟ قال : بلى ، قال : ألست الذي كنت ترعى عند جبل كذا وكذا ؟ قال : بلى ، قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قدر الله ، وصدق الحديث ، وطول السكوت ، عما لا يعنيني .

وأراد فضولي آخر أن يعيب الأحنف بن قيس ، وأن ينتقصه ، فقال له : بم سدت قومك ؟ فقال الأحنف في هدوء وإفحام : بتركي من أمرك ما لا يعنيني ، كما عناك من أمري ما لا يعنيك .

فالفضول في الحديث والتدخل فيما لا يعني والاشتغال بما يهم أمور تؤدى إلى الفساد ، وإلى قطع الوقت فيما لا يفيد ، مع أن الإنسان مأمور أن يتأمل في أسرار الكون ، ويتفكر في المخلوقات والمشاهد ، ليرى ما فيها من آيات الإبداع ، وأمارات القدرة الباهرة .

وذلك واضح من أنه إذا كان من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ، كان لا محالة من حسن إسلامه كذلك اشتغاله بما يعنيه . ومن كان له عقل يمنعه أن يشتغل بما لا يفيد فخليق بمثله أن يشتغل بما يفيد .

وإنما آثر النبي صلى الله عليه وسلم ناحية الترك على ناحية الفعل ، لأن التروك على كثرتها لا تكلف الإنسان شيئاً فهم فيها سواء ، وما عليهم إن أرادوا الخير لأنفسهم إلا أن يجافوها ويسكتوا عنها ، ولا يصيخوا لدواعي الهوى ، ونزعات الشهوات ، أما الأفعال وهي محدودة أو تكاد — فهي تحصيل وإنشاء ، وليس كل الناس قادر على البناء ، ثم إن حياة القادرين — بله العاجزين — لا تتسع مهما امتدت لكل الواجبات ، فضلا عن سائر المهمات ، ولذلك قامت النيات عند العجز مقام الأعمال .

من أجل ذلك كانت عنايته صلوات الله وسلامه بالمتروك أشد ، وتحذيره من المناهي أغلب ، ومن أجل ذلك قال : « ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه(١) » .

وإذا فلا عذر لمن قارف شيئاً مما لا يعنيه ، والعذر كل العذر لمن عجز عن بعض ما يعنيه . وذلك سر من أسرار هذا الحديث .

وسر آخر وهو أن الإنسان — كما قال علماء النفس — لابد له أن يفكر ثم لا بد له أن يعمل ، فاذا ترك ما لا يعنيه انحصر همه فيما يعنيه ، فانقطع له وردد النظر فيه ، وأفرغ جهده فى إجادته وإتقانه ، وذلك سبيل التقدم والنبوغ والإبتكار والاختراع فى العلوم والفنون على اختلاف أنواعها وتفاوت طبقاتها . وما أحوجنا إلى إحسان الأعمال إذا ابتغينا العزة والكمال ؟ ؟

وسرّ ثالث وهو إن شغل المرء بما يعنيه حصن له من الذلة والمهانة والتسكع والاستجداء ، وجنة له من الموبقات والآثام ، بل حماية للمجتمع من النفاق والشقاق ومنكرات الأخلاق ، وهل ازدحمت المحاكم ، واكتظت السجون ، وتناحر الناس ، وأوقدوا بينهم نار العداوة والبغضاء إلا لأنهم أفرطوا فى اللغو والفضول ، وقتلوا الوقت فى الآثام والشرور ؟ .

ولا غرابة إذن أن يشير الحديث إلى تربية الثقة بالنفس ، والاعتزاز بها والاعتماد عليها ، فى غير صلف ولا ازدهاء ، فإن الإنقطاع إلى العمل سرّ النجاح فيه ، والنجاح يدعو إلى النجاح ، ومن جنى ثمرة عمله ، أوشك أن يمتلىء قوة وإقداماً وعزماً وحزماً ، وهنالك يدهش الألباب ، ويأتى بالعجب العجاب (٢) .

وأخيراً يدعو الحديث إلى العلم والعمل ، والهدى والتقى ، وأولئك أبواب الرحمة ، ومفاتح الحكمة .

وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولوا الأَلْبَابِ) .

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) مجلة الأزهر ، مقال لفضيلة الشيخ طه محمد الساكت .

أفرأيت بعد هذا كيف أوتى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم، واختصر له القول اختصاراً ، فبلغ رسالات فى كلمة ، وهدى أمما فى حكمة ؟.

أوَ رأيت بعد هذا كيف قال الأئمة بحق ، إن هذا الحديث مجمع الآداب ، وينبوع الحكم ، وأنه لم يدع فضيلة إلا رغب فيها ، ولا نقيصة إلا نفر منها ؟

أوَ لم يعدُ أن حديث خاتم النبيين من بعد كلام رب العالمين ، لا تفنى عجائبه ، ولا تنتهى بدائعه ، ولا يفيض ينبوع حكمه وأسراره ، وأنه نور مبين ، وهاد إلى الصراط المستقيم ؟ .

الهجرة الدائمة

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (المُسْلِمُ من سَلِمَ المسلمون من لِسَانِه وَيَدِهِ ، والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ) . رواه البخارى .

روايات أخرى للحديث : —

هذا الحديث أخرجه البخارى — كما أوردنا — واقتصر فيه مسلم على : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) ، وزادفيه ابن حبّان والحاكم : (والمؤمن من أمنه الناس) . وفى رواية أخرى لابن حبان (المؤمن من هجر السيئات ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) . وهذه الرواية تتناول المسلمين وغيرهم .

أما رواية الترمزى والنسائى : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم) .

وفى رواية : (قالوا : أى الإسلام أفضل ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده) .

سبب ورود الحديث

وقد قيل فى سبب هذا الحديث ومورده : أنه لما انقطعت الهجرة وفضلها بعد فتح مكة ، حزن على فواتها من لم يدركها ، واعتبروا أنهم قد فاتهم بسبب ذلك خير عظيم ، فأعلمهم النبي صلى الله عليه وسلم تطييباً لقلوبهم ، وإرضاء لنفوسهم — أن المهاجر على الحقيقة هو من هجر السيئات ، وترك ما نهى الله عنه ، وأن هذه هى الهجرة الباقية مدى الدهر .

وقد روى الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال يوم الفتح :(لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استُنفرتم فانفروا) .

وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم خاطب المهاجرين بذلك ، لئلا يتكلوا على مجرد التحول من دارهم ، وعلى ما ورد فى فضل الانتقال من مكة إلى المدينة ، فأبان لهم أن المعول عليه من كل ذلك إنما هو مفارقة المعاصى ، وترك ما تدعوا إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان ، حتى يمتثلوا أوامر الشرع ، ويجتنبوا نواهيه .

مكانة الهجرة : —

من أعظم الحوادث الإسلامية الكبرى التى اهتزت لها أندية مكة ، ودوّى صداها فى أطراف الجزيرة العربية ، وحولت مجرى التاريخ ، وغيرت الأوضاع المألوفة حينذاك ، وقوضت دعائم الجهالة والشرك ، وأقامت صروح المعرفة والتوحيد — حادث هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة بعد ثلاث عشرة سنة ، حمل فيها من الأهوال ، ما تأبى أن تحمله الجبال الراسيات .

ولقد سجل القرآن الكريم حادث الهجرة الخطيرة فى نصوصه القاطعة . ولا غرو أن كانت الهجرة منقبة يسمو بها الأولون ، وأمنية يتمناها الآخرون ، ولكن ما الحاجة إليها بعد أن جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، أمنوا على دينهم وأنفسهم وأموالهم؟ فليشرح النبي صلى الله عليه وسلم بحديثه هذا صدوراً كانت حرجة ، ولينزع وساوس كانت مختلجة ، وليبين لمن حزنه أن لم يكن من السابقين بالمهاجرة ، ولا من التابعين بالمناصرة ، أن الهجرة قد ارتفع حكمها ، ولكن بقى بدلها وهو الهجرة الدائمة . فلئن مضت هذه الهجرة الحسية لأهلها ، وذهب بجلالها وفضلها ، أن الهجرة المعنوية لهى أعلى منها شأناً وأجل عند الله قدراً وأجراً ، تلك هى هجرة الروح ، حيث يزكى المرء نفسه ، ويطهر قلبه ، باجتناب المآثم ، واجتناء المكارم ، تلك هى الهجرة كل الهجرة التى بينها الرسول الكريم فى جوامع كلمه صلوات الله وسلامه عليه إذا يقول (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) .

وإنها لتمر بنا كل عام ذكرى هذا الحادث الفذ دون أن نحسن الانتفاع مما فيه من عظة وعبرة ، ودون أن نحاول استغلال ما يوحيه إلينا من قدوة طيبة ، وأسوة حسنة .

المعانى والتصوير : —

يظن كثير من الناس أن الإسلام لفظ يلاك باللسان وحسب المرء ليكون مسلماً أن ينطق بالشهادتين ، وأن يتردد إلى المساجد وأن يكثر بلسانه الدعوة إلى الفضيلة والتنفير من الرذيلة ، وإن كان مع ذلك يؤذى الناس بلسانه ، يسب ويغتاب ، ويكذب ، ويشى وينم ، ويخدع ، ويؤذيهم بقلبه بحقد ويبغض ، ويكيد ويحسد ، ويؤذيهم بيده : يقتل ويسرق ، وينهب ، ويهتك ، ويدمر ويخرب .

مثله لا يرى نبى الإسلام أنه مسلم حقاً ، فهو يقول صلوات الله وسلامه عليه : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) . .

فما أكثر ما يدعى الإنسان ما ليس فيه ، ويظهر بغير ما يبطن . بل ما أكثر ما يخدع المرء نفسه فيزعم لها ما لم يتحقق به على الوجه الأتم ، فيرضى عنها وهى ليست أهلا للرضا ، ومن رضى عن نفسه كثر الساخطون عليه؟! وإن أكثر ما يصيب الناس هو اكتفاؤهم بالمراسم والشارات الشكلية ، وغفلتهم عن مراقبة بواطنهم ، وامتحان سرائرهم ، حتى يتبين الخبيث من الطيب ، والصحيح من الزائف . قال تعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُو أَخْبَارَكُمْ)

وما كان الله بحاجة إلى العلم والإبتلاء ، وما كان علمه حادثاً عن جهالة حاش لله ؟ وإنما هو أن يبين الأمر لكل ذى عينين ، فلا يخدع امرؤ نفسه ، ولا يبقى لمخدوع أو خادع حجة . ومثل ذلك قوله تعالى : .

(الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) .

أى فما كانت دعوى الإيمان وحدها مقبولة حتى تؤتى ثمرها ، وتستتبع أثرها ، وهذا إنما يكون فى حال المحنة واشتداد الفتنة ، كما يقول القائل :

إذا اشتبكت دموع فى خدود تبيّن من بكى ممن تباكى

وإن هذا الحديث الذى نحن بصدده باب من أبواب الامتحان واختبار النفس دعواها العريضة : (أسلمت وجهى لله رب العالمين) ، أى تركت هوى نفسى وميولى وما أحب ، وجعلت ذلك كله تابعاً لمرضاة الله الذى أسلمت له وجهى وذاتى ؛ وإن رضاه أحب إلىّ من والدى وولدى ونفسى التى بين جنبيّ .. إذا تم للمسلم فقد تم له أنه أسلم وجهه لله رب العالمين إسلاماً صادقاً لا مواربة فيه ولا خداع .

وإن من أجل مظاهر ذلك ضبط نفسه حين يثور غضبها ، وتمكنها الفرصة من البطش بخصمها ، ولا تستطيع إنزال الأذى به وهو غير قادر على دفعها ، فاذا استطاع المسلم ضبط نفسه فى هذه الحال حقيقة ، فقد أتى إسلامه ثمرته ، واستتبع أثره ، وصح أن يوصف بأنه مسلم حقاً ! ! فالمسلم الذى أثمر الإسلام فى نفسه وأينع ، هو من ملك الإسلام عليه جوارحه ، وقيد بأحكامه تصرفاته ، هو من لا يطاوع نزعات نفسه ، ووساوس شيطانه ، وثوران غضبه ، بل يطرح ذلك تحت قدميه ، ويقول : قد أسلمت نفسى وقواى لسيدى ومولاى ، لله رب العالمين ، فلا أتصرف فيها إلا بما يرضى مالكها ، وقد كبحنى وزجرنى ونهانى أن اقترف مع مسلم أذى ، فاذا لم أقف عند حدود أمره ونهيه فما أنا بصادق فى دعواى أنى أسلمت نفسى له .

على هذا تعرف أن ما أفادته الجملة من حصر المسلم فيمن هذه صفته وإفادتها نفى الإسلام عمن لم يتحقق بهذه الصفة ، هو من باب الحكم بنفى الحقيقة التى تنتج ثمرتها المقصودة منها .

فهذه الجملة : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) لا يراد منها تحديد معنى « المسلم » فى لسان الشرع تحديداً يكشف عن أصل حقيقة الإسلام بمعناه الجامع للنظر والعمل ، وإنما هى تعطينا من خصال الإسلام شعبة واحدة من شعبه العملية ، وهو كف الأذى عن الناس .

غير أنه لما كانت هذه الشعبة الفرعية تصلح معياراً يتميز به المسلم الصادق من المسلم المنافق ، وضعت باذاء المسلم موضع التعريف ؛ كأنه عليه السلام يقول : (إذا رأيتم الرجل يتحامى أن يضار المسلمين بلسانه ويده فاعلموا أنه

مسلم . وإذا رأيتموه يتحرى مضارة المسلمين من بين الناس إما بلسانه وإما بيده فهو ليس من الإسلام فى شىء ، وإن كان ممن يدعى الإسلام .

وأمثال ذلك فى الكلام الفصيح كثير — تقول : ليس برجل من لم يدفع الضيم عمن التجأ إليه ، وليس بعالم من لم يعمل بعلمه ، وليس بابنى من لم يقم بواجب برِّى وليس بمسلم من لم يكفّ أذاه عن المسلمين ، وليس من الأسرة من يسعى فى ضرر أفرادها ، الخ .

وعلى هذا لا يقال : هل من آذى المسلم يكفر ؟ ولا يقال : هل من سلم المسلمون من لسانه ويده ولو لم يأت بأركان الإسلام يعد مسلماً ؟ لا يقال هذا ولا ذاك ، لأن الكلام ليس فى تحديد معنى المسلم وبيان الضابط الذى يجمع أفراده ويستوفى ماهيته ويخرج ما عداه ، كلا ، بل المعنى : أيها المسلمون ، إنكم تستطيعون أن تختبروا نفوسكم وتتهموها فيما قد يلتبس عليكم فيه ، وذلك بأن ترقبوها حين يتعارض هواها مع رضا ربها ، وأخص ذلك حال الغضب وثوران النفس مع إمكان القدرة على الأذى . فان وجدتموها كفّت عن شرها وكظمت غيظها ابتغاء مرضاة ربها ، فقد سلمت لها دعواها ، فاشكروا لله نعمته ، وإن رأيتموها تمادت فى الطغيان ، ومتابعة الشيطان ، فتنبهوا فيما أصابكم فى أعز ما تقصدون ، فالدين المعاملة ، والصلاة عادة ، والصوم جلادة ، فلا تثقوا بمجرد ذلك حتى يكون هوى نفوسكم تبعاً لما جاء به نبيكم .

ويعضد ما ذهبت إليه ما جاء فى الرواية الأخرى ، وهى سؤال أحد الصحابة للنبى صلى الله عليه وسلم : (أى الإسلام أفضل قال من سلم المسلمون من لسانه ويده) ، فكلتا الحالتين حالة إسلام ، ولكن هذا إسلام أثمر وهذا إسلام أخلف ، ولا يسوى بين المثمر والمخلف .

على أن التقييد فى الحديث بالمسلمين ليس معناه عدم وجوب مسالمة غيرهم ، بل يجب كف الأذى عن كل من يسالم المسلمين من أهل ذمة ومعاهدين ومهادنين ، ولكن مسالمة المسلمين واجبة بالأصالة ، ومسالمة

غيرهم واجبة تبعاً لمسالمتهم إياهم . أما المحاربون فلا يجب كف الأذى عنهم ، بل الواجب رد عدوانهم ... هذا مسلك فى فهم مغزى الحديث .

وهناك مسلك آخر ، وهو أن الإسلام فى قوله عليه الصلاة والسلام : (المسلم من سلم المسلمون ...) لا يراد فيه أصل العقيدة ، بل يراد به معناه الجامع لكافة الأركان الواجبة .

فمسالمة المسلمين إحدى شعبه الواجبة ، وأنها منه بمنزلة مالا يتم الشىء إلا به ، وهذا كما نقول : لا إنسان بدون رأس ، أو لا متعة فى الحياة بفقد البصر .

نعنى أنه لا غنى عن الرأس والبصر ، ولا نعنى أن الرأس يغنى عن القلب وسائر الأعضاء الرئيسية ، أو أن البصر يغنى عن السمع وسائر الحواس ..

وإذن فلا يصلح الحديث متكأ لأولئك المفرطين فى جنب الله ، الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، وإذا قيل لهم انفقوا يكنزون ، ثم يقولون : الدين المعاملة ، وما دمنا لا نؤذى أحداً فنحن خير ممن يصلى ويصوم . كأن من أحسن معاملة الناس لاحرج عليه إن أساء معاملة الله تعالى ..

كلا ، إن ذلك لا يؤديه الحديث بمنطوقه لغة ، ولا يمكن التمسك فيه بمفهومه شرعاً ، أما اللغة : فلأن هاهنا فرق بين أن نقول : (لا مسلم إلا من سالم المسلمين) . وبين أن نقول : (لا يسالم المسلمين إلا مسلم) ، فلو كان الحديث على الوضع الثانى لكفى فى الإسلام جانب المعاملة .

أما وهو على الوضع الأول ، وهو (لا مسلم إلا من سالم المسلمين) ، فكل ما يدل عليه هو أنه لا بد فى الإسلام من المسالمة ، وهو لا بد من شىء آخر أيضا يرجع فيه إلى سائر أدلة الشريعة ..

فالمعنى على هذا أنه لا تتم أركان الإسلام إلا لمن كف أذاه عن المسلمين ، فمن لم يسلم المسلمون من أذاه فهو غير حرى بأن يطلق عليه لقب المسلم فى معرض المدح والثناء ، لأنه ضيع من الإسلام أحد شطريه .

فالإسلام عبادة ومعاملة ؛ ولاتمام له إلا باجتماع شطريه واكتمال ركنيه .

فلو ترخص أحد بظاهر الحديث فى الاستغناء بحسن معاملة الخلق عن حسن معاملة الخالق ، لقيل له : أرأيت لو قال صلى الله عليه وسلم : (لا صلاة إلا بقراءة) أكان ذلك رخصة فى ترك سائر شروط الصلاة من ستر العورة واستقبال القبلة ، أو سائر أركانها من الركوع ؟ فاذا كان لايغنى شرط عن شرط ، ولا ركن عن ركن ، فكذلك هاهنا ، فان التنبيه على أحد واجبات الإسلام ليس رخصة فى ترك سائر ، جباته .

هذا فى اللغة ؛ وأما فى الشرع فقد بلغ من عنايته بأمر العبادات أن ألحقها بالأصول الاعتقادية ، حتى قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم : (إن بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة) ، وأصله فى القرآن قوله تعالى :

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ) .

فجعل الأخوة فى الدين موقوفة على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، لا على مجرد النطق بالشهادتين وترك المحاربة . فلا شبهة لعاقل فى أن العبادات من الدين بمنزلة الأساس من البنيان ، بل بمنزله الروح السارية فى الأعضاء ، فانه ليس حق من حقوق الناس إلا وفيه حق من حقوق الله تعالى : أقله نية امتثال أمره .

وفى الحديث مسلك ثالث ، ولعله أحسنها ، وهو أن ليس المقصود من الحديث مجرد التنبيه على أن هذه الشعبة واجبة كسائر الواجبات ، بل جعلها بالمنزلة العليا من شعب الإسلام ، وجعل ما عداها من الشعب إذا قيس إليها كأنه ليس شيئاً مذكوراً ؛ وذلك كما فى قوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة » يعنى أن الوقوف بعرفة هو أعظم أركان الحج ؛ لأن من أدرك الوقوف بعرفة فقد أدرك الحج ، فكأنه هو الحج كله .

هذا أسلوب معروف فى اللغة ، فعادة البلغاء إذا كان للحقيقة فردان وكان أشهرهما الذى يتعلق به ذهن السامع هو أهونهما ، وأريد لفته إلى

أقواهما ، وضعوا الكلام على نفى الإسم عن الأول وإثباته للثانى . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصُّرَعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » . وقوله : (ليس الغنى عن كثرة العرَض ، ولكن الغنى غنى النفس » .

فعلى هذا المنهج كأنه صلى الله عليه وسلم يقول : (ليس المسلم ذلك المصلى الصائم الذى لا يتورع عن أذى الخلق ، إنما المسلم هو من كف عن الناس أذاه وأراحهم من شره) .

بل إن فى أسلوب الحديث ما يشير إلى معنى أدق من هذا كله ؛ فانه يلوح بما فيه إلى أن هذه الشعبة هى الأصل فى تسمية المسلم بهذا المسلم وأن منها اشتق اسم الإسلام ، كأن معنى « أسلم » جعل ذلك سالمين من أذاه ، وليس معناه فقط جعل نفسه سلماً لله ، وكم فى حسن هذا التعليل من تحذير المضارة إذ يجعل الذى يؤذى الناس يؤذى وهو يحمل لقب الإسلام كأنه يحمله زوراً ، وينتحله انتحالا ، وهو ليس له بأهل [1].

فالمسلم هو المنقاد فى الظاهر لكل ما جاء به نبينامحمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد به هنا : الكامل الإسلام ، الجامع لخصاله ، الذى لم يؤذ مسلماً بقول ولا فعل ؛ أى إن المسلم الممدوح هو من كان هذا وصفه ، وليس ذلك على معنى أن من لم يسلم الناس منه ممن دخل فى عقد الإسلام ليس بمسلم ، بل إن ذلك كقولك : الناس العرب ، تريد أن أفضل الناس العرب ؛ فههنا أيضاً يراد أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله حقوق المسلمين ، والكف عن أعراضهم ولا يلزم ذلك أن يكون من اتصف بهذا خاصة هو المسلم الكامل ، بل المراد هو الكامل مع مراعاة باقى الصفات والأركان ، أو يكون هذا وارداً على سبيل المبالغة تعظيما لترك الإيذاء ، كما لو كان ترك الإيذاء هو نفس الإسلام الكامل ، وهو محصور فيه على سبيل الإدعاء .

---

(١) مجلة الأزهر من مقال لفضيلة الشيخ عبد الوهاب حموده .

ويحتمل أن يكون المراد بذلك بيان علامة المسلم التى يستدل بها على اسلامه ، وهى سلامة المسلمين من لسانه ويده ، كما ذكر مثله فى علامة المنافق .

ويحتمل أن يكون المراد الإشارة إلى الحث على حسن معاملة العبد مع ربه ، لأنه إذا أحسن معاملة إخوانه ، فأولى أن يحسن معاملة ربه ، من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ..

ويراد ب (المسلمون) فى قوله : (المسلم من سلم المسلمون ..) آحادهم وجماعاتهم ، وقد خرج هنا مخرج الغالب ، لأن محافظة المسلم على كف الأذى عن أخيه المسلم أشد تأكيداً لأصل الإسلام ، ولأن الكفار بصدد أن يقاتلوا وإن كان فيهم من يجب الكف عنه ، وأتى بجمع التذكير للتغليب ، فان المسلمات يدخلن أيضا فى ذلك ، كما فى سائر النصوص والخاطبات .

فالتعبير بالمسلمين ليس بقيد ، بل مثلهم المسلمات ، ومثلهم الذميون الذين لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، إنما التعبير به لأنه الغالب التى يعتبر مظهراً لتأثير الإسلام فى تربية النفس وتهذيبها ، وتعويدها الضبط على مقتضى أحكام الدين.

ومن كف عن أذى المسلمين الذين تكثر المعاملة معهم عادة — وهى مدعاة التعديات — وكان كفه إمتثالا لحكم إسلامه ، فهو كاف أيضاً عن غيرهم ، حيث نهاه دينه عن أذاهم .

والمراد الأذى بغير حق ، فليس من الأذى المنهى عنه إقامة الحدود والتعزيرات ، فهى نفع وإرشاد لا أذى .

فتأمل هذه البلاغة القريبة البعيدة ، حيث دلت كل كلمة من كلمات هذا الحديث القليلة على المعانى الغزيرة والأحكام الكثيرة .

وكلمة (لسانه) فى قوله : (من سلم المسلمون من لسانه) اسم للعضو المعروف ، وخص بالذكر لأن المعبر عما فى النفس ، وقرن باليد لأن الإيذاء باللسان واليد أكثر من غيرها ، فاعتبر الغالب .

والسلامة من اللسان هي السلامة من الهمز واللمز ، والاستهزاء والغيبة ، والنميمة ، وشهادة الزور ، وغير ذلك من المضارات التي قد تأتي على الحرث والنسل ، وتهتك النفوس ، وتخرب البيوت . ولله در الشاعر :

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (اهج المشركين ، فانه أشق عليهم من رشق النبال) .

فرب كلمة أهلكت قبيلة ، ودمرت مدينة ، بل رب كلمة أفسدت ملكاً كبيراً .

وبهذا يتبين سر تقديم اللسان على اليد ، فخطره أشد ، والتحذير منه آكد ، فهو مقدمة للاعتداء باليد لأنه سبب البلاء كله ، ومعظم النار من مستصغر الشرر ، فايذاء اللسان أكثر وقوعاً وأسهل ، ويصعب حفظه وضبطه .

وقد عبّر الرسول عليه الصلاة والسلام باللسان دون القول ، ليدخل فيه من أخرج لسانه لغيره على سبيل الاستهزاء والاحتقار .

وهذا من خصائص البلاغة النبوية وسمة من أبرز سماتها الفنية وهي الدقة المتناهية في اختيار الكلمات المناسبة للتعبير عن المعنى المقصود أصدق تعبير وأكمله .

ومن هذا القبيل اختيار كلمة (يده) من بين سائر الجوارح فقال (من سلم المسلمون من لسانه ويده) ، فاليد اسم للجارحة الخاصة . وأصله يَدْيٌ لقولهم في جمعه أيد ويدي . والمراد منها هنا أعم من أن يكون يداً حقيقية ، أو يداً معنوية ، كالاستيلاء على حق الغير بغير حق ، فانه أيضاً إيذاء لكن لا باليد الحقيقية . فتخصيص اليد بالذكر مع أن الفعل قد يحصل بغيرها ، لأن سلطة الأفعال إنما تظهر في اليد . إذ البطش والقطع والوصل . والأخذ والمنع والإعطاء ونحوها لا تكون إلا بها ...

قال الزمخشري : لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي . غلبت فقيل في كل عمل : هذا ما عملت أيديهم . وإن كان عملا لا تأتي فيه المباشرة بالأيدي .

وقد استعير اليد للنعمة فقيل يديت إليه أى أسديت إليه ، وتجمع على أياد ..

وتستعار للحوز والملك يقال هذا فى يد فلان أى فى حوزة وملكه ، قال تعالى :

(إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ) .

وقولهم : وقع فى يدى عدل ، وللقوة مرة ، يقال لفلان يد على كذا ومالى بكذا يد ، ومالى به يدان .

وشبه الدهر فجعل له يد فى قولهم يد الدهر ويد المسند . وكذلك الريح فى قول الشاعر :

(بيد الشمال زِمامها) ، لماله القُوةِ . وقال تعالى : (أُولِى الأَيْدى والأَبْصَار) ، إشارة إلى القوة الموجودة لهم . وقوله : (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاودَ ذَا الأَيْدِ) أى القوة . وقوله عزوجل : (إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُس) أى قَوَّيْتُ يدك . . وقوله (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ) فنسبته إلى أَيديهم تَنبيه على أَنهم اختلقوه . .

وقوله تعالى : (مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا) وقوله (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ) ، فعبارة عن توليه لخلقه باختراعه الذى ليس إلا له عز وجل ، وخص لفظ اليد ليتصور لنا المعنى إذ هو أجل الجوارح التى يتولى بها الفعل فيما بيننا ليتصور لنا اختصاص المعنى لا لنتصور منه تشبيهاً .

فتأمل كل ذلك لتتأكد من سر اختيار هذه الكلمة الموحية الفضاضة التى ، تلصق المعنى فى نفسك وحسك بوقعها ، ولما وضع لها من معانى فى اللغة .

وقد قيل فى الفرق بين الأذى باللسان والأذى باليد : إن إيذاء اللسان عام ، لأنه يكون فى الماضين والموجودين والحادثين بعد ، بخلاف اليد ، فان ايذاءها مخصوص بالموجودين ، اللهم إلا إذا كتب باليد — كما يقع من بعض كتاب الصحف والمجلات وغيرها ، فانها فى هذه الحالة تشارك

اللسان ، وحينئذ يكون الحديث عاماً بالنسبة إليهما ، أما فى الصورة الأولى ، فهو عام بالنسبة إلى اللسان دون اليد ..

ثم ينتقل الحديث إلى تقدير حقيقة الهجرة الدائمة إلى الله ورسوله ، والتى بها تتحقق سعادة الدنيا والآخرة ، والفوز بجنات النعيم ، فقال صلى الله عليه وسلم : (والمهاجر من هجر مانهى الله عنه) .

ومرة أخرى أدعوك هنا إلى تأمل دقة الأسلوب النبوى فى اختيار كلماته المصورة لمعناها ، الغزيرة فى أحكامها ، والرائعة فى معانيها ومبانيها ، فان لكل لفظ فى الأسلوب النبوى معنى قائما بذاته وفيه إشعاع نورانى يتضافر مع جملته ، ويساعد بعضه بعضاً فى المعانى العامة للأسلوب والعبارات الجامعة .

وإن كلمات الحديث لها فى تناسق حروفها ، وتلاقى مخارجها إشراق بلاغى ، وينكشف هذا الإشراق بتضام الكلمة مع غيرها . وإن كل كلمة تقف مع أختها ، ليتم ائتلاف السياق ، وانسجام الأسلوب وكأنما الكلمة مع أختها نسيج كل واحدة قطعة منه تكمل صورته وتوحد غايته ، ومعانيه تجدها مؤتلفة مع ألفاظه ، وكأن المعانى جاءت مؤاخية للألفاظ ، وكأن الألفاظ قطعت لها ، وسويت على حجمها .

فتأمل كلمات هذه العبارة الموجزة غاية الايجاز ، كشاهد على ما أقول (والمهاجر من هجر مانهى الله عنه) . .

يالروعة الأسلوب . ، وياللعجب العجاب . كلمات قليلة لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة تشتمل على أنواع الفضائل ومحاسن الأخلاق الإسلامية .

فكل كلمة رسالة أو كتاب فى تحليلها وتفصيل ما طوى فيها .. فكلمة : (هجر) ومشتقاتها تفيض بالمعانى العجيبة ، والصور الفنية الرائعة ، فمن معانى الهجر والهجران مفارقة الإنسان غيره إما بالبدن أو اللسان أو بالقلب ، وتطلق بمعنى الذهاب فى الأرض ، وبمعنى الانتقال عن الشىء ، والمفارقة

له ، إما بالبدن ، أو بالقلب .. وأصلها من الهجر ، وهو ضد الوصل ، قال تعالى : (واهجروهن فى المضاجع) كناية عن عدم قربهن ، وقوله تعالى :

(إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هَذَا القُرآن مَهْجُوراً)

فهذا هجر بالقلب أو بالقلب واللسان ، وقوله :

(وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً) يحتمل الثلاثة . وكذا قوله تعالى : (واهجُرْنى مَلِيًّا) وقوله تعالى : (والرُّجْزَ فَاهْجُرْ) فحث على المفارقة بالوجوه كُلِّها .

والمهاجرةُ فى الأَصل مُصَادمةُ الغير ومتاركته ومجانبته ، ومنه المهاجر ، كقوله تعالى : (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ) ، فالظاهر منه المجانب والتارك لدار الكفر إلى دار الإسلام ، ومن ذلك سُمِّى الذين تركوا توطن مكة ، وتحولوا إلى المدينة من الصحابة ، بالمهاجرين .

فالهجر : هو الترك ، من هجره يهجره هجراً وهجراناً ، والاسم الهجرة ، من الهجر وهو ضد الوصل ، فالمهاجر هو المفارق لعشيرته ووطنه وهو بمعنى الهاجر ..

فالظاهر منه الخروج من دار الكفر إلى دار الإيمان كمن هاجر من مكة إلى المدينة ، وقيل مقتضى ذلك هجرات الشهوات والأخلاق الذميمة والخطايا وتركها ورفضها ، كما قال تعالى :

(إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى)

أى تارك لقومى ومايعبدون من دون الله وذاهب إليه سبحانه ، وقال صلى الله عليه وسلم : (والمهاجر من هجر مانهى الله عنه)، وروى : (هاجروا ولا تهجروا) ، أى كونوا من المهاجرين ولا تتشبهوا بهم بالقول دون الفعل .

والهجر الكلام القبيح المهجور لقبحه ، وفى الحديث : (ولا تقولوا هجراً) ، واهجر فلانا إذا أتى بهجر من الكلام عن قصد ، وقد يشبه المبالغ فى الهجر بالمهجر فيقال اهجر إذا قصد ذلك .. قال الشاعر :

كما جده الأعراق قال ابن ضرة   عليها كلاماً جار فيه وأهجرا

وقيل رماه بها جرات كلامه أى فضائح كلامه .

ولا يكاد يستعمل الهجير إلا فى العادة الذميمة اللهم إلا أن يستعمله فى ضده من لا يراعى مورد هذه الكلمة عن العرب .

ومن كل هذه المعانى المولدة والمبتكرة تجد مصداقاً لما قلنا فى خصائص هذا الأسلوب النبوى الكريم .. وهذا يدلك على امتلاك رسول الله لناصية اللغة وإذا عرفنا معنى « هجر » ومشتقاتها فى اللغة ، والمعانى الغزيرة ، والأحكام الكثيرة التى دارت عليها ، فاننا ننقلك إلى الجانب الآخر لمعانى هذه الكلمة فى الشرع .

فقد روى الإمام أحمد رحمه الله فى مسنده أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : الهجرة خصلتان : إحداهما تهجر المنكرات ، والأخرى تهاجر إلى الله وإلى رسوله ، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا طلعت ، طبع الله على كل قلب بما فيه ، وكفى الناس العمل .

وفى رواية : (الهجرة أن تهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، ثم أنت مهاجر وإن مت باليمامة) .

ولهذا قالوا : الهجرة الدائمة الحقيقية عبارة عن مفارقة ما يكرهه الله تعالى إلى ما يحبه .. وهذه هى الهجرة الباقية التى لا تنقطع ...

ولقد قدمنا فى أول عرضنا للحديث أن الهجرة كان لها فى صدر الإسلام مقام رفيع عظيم الخطر ، وكانت عنوان شرف ومجد لمن هاجر من المسلمين ، نوه بها القرآن الكريم فى غير ما آية ، فلما فتحت مكة وأمن الناس فى ديارهم على الاستمساك بدينهم ، لم يبق موجب لتحصيلها ، فجزع لذلك المسلمون الذين فاتهم تحصيل هذه الفضيلة فى وقتها ، فجاءت هذه الجملة الجامعة مبينة أن الفضل فى الحقيقة ليس راجعاً إلى مغادرة مكان إلى مكان ، وإنما القصد الحقيقى هو الفرار من الافتنان ، والهرب من الوقوع فى مخالب الشيطان ، بمعاشرة من تغلب فيهم الكفر والعصيان ، فلا يزال هذا الباب بحسب سره ومقصده مفتوحاً ، وإن فات مظهره المحسوس ، ولكن جهاد ونية .

والهجرة بمظهرها المادى قد انقطعت بعد فتح مكة ، لقوله عليه الصلاة والسلام (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا [١]) .

والهجرة بمظهرها المعنوى باقية حتى تقوم الساعة ، فقد تكون بالخروج من أرض غلبت عليها المنكرات ، وسادت فيها المحرمات ، لأن المؤمن إذا لم يقدر على تغيير المنكر .. وجب عليه أن يزول عنه ، ولأن طلب الحلال فرض على كل مسلم .

وقد تكون بالفرار من أذى يلحق النفس والمال ، فانه إذا خشى الإنسان أن يلحق به ضرر شيء من ذلك ، فقد أذن له فى الخروج عنه ، والفرار بنفسه من ذلك المحذور .

وقد تكون الهجرة أيضا بالضرب فى الأرض ، والمشى فى مناكبها ، طلباً للعظة والاعتبار ، وأداء لعبادة الحج ، وللاشتغال بالجهاد ، والرباط والثغور ، للذب عنها ، وتكثير سواد المسلمين بها ، وللدفاع عن الديار والمقدسات الإسلامية .

وكما تكون بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهى ، بهجرة أهل المعاصى حتى يتوبوا ويرجعوا . فالمسلم فى كل حالاته عرضة لفتنة الشيطان ، ووسوسة النفس ، ومنازعة الهوى ، وكل هذه جنود سوء تحاول أن تستولى عليه حتى تفسد عليه دينه ، فمن انتزع نفسه من تلك الجنود المحيطة به تحاول أن ترديه وتهلكه ، وفر منها إلى ربه ، فقد هجر ما أحاط به مما ألفه المرء لوطنه وخلانه . .

وهل ترى فرقاً بين انتزاع المرء نفسه من هوى متغلب عليه ونفس متسلطة وشيطان متحكم ، وبين انتزاع جسمه من الأوطان والأتراب والخلان ؟

إن المجاهدة هى المجاهدة والمشقة هى المشقة فى الحالين واحدة ، والمقصود الحقيقى السعى لسلامة النفس مما يوقعها فى غضب الله ..

---

(١) رواه البخارى .

وهذه المعانى المتعددة كلها مأخوذة من « الهجرة » التى أصلها من الهجر ، وهو الترك ، فهى إما على غير بابها ، لأن الهجر من جانبه وحده . وإما مفاعلة من الجانبين ، وكأنه وطنه وخلانه ومعاشريه قد هجروه كما هجرهم أو قد هجرهم هجراً يحملهم على أن يقابلوه بهجر مثله ..

ومن هنا فقد اختار السياق كلمة « المهاجر » ، وهو المفارق لعشيرته ووطنه وخلانه ، وهو الهاجر ، ولفظ (المفاعل) يقتضى وقوع فعل من اثنين ، (مفاعلة) ، فهو هاجر لوطنه ، وهو مهجور من وطنه ..

وكذلك فيما معناها هنا قد هجر دواعى هواه وبواعث شهوته هجراً بمعنى قطع فيه كل سبب يوصل بينه وبينها ، حتى كأنه حمل تلك البواعث على أن تغادره وتقطع صلتها به كما قطع صلته بها .

وإخالك بعد أن تنعم النظر فيما جلوناه لك من محاسن هذا الحديث الشريفة اللغوية والفكرية ، فقد تجلى لك مافيه من جوامع الكلم ولوامع الهدى ..

فقد حثنا الحديث بأسلوبه الفريد المعجز على ترك الأذى بكل مايؤذى ، ويأتيه وسيلة من وسائله ، ويرجع السر فى ذلك إلى وجوب التخلق مع الناس بالأخلاق الحسنة .

كما دل الحديث على أن الأعمال لها دخل كبير فى زيادة الإسلام ونقصانه ، ونبه على أن المعاصى والمناهى بجميع أنواعها وصورها واجبة الترك والهجران ..

نسأل الله أن يزكى نفوسنا بهداه ، وألا يجعلنا ممن اتخذ إلهه هواه ، إنه سميع مجيب .

الحديث الخامس

من معالم الطريق

عن أَبي ثعلبةَ الخُشَنى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(إنَّ اللهَ فَرَضَ فرائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ عن أَشْيَاءَ رَحْمَةً لكم من غَير نسْيَانٍ فلا تَبْحَثُوا عَنْهَا) . حديث حسن ، رواه الدَّارقَطنى وغيره .

روايات أخرى فى معنى هذا الحديث : —

وردت فى معنى هذا الحديث الشريف روايات أخرى كثيرة منها : —

١ — « ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فان الله لم يكن لينسى شيئاً » . ثم تلا قوله تعالى : (وما كان ربك نسياً) .

٢ — (الحلال ما أحل الله فى كتابه ، والحرام ما حرم الله فى كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه) .

٣ — (إن الله قد فرض لكم فرائض فلا تضيعوها ، وسن لكم سنناً فلا تنتهكوها ، وحرم عليكم أشياء فلا تعتدوها ، وترك بين ذلك أشياء من غير نسيان ، رحمة منه ، فاقبلوها ، ولا تبحثوا عنها) ...

سبب مورد الحديث :

لقد قال حبر هذه الأمة ، وترجمان القرآن — عبد الله بن عباس رضى الله عنهما — كلمة تلقى ضوءاً على معنى الحديث . إذ قال : (كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء ، فبعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأنزل كتابه ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، فما أحل الله فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو) ، ثم تلا قول الله تعالى :

(قُلْ لَاأَجِدُ فِيمَا أُوحِي إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

المعانى والتصوير : —

هذا الحديث النبوى الشريف يرسم الطريق ، ويحدد المعالم ، ويبين المنهاج ، ويذكر للإنسان المسلم ماله وما عليه ، وهو من جوامع كلمه الطيب عليه الصلاة والسلام ، ومن قواعد الدين التى تحدد طائفة من أموره .

وقد قسم الحديث أحكام الله إلى أربعة أقسام :

فرائض ، ومحارم ، وحدود ، ومسكوت عنه .. وذلك يجمع أحكام الدين كلها .

ولذلك قال أبو بكر السمعانى : (هذا الحديث أصل كبير من أصول الدين وفروعه) . ثم قال : (من عمل بهذا الحديث فقد حاز الثواب ، وأمن من العقاب ، لأن من أدى الفرائض واجتنب المحارم ، ووقف عند الحدود ، وترك البحث عما غاب عنه ، فقد استوفى أقسام الفضل ، وأوفى حقوق الدين ، لأن الشرائع لاتخرج من هذه الأنواع المذكورة فى هذا الحديث) .

وقال أبو وائلة المزنى : (جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الدين فى أربع كلمات) ثم ذكر الحديث ..

والحديث — كما ترى — يتكلم عن أمور رئيسية أربعة هى : الفرائض ، والمحارم ، والحدود ، والمسكوت عنه ، وقد أشار إلى الأمر الأول بقوله : (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها) .

هكذا يستهل المصطفى عليه الصلاة والسلام هذا الحديث الجامع بهذه الجملة الإسمية المؤكدة بشتى أنواع المؤكدات ، فقد شاركت ألفاظها وطريقة تركيبها فى هذا التأكيد ، وإبراز هذه الحقيقة الهائلة وتثبيتها فى عالم النفس والضمير بما تلقيه الجملة فى نفس المسلم من ايحاءات وتلقينات مستمرة المدى إلى يوم الدين .

فقد بدأت الجملة بكلمة (إن) المؤكدة ، ودخلت الجملة الإسمية (إن الله فرض فرائض) .

ومجيء لفظ الجلالة بعد إن صريحاً فيه ما فيه من تربية المهابة وخشية الله فى نفس المؤمن ثم تقديم لفظ الجلالة على الفعل له ماله من الدور العظيم فى إبراز حقيقة من أروع الحقائق وهى (الحاكمية لله وحده) فهو الذى يفرض وهو الذى يحل ويحرم ، وكل ما خلق عبيد لهذا الإله العظيم ، ولا يجوز لأى إنسان كان مهما كانت قوته وسلطانه أن ينازع الله سبحانه فى أمر من أموره ..

فقد كان من الممكن أن تكون الجملة (فرض الله فرائض فالتزموها) ، ولكن هذه الحقيقة الكبرى التى أراد المصطفى أن يغرسها فى قلوب المسلمين لا بد لها من دقة فى انتقاء الكلمات ، فالله سبحانه وتعالى هو مصدر التشريع ، فهو الذى فرض الفرائض ، وهو الذى حد الحدود ، وأبان الحلال من الحرام ، فقوله الحق ، وحكمه الحكم الذى لاراد لحكمه ولا معقب لقضائه ، فهو الذى خلق ، وهو الذى يحيي ويميت ، ويقبض ويبسط ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير .. فمن حق هذا الخالق العظيم ألا ينازعه مخلوق من خلقه شيئا من أمره ونهيه .. ومن حق هذه الحقيقة التى قد تغيب عن كثير من المسلمين (الحاكمية لله) أن ترسخ فى قلوبهم ، وتستنير بها عقولهم وتكون نصب أعينهم فى أقوالهم وأعمالهم ، وفى أمورهم الصغيرة والكبيرة ، وإلا فلا قيمة لصلاتهم ولا صيامهم ولا لسائر أعمالهم ، لأنها تكون حينئذ لغير الله .

فمن حق هذه الحقيقة العظمى أن يتوافر لها كل أنواع المؤكدات ، ب (إن) المؤكدة ، وتقديم لفظ الجلالة على الفعل ، وأن تؤكد هذه الحقيقة بالجملة الإسمية ، لأن الأمور التى يراد تأكيدها وترسيخها فى العقول والقلوب يكون للجمل الإسمية حق التعبير عنها ..

فسر العدول عن الخطاب بالجملة الفعلية كأن يقول (فرض الله فرائض) إلى الجملة الإسمية المؤكدة ب (إن) ضرب من التوكيد والمبالغة ،

لأن الجمل الفعلية تستخدم للدلالة على التجدد والحدوث ، والاسمية للثبوت والاستمرار ، وهنا أفادت الجملة الاستمرار الثبوتى ، وهذا أبلغ :

قال صاحب البرهان فى علوم القرآن : (إن الفعل يدل على التجدد والحدوث ، والاسم على الاستقرار والثبوت) :

كما أن المعروف عند علماء البلاغة ، أن الاسم يدل على التمكين والاستمرار ، والفعل على التجدد والحدوث ..

ولم يكتف التعبير البليغ باستعمال الجملة الاسمية ودخول (إن) المؤكدة عليها ، وذكر لفظ الجلالة بعدها فحسب ، بل إن الألفاظ نفسها لتشارك فى تأكيد هذه الحقيقة مشاركة كبيرة ، فكلمة « فرض » فى أصل اللغة تعنى « الإيجاب » « والإلزام » و « القطع » ولكن تزيد هذه الكلمة على هذه المعانى كثيراً . وهذا هو سر اختيار الرسول عليه الصلاة والسلام لها ، وإن الفرض كالإيجاب ، لكن الإيجاب يقال اعتبار بوقوعه وثباته ، والفرض يقال بقطع الحكم فيه .

قال تعالى فى سورة النور :

(سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا) ، أى أوجبنا العمل بها عليك ، وقال : (إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) ، أى أوجب عليك العمل به ، ومنه يقال لما الزَمَ الحاكِمُ من النَّفقة فَرْض .

وكل موضع وَرَدَ فَرَضَ اللهُ عليه ففى الإيجاب الذى أَدْخَلَهُ الله فيه وما ورد من (فَرَضَ اللهُ له) فهو فى أن لايَحْظُرَهُ على نفسه نحو : (مَا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ) . وقوله (وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً) أى سميتم لهنَّ مَهْرًا ، وأوجبتم على أنفسكم بذلك . وقوله تعالى : (فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ) أى عين على نفسه إقامة الحج ، ويقال لما أُخذ من الصدقات فريضة ، (إِنَّما الصَّدَقَات لِلفُقَرَاء . .) إلى

قوله : (فَرِيضَةً من اللهِ) . وعلى هذا ما رُوِىَ أن أبا بكر الصِّديق رضى الله عنه كتبَ إلى بعض عُماله كتابًا وكتب فيه : هذه فريضة الصدقة التى فرضها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين .

فمن كل هذا ترى الدقة المتناهية من الرسول صلى الله عليه وسلم فى اختيار هذه الكلمة (فرض) ذات المدلول الزائد على كل الكلمات المرادفة لها فهى آكد منها جميعاً ، فالفرض كالواجب أوهو آكد من الواجب (إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرادُّكَ إِلَى مَعَاد) .

فالرسول عليه الصلاة والسلام لا يرى التهاون فى استعمال اللفظ ، ولكنه يختار الألفاظ الدقيقة المعبرة عن الحقائق أصدق تعبير ، فهو صلى الله عليه وسلم يستحضر معانى الجمل ، ويستحضر جميع ما يلائمها من هذه الألفاظ ، فيعبر عن المعنى بأفصح الألفاظ وأبلغها ، إذا يضع الكلمة المعبرة على المواقف والأحداث ، والمصورة لخلجات النفوس وخطرات الضمائر أصدق تصوير .

ولو ذهبنا نستبدل كلمة مكان أخرى تدل على نفس المعنى فانها لاتفى بالمعنى والجرس والتناسق اللفظى كما تفى به الكلمة النبوية ، لأن هذه الكلمة الشريفة توضع فى مكانها كاللبنة فى البناء ، لا يصلح غيرها فى موضعها .

فتأمل الانسجام التام بين كلمات هذا الحديث (فرض — فرائض — حد — حدود) فى الجرس وتساوى الكلمات من حيث عدد الحروف ، ومخارجها واشتقاقها ، مما يجعل لها هذا الوقع اللطيف ، والأثر الشفيف على السمع والقلب معاً .

ثم هذه الموسيقى الداخلية فى كلمات الحديث كلها ، وما تحدثه هذه الموسيقى الرقيقة المنسابة من أثر جميل على النفس فيجعلها تهش وتقبل على سماع هذه الكلمات وتلتذ بذلك أيما لذة ، مما يسهل وقعها على القلب والعقل ، عن طريق الفكر والوجدان فتأمل اشتراك بعض الحروف فى كلمات هذا الحديث مثل حرف الضاد (فرض — فرائض — تضيعوها) — واشتراك

حرف الراء فى (فرض – فرائض – حرم – رحمة) وكذلك حرف الحاء ، والتاء ، والفاء ، وغيرها .. فان قراءة هذا الحديث القراءة السليمة باخراج كل حرف من مخرجه تحدث فى نفس القارئ والسامع هذا الأثر الموسيقى الذى لا تكلف فيه ولا تعقيد .

فالألفاظ معبرة عن معناها ومصورة له ، بجرسها الخفيف الذى يشبه سريان الماء .

وتأمل سر التعبير بالفعل المضارع (يضيع) فى قوله (فلا تضيعوها) بدل قوله مثلا : (فحافظوا عليها) أو (فالتزموها) وذلك لإفادة دوام المحافظة عليها وإقامتها تامة من غير نقص أو زيادة أو تغيير أو تبديل ، مع ضرورة الاستمرار فى ذلك إلى يوم الدين ... فصيغة المضارع هنا للدلالة على التجدد والاستمرار فى هذه الفرائض ، وللإعلام بأن تلك المداومة فريضة واجبة حتى يأتى أمر الله تعالى ..

فالله تعالى هو الذى فرض هذه الفرائض على وجه التأكيد ، فعبر بالفعل الماضى (فرض) لتثبيت هذه الحقيقة وإبرازها ، وبعد أن نالت حظها من ذلك ، أراد أن يبين ضرورة الاستمرار عليها حتى نلقى الله تعالى . وهذا هو سر العدول من الفعل الماضى إلى الفعل المضارع المسبوق ب (لا) لإفادة الاستمرار فى المداومة على اتباع هذه الفرائض التى فرضها ، ولا يخفى مافى تغيير الأسلوب من المبالغة والبراعة الفنية .

فالرسول عليه الصلاة والسلام يرشد المسلم هنا إلى التزام أوامر الله تبارك وتعالى ، والحذر من إهمالها ، أو التقصير فى أدائها ، أو تأخيرها عن مواقيتها المحددة لها ، لأن كل واحد من هذه الأمور يعد تضييعاً للفرائض ، فليس التضييع مقصوراً على عدم الفعل ، بل التضييع يشمل التأخير فى الفرائض ، والنقص منها ، وعدم أدائها فى ميقاتها ، وعدم الخشوع والإخلاص فيها .. الخ .

وهذه الفرائض هى مافرضه الله على عباده وألزمهم القيام به كالصلاة والزكاة ، والصيام ، والحج . وهى معلومة منصوص عليها ، فليس

للإنسان أمامها إلا أن يؤديها ويقوم بها ، إذ لا شبهة فى ايجابها وإلزام المسلم بها ..

وهذا ما أشار إليه المصطفى عليه الصلاة والسلام فى حديث آخر : (مانهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، فانما أهلك الذين قبلكم كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم) [1] .

فالمسلم فى هذه الحياة مطالب بواجبات يلزمه أن يقوم بها ويحسن رعايتها ، ومطالب بأن يحذر السيئات ويبتعد عنها ، ومطالب بأن يبذل جهده ويبلغ طاقته فى مجال الائتمار بالمأمورات والانتهاء عن المنهيات . وأن يشغله العمل بالتطبيق ، أكثر مما يشغله طول الكلام وكثرة السؤال وامتداد الجدال ..

وفى هذا المقام جاء هذا الحديث النبوى الكريم . وقد روى فى مناسبته أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (قد فرض الله عليكم الحج فحجوا) ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت النبي ، فأعاد الرجل قوله ، ثم أعاده ، فقال النبي : لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم . ذرونى ماتركتكم فانما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه) .

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام بعد ذلك : (وحد حدوداً فلا تعتدوها) ، والحدود هى محارم الله وعقوباته التى قرنها بالذنوب ، وكأن حدود الله فصلت بين الحلال والحرام ، فمنها ما لا يقرب كالفواحش ، ومنها مالا يتعدى كالمواريث ... والإعتداء هو مجاوزة الحق ، وتجاوز الحد فى الشيء .

فالمراد بحدود الله التى نهى عن اعتدائها وهى جملة ما أذن الله تعالى فى فعله ، سواء أكان على طريق الوجوب أو الندب أو الإباحة ، أو الجواز .. وهذا الفهم فيه توسع فى فهم معنى « الحدود » .. فكأن الله تعالى جعل لهذه الأمور التى لا حرج فيها نطاقا مباحاً ، ولا يجوز للإنسان الاعتداء عليه ولا يتجاوزه إلى منطقة الحرام ، وهذا التجاوز هو الاعتداء .

---

(١) رواه الشيخان .

ومعنى هذا أن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يخبرنا بأن هناك محرمات يجب أن نحذرها ونبتعد عنها ، وألا نتجاوز ساحة الحلال إلى بؤرة الحرام ، حتى لا نكون بذلك متجاوزين الحدود التى رسمها الله لنا فنكون مستحقين للحدود — أى العقوبات — التى عينها الله تعالى .

فهنا نطلق الحدود ويراد بها نفس المحارم ، وحينئذ يقال : لا تقربوا حدود الله كما قال تعالى :

(تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

والمراد النهى عن إرتكاب مانهى عنه فى الآية من محظورات الصيام والاعتكاف فى المساجد .. ومن هذا المعنى — وهو تسمية المحارم حدوداً — قول النبى صلى الله عليه وسلم : (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا فى سفينة ..) الخ ، الحديث المشهور ، وأراد بالقائم على حدود الله المنكر للمحرمات والناهى عنها ..

ومن الجائز أن يكون المعنى أن الله عز وجل قدر عقوبات محدودة رادعة للمعاصى المغلظة كما يقال : حد الزنا وحد شرب الخمر وحد السرقة . فان جئتم لتنفيذ الحدود فلا تزيدوا فيها عن القدر المحدود شرعاً على حد قول الله تعالى :

(وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فى الْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا) .

ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم : (أتشفع فى حد من حدود الله ؟ يعنى فى القطع فى السرقة .. وهذا هو المعروف من أسماء الحدود فى اصطلاح الفقهاء ، وعلى أية حال فكل هذه المعانى متحملة وجائزه ؛ ولهذا فقد مدح الله سبحانه الحافظين لحدوده ، وذم من لا يعرف حد الحلال من الحرام ، كما قال تعالى :

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ) .

وبعد أن حررنا القول فى دلالة هذه الجملة المعنوية (وحد حدوداً فلا تعتدوها) فقد رأينا أنها قدمت لنا هذه المعانى مصورة ، وأخرجتها من عالم المعنويات إلى عالم المحسوسات .. وذلك أن الجملة النبوية تتبع المعنى النفسى ، فتصوره بألفاظها ، لتلقيه فى النفس حتى إذا استكملت الجملة أركانها ، برز المعنى ظاهراً مجسما .

فالجملة النبوية تعبر عن المعنى الذهنى المجرد بالصورة المحسة المتخيلة ، فإذا المعنى هيئة أو حركة ، تمر بخيال القارئ ، ويلمسها إحساسه ، وتكاد تراها عينه .

وتأمل هذه الصورة الفنية البديعة التى رسمتها كلمات هذا الحديث لحدود الإسلام .

ويشارك حديث آخر فى تصوير هذه الحدود ، ويوضح الصورة التى رسمها هذا الحديث ما رواه النواس بن سمعان رضى الله عنه فيما أخرجه الإمام أحمد والنسائى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (ضرب الله مثلا صراطاً مستقيما وعلى جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يأيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه ، والصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على الصراط كتاب الله ، والداعى من فوق واعظ الله فى قلب كل مسلم) .

فما أروع هذا المثل الذى ضربه الرسول الكريم ، حيث مثل الإسلام بصراط مستقيم لا عوج فيه ، فيقتضى ذلك قربه وسهولته ، وعلى جنبي الصراط يمنه ويسرة سوران هما حدود الله ، كما أن السور يمنع من كان داخله من تعديه ومجاوزته ، فكذلك الإسلام يمنع من دخل فيه من الخروج عن حدوده ومجاوزتها ، وليس وراء ما حد الله من المأذون فيه إلا ما نهى عنه .

وهاهى جملة واحدة فى هذا الحديث : (وحد حدوداً فلا تعتدوها) تستقل برسم تلك الصورة الكاملة فى تصويرها وتناسق أجزائها كأكمل ما يكون التصوير .

فأصل معنى « الحد » فى اللغة : الحاجز بين الشيئين الذى يمنع اختلاط أحدهما بالآخر ، يقال : حددت كذا جعلت له حداً يميز ، وحد الدار ما تتميز به عن غيرها ، وحد الشيء الوصف المحيط بمعناه المميزله عن غيره ، وحد الزنا والخمر سمى به لكونه مانعاً لمتعاطيه عن معاودة مثله ومانعاً لغيره أن يسلك مسلكه .

أما قوله : (فلا تعتدوها) أى لا تتجاوزوها ، لأن أصل العدو التجاوز ومنافاة الالتئام ، والاعتداء مجاوزة الحق ، قال تعالى :

(وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتعدَّ حُدُودَهُ)

و(تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا) ، (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ.) ، أى معتدون أومعادون أومتجاوزون الطورمن قولهم عدا طوره . وقوله تعالى (فَمَنِ اعْتَدَى عليْكُمْ فاعْتدُوا عليْهِ بِمِثْلِ مَااعْتَدَى عَلَيْكُمْ) ، أى قابلوه بحسب اعتدائه وتجاوزوا إليه بحسب تجاوزه .

وقوله (فَمَنِ اضْطُر غيرَ بَاغ ولَا عَاد)

أى غير باغ لتناول لذة ولا عاد أى متجاوز سد الجوعة .

فالله سبحانه قد رسم معالم الطريق ، وبين حدوده ، فالحلال بين والحرام بين ، كل منهما واضح لا لبس فيه ولا غموض يدركه الإنسان وسائر المخلوقات بإحساسها الفطرى الذى أودعه الله إياها ..

وإن الله تعالى حذر عباده من تجاوز الحدود التى رسمها لكل من الحلال والحرام ، وإلا وقعوا فى سخطه وعقوبته ، فلا يصح للإنسان أن يقترب منها ، فمن دخلها بالتلبس بشيء منها فقد استحق العقوبة ، لأنه بذلك قد اعتدى على حمى الله ومحارمه كما قال عليه الصلاة والسلام فى المثل الرائع الذى ضربه للمستهين المتجاوز لحدود الله فى قوله : (الحلال بين والحرام

بين ، وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات ، وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يقع فيه ..

ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه [١] .

نعم إن حمى الله محارمه ، وقد مثل صلى الله عليه وسلم الإنسان المكلف بالراعى والنفس بالأنعام ، والشبهات بالمراعى التى حول الحمى ، وشبه المحارم بالحمى ، وجعل فعل الشبهات مثل الراعى حول الحمى . ووجه الشبه حصول العقاب ، فكما أن الراعى إذا جره رعيه حول الحمى إلى الوقوع فيه استحق العقوبة ، كذلك من أكثر فعل الشبهات ، ولأعدم التحرز منها ولم يحفظ نفسه وقع فى الحرام فاستحق العذاب .

ولذا قال : (ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه) ، أى من حذرها طلب البراءة والسلامة لدينة بالتحرز من المعصية ، وتحامى المنقطة التى دونها ، وكذلك طلب البراءة لعرضه ، فلا يتهمه الناس بمفارقة المعاصى ، وانتهاك الحرمات ، وكيف ؟ ولم يقارب الشبهات ، فأنى يتهم بالمحرمات ؟ .

فما أروعها من صورة التى رسمها هذا الحديث الذى أوردناه ، وما أبدع هذه الجملة القليلة فى لفظها ، الغزيرة فى معناها ومبناها وتصورها (وحد حدوداً فلا تعتدوها) ، فقد استقلت برسم هذه الصورة كاملة ، فحدود الله واضحة ، فلا يجوز لعاقل أن يقترب منها عدا أن يتجاوزها ، فاذا امتنع العاقل من الاعتداء على حمى ملك من ملوك الدنيا خوفاً من بطشه وجبروته وقوة سلطانه : فكيف تسول له نفسه الاعتداء على حمى ملك الملوك ، وانتهاك حرماته ؟ . .

إن مجرد تخيل هذه المسألة ليبعث فى النفس الرهبة التى تقشعر لهولها الأبدان فتصور تلك النملة الصغيرة الحقيرة ، التى لا تكاد تراها العين ، وتدوسها الأقدام ، دون أن يشعر بها أحد ، تتطاول على جبار السموات والأرض ، وتناصبه العداء ، بل تنتهك حرماته . . ياللوقاحة . . وياللجنون . . .

---

(١) رواه الشيخان .

فالصورة التى رسمتها هذه الجملة فى أذهاننا ، وترسخ ، فى عقولنا وقلوبنا معاً ، بشاعة اقتراف المعاصى ، وتجسد ذلك فى هيئة اعتداء الصغير الحقير على أقوى الأقوياء ، وأعظم العظماء ، فيجب أن نحذر ذلك ، وألا نتجاوز دائرة الحلال إلى بؤرة الحرام حتى لا نقع فى سخط الجبار ومقته وغضبه وشديد عقابه وعذابه . . .

ثم ذكر الحديث الأمر الثالث : (وحرم أشياء فلا تنتهكوها) ، وأصل الحرام فى اللغة الممنوع إما بتسخير إلهى ، وإما بمنع قهرى وإما بمنع من جهة العقل أو جهة الشرع أو من جهة من يرتسم أمره .

فالتحريم المنع والانتهاك وهو خرق محارم الشرع وإتيانها .

وأما المحارم فهى التى حماها الله تعالى ، ومنع من قربانها وارتكابها ، والمحرمات المقطوع بها مذكورة فى الكتاب والسنة ، كقوله تعالى :

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكم عَلَيْكُمْ : أَلَّا تُشْرِكُوا به شَيْئًا ، وَبالوَالِدَينِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمابَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحقِّ) .

وأما السنة ففيها ذكر كثير من المحرمات ، كقوله صلى الله عليه وسلم : (كل مسكر حرام) وقوله (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام)

فما ورد التصريح بتحريمه فى الكتاب والسنة فهو محرم .. وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء من المطعومات أحلال أم حرام؟ فقال رسول الله : (الحلال ما أحله الله فى كتابه ، والحرام ما حرمه الله فى كتابه[1] .

فقوله صلى الله عليه وسلم (وحرم أشياء . .) يتناول كل المحرمات كالإشراك ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس المعصومة ، والربا والزنا

---

(١) رواه الترمذى وغيره عن سلمان الفارسى رضى الله عنه.

والدم ولحم الخنزير والمتردية والنطيحة ، وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ، وما ذبح على النصب ، والاستقسام بالأزلام ، والقذف والميسر . . الخ الخ

وعلى هذا يكون معنى قوله فى الحديث (وحرم أشياء فلا تنتهكوها) أن الله جل جلاله منعنا من أشياء فيجب علينا ألا نرتكبها ، أو نقترفها . .

وتلصق كلمة (انتهك) صورة المعنى فى حسك ونفسك فى آن واحد ، فهى كلمة موحية مصورة لمعناها بظلها الذى تلقيه فى النفس ، وبوقعها الذى تلقيه فى الحس ، فهى ترسم صورة شخص أحمق يتصرف بدون تفكير ، ويأتى من الأعمال والأقوال مالايصدر إلا عن السفهاء والمجانين ، فتراه يشتم هذا ويضرب هذا ويسفك دم هذا ويأكل مال هذا ، ويلعن هذا ، ويقذف هذا ، ويعتدى على عرض هذا ، لا يردعه رادع ، ولا يمنعه حياء لا من الله ولا من الناس ، فيوقع نفسه للمؤاخذة والعقوبة الشديدة . هذه هى المعانى الذهنية التى تفيدها كلمة (انتهك) ولكنها تعطى صوراً أخرى كريهة ، تبعث على الاشفاق والرثاء حيث نراه فى الحقيقة لا يأتى بهذه الأعمال البشعة المنفرة فى حق الآدميين بل إنه معتدى فى الحقيقة على جانب الله ، مستهين بغيرته الشديدة على حدوده ، فكما يغار الرجل صاحب النخوة والمروءة على عرضه وماله ودمه . . الخ فان الله أشد غيرة منه . . فكل من انتهك حداً من حدود الله فصورته صورة المتطاول المعتدى على جانب الله عز وجل . .

ثم ذكر الحديث الأمر الرابع بقوله (وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها) . .

وهذه الأشياء هى الأمور التى لم يرد بشأنها نص يوجبها أو نص يحرمها ، وبذلك تكون داخلة فى باب العفووالتسهيل والتيسير ، فمن تركها فلاإثم عليه ، ومن فعلها فلا حرج عليه ، لأن الأصل فى الأشياء الإباحة حتى يعرض تحريم ولا يجوز أبداً لإنسان مهما كان أن يحرم ما أحل الله ، كما أنه لا يجوز أبداً أن يحل ما حرم الله ، ولا يجوز له أبداً أن يحرم شيئاً من هذه الأشياء التى لم يرد نص بتحريمها ، فالله خبير عليم محيط ، وما كان ربك نسيا ، فلو كان سبحانه يريد تحريم شىء لحرمه .

فهذا الأمر الرابع الذى أشار إليه الحديث هو «المسكوت عنه» وهو لم يذكر حكمه بتحليل ولا إيجاب ولا تحريم ، فيكون معفوا عنه لا حرج على فاعله . .

فاذا نص الشارع صلى الله عليه وسلم على حكم فى شىء لمعنى من المعانى ، وكان ذلك المعنى موجوداً فى غيره ، فانه يتعدى الحكم إلى كل ما وجد فى ذلك المعنى عند جمهور العلماء ، وهو من باب العدل والميزان الذى أنزله الله الله وأمر بالاعتبار به ، فهذا كله مما يعرف به دلالة النصوص على التحليل والتحريم .

فأما ما انتفى فيه ذلك كله فهنا يستدل بعدم ذكره بايجاب أو تحريم على أنه معفو عنه . وقد نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن البحث والتقصى فى هذه الأشياء المسكوت عنها ، حتى لا يكون البحث باباً من أبواب التعب والمشقة ولذا قال (لا تبحثوا عنها) . .

ويحتمل اختصاص هذا النهى بزمن النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن كثرة البحث والسؤال عما لم يذكر قد يكون سبباً لنزول التشديد فيه بإيجاب أو أو تحريم . .

وحديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه يدل على النهى عن السؤال عن شىء لم يحرم فحرم من أجل مسألته . ولذلك نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كثرة السؤال ، وقيل وقال ، وهذا النهى مأخوذ من القرآن الكريم ، فقد نهى الله تعالى عن الإلحاح فى السؤال ، والإلحاف فى الاستفهام ، فقال تعالى :
(يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) .
ويحتمل أن يكون الذى جاء فى الحديث عاماً فى قوله (ولا تبحثوا عنها) ، وقد روى عن سلمان رضى الله عنه ما يدل على ذلك ، وهو قوله : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السمين والجبن والفراء ، فقال : الحلال ما أحله الله فى كتابه ، والحرام ما حرمه الله فى كتابه ، وما سكت عنه ، فهو مما عفا عنه[1] .

---

(١) اخرجه الترمذى . والفراء بالفتح هنا حمار الوحش .

فان كثرة البحث والسؤال عن حكم ما لم يذكر فى الواجبات ولا فى المحرمات فقد يوجب اعتقاد تحريمه أو إيجابه لمشابهته لبعض الواجبات أو المحرمات ، فقبول العافية فيه وترك البحث عنه والسؤال خير . . وقد يدخل فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (هلك المتنطعون) قالها ثلاثاً فيما رواه مسلم من حديث ابن مسعود رضى الله عنه .

والمتنطع هو الذى يبحث فيم لا يعنيه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) . .

وإنما نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن البحث فى هذه الأشياء المسكوت عنها لأن البحث قد يؤدى إلى إعتقاد التحريم فى غير المحرم ، أو الوجوب فى غير الواجب ، وذلك لوجود شبه لا قيمة له بين هذا الأمر المبحوث فيه وبين أمر واجب ، كما قد تؤدى كثرة البحث إلى التقعر والتنطع فيؤدى إلى الهلاك .

وعلى هذا فقد أرشدنا الحديث إلى أنه ينبغى للمسلم ألا يسأل عما فيه إحراج لنفسه أو لغيره ، ولا يسأل عما لا يعنيه ، وإلا لقى ما لا يرضيه ، ولا يسأل عما لا يحتاج إليه مما يسوء السائل جوابه ، ولا يسأل للتعنت والعبث والاستهزاء والمراء كما كان يفعله كثير من المنافقين وغيرهم ، ولا يسأل سؤال المتتبع لما يسمى (الأغلوطات) ، وهى كما قالوا : ما لا يحتاج إليه من كيف وكيف ؟ ؟ .

وقد قال الإمام الأوزعى : (إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط ، فلقد رأيتهم (أى السائلين عن المغاليط) أقل الناس علماً) ؟ .

أما قوله صلى الله عليه وسلم : (وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان) فذلك يعنى أنه سبحانه إنما سكت عن ذكرها رحمة بعبادة ورفقاً حيث لم يحرمها عليهم حتى يعاقبهم على فعلها ، ولم يوجبها عليهم حتى يعاقبهم على تركها ، بل جعلها عفوا ، فان فعلوها فلا حرج عليهم ، وإن تركوها فكذلك .

وإذا تدبرت كل ما تقدم ظهرت لك حكمة ما كان من كراهة النبى صلى الله عليه وسلم ، لكثرة سؤال المؤمن له عن المسائل التى تقتضى أجوبتها كثرة الأحكام والتشديد فى الدين ، أو بيان أحكام دنيوية ربما توافق ذلك العصر ولا توافق مصالح البشر بعده . مع أن إعجاز هذا الدين وكماله أن جاء فى نصوص تتفق مع مصالح البشر فى كل زمان ومكان ، ويهدى أولى الأمر إلى أقوم الطرق لإقامة الميزان .

وبعد : فاذا تأملنا هذا الحديث الجليل فتأملناه جملةواحدة لرأينا الروعة الفنية والإعجاز البيانى ، متجسداً فى كل كلمة من كلماته ،وعبارة من عباراته ، فالألفاظ تنبع من رأسها الأصباغ والألوان ، وكل كلمة تلصق صورة المعنى فى الحس والنفس ، والعبارات منسقة متناسقة ، دقيقة السبك عظيمة التركيب ، والموسيقى الرقيقة الندية تنساب من خلال مخارج الحروف ، وتوالى حركاتها وسكناتها ، كسريان الماء ، والمعانى متسلسلة تدخل إلى النفس من عدة منافذ من العقل عن طريق إعمال الفكر وإثارة الانتباه ، ومن الخيال من طريق هذا التصوير الفنى البديع ، فيحصل للنفس متعتها الفكرية والوجدانية معاً .

فالحديث — كما ترى مثال للروعة الفنية والإعجاز البيانى فى أسلوب الأدب النبوى .

فهو معجز من جميع نواحيه سواء منها ما يتصل بأغراضه ومقاصده ، وما يتصل بألفاظه وبلاغته ، وما يتصل بمعانيه ومبانيه ؟ ؟

والله نسأل أن يوفقنا إلى أداء فرائضه ، ويعيننا على اجتناب محارمه ، وأن يهىء لنا من أمرنا رشداً .

مثل البخيل والمنفق

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد ثُدِيِّهما إلى تراقيهما ، فأَمَّا المنفق فلا ينفق إلا سَبَغَتْ أووفَرَت على جلده حتى تُخفِى بَنَانَه وتعفُوَ عن أَثَره ، وأما البخيل فلا يريد أَن ينفق شيئًا إلا لَزِقت كلُّ حَلْقة مكانها فهو يُوسِعها ولا تتسع » . « رواه البخارى » .

حب المال فطرة فى النفس : —

أكد القرآن الكريم فى كثير من آياته أن حب المال طبيعة فى النفس الإنسانية ، وأن الشح والحرص حاضر فى الأنفس لا يغيب . . فى كثير من الآيات وصف الله سبحانه الإنسان بحبه الشديد للمال وحرصه عليه . فقال تعالى :

(وإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيد) وقوله : (وَتَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لَمًّا ، وَتُحبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا).

ومن أصرح الآيات فى الدلالة على أَن حب المال فطرة طبيعية فى الناس جبلوا عليها قوله تعالى : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ) .

ولشدة حرص الإنسان على المال وتمسكه به أصبح الشح طبيعة فيه ، وملازماً له ، حيث أشار القرآن الكريم إلى هذا فى مواضع كثيرة منها :

(وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ)

أى جعلت حاضرة عنده أو جعل حاضراً عندها ، كأنها مطبوعة عليه ولا تنفك عنها ، ومن ذلك قوله تعالى :

(قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا) .

وفى هذه الآيات دلالة صريحة على أن الشح متمكن من النفس الإنسانية .

ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التى لا يبلغها الوهم كما يقول الزمخشرى فقد وصف الله بنى الإنسان بأنهم لو ملكوا خزائن الله التى لا نهاية لها لبخلو وقصروا فى الحقوق ، ومنعو ذوى الحاجات من رفدهم ، لأن هذا من طباعهم وسجاياهم . . فهم لا يبخلون خوفاً من نفاد ما عندهم ، وإنما يمسكون خشية أن ينفقوا ، لأن الإنفاق نفسه شىء مخوف عندهم ، فالمعروف أن البخيل يمسك المال خشية الفقر ، ولكن المعنى هنا على أن البخيل لا يبذل المال لأن هذا البذل نفسه مكروه لديه بصرف النظر عما يترتب عليه ، وقد يساعد على هذا المعنى أن الذى يمسك خزائن الله التى لا تتناهى لا يخشى النفاذ ، ولكن نفسيته التى تمكن الشح منها تخفيه من كل شىء يبعد عنه هذا المحبوب لديه (المال) وفى ذلك ما فيه من المبالغة فى وصف بنى الإنسان بالبخل . .

وقوله تعالى : (وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا) : ليس أوضح من ذلك فى وصف الإنسان بالشح بل بالشح المبالغ فيه [١] .ومنه قوله تعالى : (أَمْ لَهِمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يؤْتُونَ النَّاسَ نقيرًا) : أى لو أن لهم نصيبًا من ملك الله لما أعطوا أحدًا شيئًا ولا مقدار نقير ، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له كما قال تعالى : (إِنَّ الإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ) .

---

(١) القرآن والطبائع النفسية ١٩٨ .

ومن الايات التى تربط الشح بالبخل : (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُم أَمْوَالَكُمْ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ، هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فى سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُمْ مَنْ يَبْخَلْ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِىُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَايَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) .

وقد كشفت هذه الآية عن سبب البخل وتأصل الشح فى النفس الإنسانية، ووصفت الداء والدواء ، وهى بهذا أجمع آية فى الحديث عن البخل فى كتاب الله . . وهى تكشف عن طبيعة النفس البشرية ، وحبها الشديد للمال حباً يسيطر على قواها ونزعاتها جميعاً . ولهذا فان الله العليم الخبير بخبايا النفوس لا يطلب منهم أن ينفقوا فى سبل الدفاع عن دينه إلا قدراً ضئيلا ، حتى لا ينكشف ما طبعوا عليه من الشح والبخل ؛ وحتى لا يظهر ما حرصوا على إخفائه من أضغان وأحقاد ونزعات شريرة .

وصدق قتادة رضى الله عنه حيث يقول : قد علم الله تعالى أن فى إخراج الأموال إخراج الأضغان ، لأن المال محبوب لا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه .

(وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ)

وأكثر المفسرين على أن (عن) هنا حلت محل (على) ، معنى أن من يبخل فضرره عائد على نفسه ، وقليل منهم تنبه إلى دقيقة من دقائق القرآن الكريم فأقروا (عن) على معناها ، والمراد — كما فهم هذا القليل — أن من بخل فانما بخله عن داعى نفسه ، لا عن داعى ربه ؛ فلماذا خص البخل بهذا ؟

لعل السر فى ذلك هو الإشارة إلى أن الشح راسخ فى النفس فيصدر عنه البخل ، ومن هنا تلمح التفرقة بين الشح والبخل ، فالبخل المنع ، والشح هو المعنى النفسى الذى يصدر عنه المنع ، وهذا ما رآه بعض أصحاب الدقائق[١]

---

(١) القرآن والطبائع النفسية ٢٠٠ وانظر تفسير ابن كثير .

وعلى أية حال فالبخل مذموم قبيح سواء كان عائداً على النفس ، أو صادراً عن داعى النفس

(وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ)

فهذا توبيخ ولوم شديد ، ففيم البخل وفيم الشح إذن ؟ .

وبهذا تأكد لنا أن حب المال والتمسك به والحرص عليه أمر فطرى فى النفس الإنسانية ، وقد قرر القرآن هذه الحقيقة ، ولم يقف منها موقف الإنكار بل وقف موقفه من كل الشهوات المحببة إلى نفوس العباد ، فاعترف بها وقررها كأمر واقعى ، ثم سلك منهجاً تربوياً حكيما لنقل النفس الإنسانية من هذه الواقعية الأنانية الأثرة إلى الجماعية الخيرة . .

أضرار الشح والبخل : —

قلنا إن النفوس قد أشربت حب المال وتعلقت به تعلقاً تغلغل فى جميع مشاعرها فلا يكاد يشذ من ذلك أحد، ذلك لأنه السبيل إلى نيل الحاجات وإحراز الرغبات مهما تنوعت (وحاجات من عاش ولا تنقضى) ، ولاتكاد تجد حاجة تعاصت على الدينار والدرهم إذ يدعونها ، وقال بعض الظرفاء مشطراً البيت المشهور :

إذا كنت فى حاجة مرسلا وأنت بها هائم مغــــرم
فأرسل حكيما ولا توصه وهذا الحكيم هو الدرهم

ولقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أسوأ ما يصاب به الإنسان هو أن يكون فى بخل شديد ، يجعل صاحبه يهلع ويفزع إذا طولب بالانفاق والبذل فقال (شر ما فى الرجل شح هالع ، وجبن خالع) . فما أروع التعبير بالشح الهالع ، ونسبة الهلع إلى الشح نفسه ، مع أن الذى يهلع فى الحقيقة والواقع هو الشحيح لا الشح ، وكأنه نفسه أشد هلعاً وفزعاً . .

وقال صلى الله عليه وسلم : (ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) . وفى رواية : (ما ذئبان ضاريان يأتيان فى غنم غاب رعاؤها بأفسد للناس من حب الشرف والمال

لدين المؤمن) . وهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف فى الدنيا .

والحرص على المال نوعان : أحدهما شدة محبة المال مع شدة طلبه من الوجوه المباحة ، والمبالغة فى طلبه والجد فى تحصيله ، ذلك أن الحريص يضيع عمره فى الحرص على طلب رزق مضمون مقسوم لا يأتى منه إلا ما قدر وقسم ثم لا ينتفع به ، بل يتركه لغيره ، ويرتحل عنه ، ويبقى حسابه عليه ونفعه لغيره ، فيجمع لمن لا يحمده ، ويقدم على من لا يعذره أما النوع الثانى من الحرص فيزيد على ما سبق ذكره فى النوع الأول حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة ، ويمنع الحقوق الواجبة . وهذا النوع من الشح المذموم ، قال الله تعالى :

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

فالشح هو الحرص الشديد الذى يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلها ويمنعها حقوقها ، فالشحيح هنا قد تجاوز العلة التى من أجلها غرس حب المال فى النفوس ، وهى أن الباب الموصل إلى نيل الرغائب ، وانتقل إلى حب المال لذاته فيشغله جمعه ويؤلمه صرفه ولو فى الإنفاق على نفسه ، وفى إدراك ما هو إليه بأشد الحاجة ، وفى تحصيل أهم ما يعود عليه بالنفع ، فهو يقضى حياته فى جمعه وإدخاره وكنزه لا يبالى بما فاته فى طريق جمعه من عظيم الفوائد ، ولا يعبأ بما حرم فى سبيل إدخاره واكتنازه من جليل المنافع فهذا وأمثاله قد التوى عليهم القصد وضل بهم الطريق فحسبوا الوسيلة غاية والمقصد الحقيقى أمراً تافهاً ، فتراهم يتهافتون على إحرازه واكتنازه ، ناسين فى ذلك كل مقصد ، ومفوتين على أنفسهم كل منفعة ، ومحرومين من كل لذة ، ومضيعين كل سعادة وهناءه ، أفتراهم يصنعون كل ذلك حرصاعلى المال وخوفاً من الفقر ، والناس من خوف الفقر فى الفقر ، أم هم صرعوا بحبه لا يلذ لهم إلا مشاهدته وعده وإحصاءه وعبادته ، فتكون قد أصابتهم حمى الذهب — كما يقولون — أولئك قوم طمس الله على بصائرهم فأشقاهم بما جعله سبباً فى سعادة الناس ، وحرمهم النعيم فى الحياتين بالسبب الموصل إلى

نعيم الحياتين . . وهذا هو الضلال المبين ، بل هو عمى القلوب ، وهو العمى الحقيقي . كما قال تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) . وقد حذر القرآن الكريم والحديث الشريف من عاقبة الشح وأخذا النفس بأسلوبى الترغيب والترهيب ، لعلاجها وتطهيرها من الشح والبخل وما أكثر النصوص الواردة فى ذلك[1] .

فقد قيل إن الشح رأس المعاصى ، إذ روى عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يجتمع الشح والإيمان فى مؤمن) ، ومتى وصل الحرص على المال إلى درجة الشح نقص ذلك بالدين والإيمان .

وفى صحيح مسلم عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (اتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (إياكم والشح فانما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا[2] .

فالشح هنا هو الإمساك عن الإنفاق حيث يجب البذل ، سواء كان واجباً دينياً كزكاة المال ، والنفقة على الزوج والأولاد ونحوهم ممن تجب على المكلف نفقتهم أو كان واجباً تقتضيه المروءة ، بأن ينفق ما يناسب حاله ، فلا يليق أن يكون ذا مال كثير ويعيش عيشة البؤساء . أو يضيق على أولاده وأهله ، فيحرمهم من أنعم الله تعالى ، أو يسقط كرامته فى البيئة التى يعيش فيها ، فيصبح بذلك عرضة لتحقير الناس إياه ، وغير ذلك من الأمور التى تخل بالمروءة .

وقد ربط القرآن الكريم بين الإيمان والإنفاق ، ترغيباً فى الإنفاق والطاعة فقال تعالى .

(آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فيه) ،

---

(١) راجع فصل (الجهاد بالمال) فى كتابنا (آيات الجهاد فى القرآن) .
(٢) رواه الحاكم وأبو داود .

أفليس المخاطبون مؤمنين ؟ فكيف يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله ؟ إنهم يدعون إلى تحقيق حقيقة الإيمان فى قلوبهم بمعناها الصحيح ، وهذه لفته من اللفتات الدقيقة التى تربط بين الإيمان والإنفاق فى سبيل الله . . .

فقد أثار الخجل والحياء من الله فى نفوسهم ، فما يمسكهم عن البذل والمال الذى فى أيديهم هو مال الله جعله أمانة عندهم وخلفاء فيه :

(وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ)

فهذه الأموال التى فى أيديكم إنما هى أموال الله فليست هى أموالكم فى الحقيقة ، فأنفقوا منها فى حقوق الله وليهن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه . .

وما أكثر آيات الترهيب للبخلاء والأشحاء ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، فقد ذمهم الله غاية الذم فتأمل قوله تعالى :

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ،الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ، كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فى الْحُطَمَةِ ،وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةِ ،نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةِ ، الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ، إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ، فى عَمَدٍ مُمَدَّدَة) .

فهذه سورة كاملة تحمل من بدايتها إلى نهايتها حملة عنيفة تقشعر لهولها الأبدان على الذى جعل المال إلهاً يعبد فألهاه جمعه وتكديسه عن الإيمان بالله وذكره .

وقال تعالى : (يـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يومٌ لابيْعٌ فِيهِ ولاخُلَّةٌ ولاشَفَاعَةٌ ، والْكَافِرُون هُمُ الظَّالِمُون) . فقوله (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

صفة ملازمة للذين كفروا بأنعم الله تعالى إذا لم يضعوها فى موضعها ، فظلموا أنفسهم وقومهم بامساكهم عن الإنفاق فى سبيل الله . .

وما أكثر الأحاديث النبوية التى تحث على الإنفاق ، وتحذر من البخل والشح ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (ما من يوم يصبح العباد

فيه إلا وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما اللهم : أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً) رواه الشيخان .

وقال صلى الله عليه وسلم (قال تعالى : ياعبدى أنفق أنفق عليك)

وقال : (يد الله ملأى لاتغيضها نفقه سحّاء الليل والنهار ، أرأيتم ماأنفق منذخلق السموات والأرض فانه لم يغض ما بيده ، وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزان يخفض ويرفع) .

وقال أيضاً : (خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق) .

المعانى والتصوير : —

عمد الأسلوب النبوى الحكيم إلى أسلوب التصوير عن طريق التمثيل والتشبيه وضرب الأمثال فى هذا الحديث ، لتسليط الأضواء الكاشفة على قلوب الأشحاء والبخلاء ، وتصويرها من الداخل لتظهر بادية للعيان كمناظرهم ومظاهرهم الخارجية ، ولما يمتاز به التصوير عن طريق التمثيل عن غيره من الأساليب ، من حيث قدرته على أداء غرضه الأصلى المقصود من التصوير وما يمكن أن ينقله إلى النفس من إحساس بالمعنى المفهوم وإدراك له .

ولهذا فقد أكثر القرآن الكريم والحديث الشريف من ضرب الأمثال للناس لقوله تعالى : (ولَقَدْ ضَرَبْنا للنَّاسِ فى هذا الْقُرْآن مِنْ كُلِّ مَثَل لَعَلَّهُمْ يتذكَّرُون) وقال تعالى : (وتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا للنّاسِ وَمَايَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُون) .

وأخرج البيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن القرآن نزل على خمسه أوجه : حرام وحلال ، ومحكم ومتشابه ، وأمثال فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال) .

وإذن فأسلوب التمثيل من الأساليب العربية البليغة ، عرفه العرب وهو كثير فى القرآن والحديث ، فكانت له بذلك أهمية خاصة . .

فلضرب الأمثال تصوير أخاذ ، وتقريب المراد للعقل فى تصويره بصورة المحسوس ، لأن ذلك أثبت فى الأذهان ، وأسرع إلى إقناع الوجدان . وذلك بتشبيه الخفى بالجلى ، والدقيق بالواضح . فى إيجاز مقنع ، واختصار مؤثر . .

قال الاصفهانى : لضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء النظائر شأن ليس بالخفى فى إبراز خفيات الدقائق ، ورفع الأستار عن الحقائق ، تريك المتخيل فى صورة المتحقق ، والمتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ؛ وفى ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة ، وقمع لضراوة الجامح الأبى ، فانه يؤثر فى القلوب ما لا يؤثر وصف الشىء فى نفسه ، ولذلك أكثر الله تعالى فى كتابه وفى سائر كتبه الأمثال ، ومن سور الإنجيل سورة تسمى الأمثال) .

وقال الزمخشرى : (ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفى ، فى إبراز خبيات المعانى ، ورفع الاستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل فى صورة المتحقق والمتوهم فى معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد) .

فربما تكون المعانى التى يراد تفهيمها معقولة صرفة ، فالوهم ينازع العقل فى إدراكها حتى يحجبها عن اللحوق بما فى العقل . فبضرب الأمثال تبرز فى معرض المحسوس فيساعد الوهم العقل فى إدراكها . . فأثر التمثيل قائم فى الكلام على ما فيه من إبراز المعنى جاثماً وإبرازه شاخصاً ، وإبعاد الحجب عن أسراره ، وتوضيح غوامضه ، ولذا أكثر الرسول من ضرب الأمثال فى أحاديثه الشريفة .

والظاهر أن الأمثال بالنسبة للايحاء والتأثير فى القلوب بمثابة وسيلة الإيضاح والافهام ، فانها إنما تضرب فيما تدركه الحواس مما لا تدركه . فتكون أثبت فى الذهن وأنفذ إلى القلب ، ولهذا حسن استخدامها فى التذكير والوعظ والحث والزجر والتعليم والتهذيب .

ولا شك أن الأمثال تعد من أجمل أساليب التعبير لما تتميز به من صفات بلاغية إذ تجمع ايجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، .

فالمثل يتمتع بجميع مزايا الفنون البلاغية من استعارة أو كناية أو مجاز وما شاكلها . . والمثل على أية حال أحد طرائق التعبير والتصوير الأساسية فى الأحاديث النبوية التى تخرج ما لايقع عليه الحس إلى ما يقع عليه . وما لايعلم

ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة وما لم تجربه العادة إلى ما جرت به العادة . وما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة .

ولقد صور لنا هذا الحديث الشريف حال الرجلين ينعم الله عليهما بنعمة المال فيعود على أحدهما بالخير ، وعلى الآخر بالشر والضرر ، فضرب لذلك مثلا : رجلان يلبسان جبة أو جنة من حديد ليقيا بها أنفسهما من الضرر ويحمياهما من الأذى فتتسع لأحدهما وتسبغ عليه حتى تستره وتتجاوز أطرافه فتسبغ على بنانه وعلى أطراف أصابعه أى أطراف أطرافه وتعفو أثر سيره ، لأنها تجر وراءه فتستر حتى أثر مسيره ، فينتفع بها أيما انتفاع . . .

والآخر تلصق جبته أو جنته عليه ما بين ترقوته وثدييه فتكون حينئذ قد غلت يديه وحبستهما عن أن يدافع بهما عن نفسه ، واليدان مصدر القوة والدفاع عن النفس فضلا عن أنها أبقت سائر جسمه ومقاتله عرضه للأذى والفتك به ، فلا هى التى سترته وحمته ولا هى أبقته طليق اليدين يستطيع بعض المدافعة عن نفسه ، فكان ضررها الذى أتت به فوق نفعها الذى كان ينتظره ، فلو لم يلبسها لكان على الأقل قادراً على الدفاع عن نفسه بيديه المطلقتين ، وقد زاد فى تصوير ذلك بما شغله من شأنها فهو يريد أن يوسعها فلا تتسع ، فهو منها فى علاج ومشاغل ، بينما صاحبه قد استكمل بها الستر وأمن الخطر ، وأطلقت منه اليدان ، وسهل باتساعها انزلاقها وجمعها فنشرها كيفما أراد(١) .

وهذا المثل الرائع يضعنا أمام معرض من المعارض الفنية ، الحافل بلوحاته الجميلة الناطقة ، المعبرة أجمل تعبير ، والتى تخلب الالب ، وتملك العقل ، وتشد إليها الأبصار شداً .

فهذا المثل الذى ضربه الرسول عليه الصلاة والسلام للبخيل والمنفق : (مثل البخيل والمنفق . . .) فيه حشد من الصور المتتابعة فى شريط متحرك ، ولو سجلت عدسة الصور المتحركة مشهداً كهذا ، بما فيه من الحركة والتتابع لكانت موفقة كل التوفيق ، فكيف والمنظر هنا تسجله الألفاظ ، فلا تنقص

(١) مجله نور الاسلام ١٠/٦٧٩ المجلد الثالث .

منه حركة واحدة تستطيع عدسة الصور المتحركة إثباتها ؟ بل لا تتيح للنفس متعة أشهى بأن تدع للخيال عملا ، وهو يرسم الصور ويمحوها ، ويصنع الحركات ويتبعها ، ويرسم الظلال ويشهدها ، والنفس تجيش والوجدان ينفعل

كلمة (مثل) نفسها تعنى فى أصل اللغة المثول والانتصاب ، والمثل المصور على مثال غيره ، يقال مثل الشيء أى انتصب وتصور ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (من أحب أن يمثل له الرجال فليتبوأ مقعده من النار) . . والتمثال الشيء المصور ، وتمثل كذا تصور قال تعالى :

(فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) .

والمثل عبارة عن قول شيء يشبه قولا فى شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره .

والمثل يقال على وجهين أحدهما : بمعنى المِثْلِ نحو شِبْهٍ وَشَبَهٍ ونِقْضٍ وَنَقَضٍ قال بعضهم : وقد يعبر به عن وصف الشيء نحو قوله :

(مثلُ الْجنّةِ التّي وُعِدَالمُتَّقُون) .

والثانى : عبارة عن المشابهة لغيره فى معنى من المعانى أى معنى كان . . وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة ، وذلك أن الند يقال فيما يشارك فى الجوهر فقط ، والشبه يقال فيما يشارك فى الكيفية فقط ، والمساوى يقال فيما يشارك فى الكمية فقط ، والشكل : يقال فيما يشاركه فى القدر والمساحة فقط والمثل عام فى جميع ذلك .

وهذا المثل الذى ضربه الرسول عليه الصلاة والسلام للمنفق والبخيل متأثر بأسلوب القرآن الكريم ، فكثيراً ما استعمل القرآن الكريم ذلك ، منها قوله تعالى :

(مَثَلُ الَّذِين حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) وقوله : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا) . وقوله (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَل الَّذى يَنْعِقُ بِمَا لَايَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءًا) .

فانه قصد تشبيه المدعو بالغنم فأجمل وراعى مقابلة المعنى دون مقابلة الألفاظ . وبسط الكلام ، مثل وراعى الذين كفروا ، والذين كفروا كمثل الذى ينعق بالغنم . ومثل الغنم التى لا تسمع إلا دعاء ونداء . . وعلى هذا النحو قوله سبحانه .

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) . .الخ .

فهنا فى هذه الآيات مقابلة شىء بشىء هو نظيره ، أو وضع شىء ما ليتحذى به فيما يفعل إلا أن القدر المشترك بين هذه المعانى هو البروز والشخوص

وهنا تصوير البخيل والمنفق فى صورة رجلين لبس كل منهما جبة من حديد لحماية أنفسهما من الخطر والأذى ، وقد روى « جبتان » و « جنتان » والجنة بالضم : هى ما يجتن به ويستتر ، وعرفت فيما يتحصن به من الضرر . والجبة : الثوب المعروف ، ووصفها بأنها من حديد يرجعها إلى معنى الجنة . .

وإذا تأملنا جزئيات هذا التمثيل المتعددة ، لرأينا على جانب من الصورة رجلين لبس كل واحد منهما جنة من نفس النوع وبنفس المواصفات ، ولنفس الغرض . فقد وصف الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الجزئية من الصورة بقوله : (عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما) . فالجبتان من حديد ، وتغطيان من جسميهما ما بين ثديهما إلى تراقيهما . .

ولكننا نرى على الجانب الثانى من الصورة منظراً عجيباً . فالرجلان هما هما ، والجبتان هماهما ، ولكن قد ظهرت الجبتان فى صورتين مختلفتين تمام الاختلاف . فقد ظهرت الجبة على الرجل المنفق فى صورة مختلفة تماماً عنها عن الرجل البخيل . . وهذا الإختلاف واضح فى اختلاف مكان الرجلين على اللوحة فى هذا المنظر الجديد . ففى المنظر الأول المتحد بدون أدنى أختلاف لبس البخيل الجبة قبل المنفق فظهر فى الصورة أولا ثم ظهر المنفق ثانياً ، وتقدم ذكر البخيل على المنفق فى الحديث ، فهو يسارع إلى جانب الخير لنفسه والحرص عليها ، فها هو يجمع المال بهمة ونشاط كبير ، فيسبق فى ذلك رفيقه الأول فى عملية الجمع وبذل الجهد فى ذلك ، فهما

مشتركان فى بذل الجهد فى جمع المال وإن كان البخيل أحرص على أكتسابه من جميع الوجوه الحلال والحرام ، ظناً منه أن السعادة فى كثرته وتكديسه ، فهو على أى حال أكثر مالا وأشد حرصاً من المنفق ؟ وفى الصورة الثانية العجيبة نرى المنفق هو الذى يتقدم على البخيل فى الذكر فى هذه اللوحة التصويرية الناطقة ، وينال من العناية والاهتمام والتقديم المكانى فيبرز صورته شاخصة مجسمة حيه بارزة للعيان فى أبهى مناظرها وفى أجمل الظلال والخطوط والألوان والتناسق بين الصورة والإطار .

فالمنفق الذى جمع المال من الحلال وأنفقه فى حلال وفى الطيبات ، بارك الله له فى كسبه وإنفاقه ووسع عليه فى رزقه ، وأسعده ووقاه كل الشرور والأخطار فى دنياه وآخرته ، فتجارته رابحه فى دنياه وآخرته ، وذنبه مغفور وهو مأجور غير مأزور ومثله فى ذلك مثل رجل اشترى لنفسه درعاً قوية لتحصنة ضد أخطار الحروب والمقاتلة فها هى تغطى سائر جسده من رأسه إلى أخمص قدميه ، بل إنها لتجر وراءه على الأثر ، وتمحو آثار مسيره ، فلا يستطيع العدو أن يتعقبه ويتبع أثره ، ومعرفة مكانه إذا أراد ذلك . . فلم تقتصر فائدة تلك الجبة المباركة على حماية جزء يسير من الجسد بل تعدت ذلك إلى الجسد كله بفضل الله وبركته ، فهى نعمة كبيرة أنعم الله بها على ذلك الرجل الطيب الذى اشتراها من حلال واستعملها فى الحلال الذى شرعه الله .

وفى نفس الصورة نرى الرجل البخيل فى صورة باهتة شاحبة ، وقد علاه الأضطراب والتمزق والحيرة ، والإنشغال بأمر جبته عن نفسه ، فقد لبس تلك الجبة وهو يأمل أن يقى نفسه وجسده من أخطار الحرب وويلات القتال ، وكم كانت فرحته بها حين لبسها ولكن ما أتعسه وأضيعه حين كانت سبباً فى تعريضه للموت المحقق ، فها هى تنقلب النعمة إلى النقمة ومن حمايته إلى هلاكه . فما أن وضعها على جسده حتى لصقت حلقاتها فيه ، وحبست يديه عن الحركة ، فكانت غلا وقيداً ثقيلا لهما ، وكلما حاول تحريك يديه ازدادت لصوقاً بجسده ، وتضاعفت ألمها وثقلها على جسمه ونفسه ، فقد تركته فريسة لسهام الأعداء ونبالهم وسيوفهم تنوشه فلا يستطيع الهرب فيهرب ولا يستطيع تحريك يديه فيدافع عن نفسه ، ولا هى بالتى غطت مقاتله وحمتها

من الضربات والطعنات فأصبح معها فى حرب يحاول أن يشدها إلى أسفل فتتملص إلى أعلى ويحاول أن يوسعها عن جسده فتزداد التصاقاً به فتوسعه ألماً وتعذيباً . فهو بين معركتين معركة الخلاص من آلام هذه الجبّة ومعركة الدفاع عن النفس أو الهرب من وجه الخطر المحدق ومعركة ثالثة نفسية ، حيث يرى زميله الذى لبس مثل جبته وهو يتحرك على هواه ، ويضرب يمنة ويسرة ، وهى ترخى سدولها عليه وتغطى سائر جسده ، وتحميه من أسفلة إلى أعلاه ، فكيف يسعد صاحبه بهذا الأمن ويتمتع بهذا الحصن الحصين والحرز الحريز وهو يلاقى الأهوال ويواجه الموت الزؤام ؟ . .

ومهما حاولت إبراز جزئيات هذا المنظر الدقيق العجيب فما خفى كان أعظم . . .

هذا هو المثل الذى ضربه الله للبخيل والمنفق — كلاهما قد أنعم الله عليه بالمال الذى مثل له الحديث بالجبة ، ولكن هذا المال قد يكون نعمة وقد يكون نقمة ، فاذا استعمل كما أراد الله ، وأعطى صاحبه كل ذى حق حقه ، كان نعمة عليه فى الدنيا والآخرة ، فهو فى بحبوحة من العيش وراحة البال ، وهدوء الحال ، تراه سعيداً بما يكسب وبما ينفق فى سبيل الله ، والله يبارك له فيما أعطى وفيما أبقى ، فيزداد خيره ويعم فضله ، وتكثر حسناته وقد عبر الحديث عن هذه البركة والزيادة والنماء بأن جبته قد (سبغت ووفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو على أثره) .

فهو لا ينفق شيئاً من المال إلا وقد أخلفه الله عليه أضعافاً مضاعفة ، « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » ، فأصل المال محفوظ ، والربح مضمون ، والزيادة مطردة ، والتجارة مزهرة والإنفاق فى وجوه الخير وسبيل الله يزداد كما زاد هذا المال فيكسب محبة الله ورضاه ، ومحبة الناس ودعواتهم له بالبركة .

فنعم هذا المال الصالح للرجل ، يكسبه من حلال وينفقه فى حلال ، فيكسب محبة الله وعباده ، ويحقق السعادة فى الدنيا والآخرة .

نعم إن المال فى هذه الحالة نعمة كبيرة ، فصاحبه قد استفاد منه كثيراً ، لأنه لم تبطره النعمة بلى وضعها فى موضعها الذى أراده الله ، فعادت عليه

بالمحبة وطيب الذكر والشهرة وحسن الأحدوثة فى دنياه ، وللآخرة أعظم درجات ، وأحسن حالا ومالا ، فالذنب مستور فى الدنيا مغفور فى الآخرة بل إن الحسنة تضاعف أضعافاً مضاعفة حتى إن التمرة لتقع فى يمين الرحمن فيظل ينميها إلى صاحبها الذى اكتسبها من حلال وتصدق بها — فتصبح كالجبل وإن الصدقة تمحو السيئة كما تطفىء النار الحطب . . وقد عبر الحديث عن هذا المعنى الدقيق بقوله (على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره)، فعبارة « ووفرت على جلده » أفادت زيادة الربح والمال والثراء للمنفق ، والشهرة وحسن الأحدوثة فى حياته وبعد موته ، وهو فى غنى وسعادة ، وهناءة غامرة ، لا يشعر بقلق أو هم أو غم فالقناعة والسعادة تملأ كل نفسه وتظهر على كل جوارحه . من أعلاه إلى أخمص قدميه . (ووفرت على جلده حتى تخفى بنانه) .

وأما عبارة (وتعفو على أثره) فيشم منها الكثير من المعانى الخفية ذلك أن نفقة المنفق فى سبيل الله تستر عيوبه فى الدنيا ، لأن الناس ينسون عيوبه ، ويذكرون محاسنه ، فألسنتهم لا زالت لاهجة بذكره وشكره، وأكفهم لا زالت ضارعة إلى الله أن يغفر له ويتقبل منه ويبارك له فيم أعطى وفيما أبقى : فهو يمشى بين الناس وكأنه ملك كريم تعد حسناته ولا تذكر سيئاته . فقد استعبد قلوب الناس باحسانه . . .

وألمح فى العبارة معنى آخر وهو أنه مستور الحال فى الدنيا والآخرة ، فالله يبارك له فى حياته ويغفر له سيئاته ، بل ويبدلها حسنات ، بسبب ذكره بسبب ذكره وشكره للمنعم سبحانه وتعالى ، فذنبه مغفور ، وصحيفة أعماله بيضاء قد محيت منها السيئات وكتبت محلها الحسنات (واتبع السيئة الحسنة تمحها) .

والله يقول : (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) .

أما البخيل فقد صور الحديث حالته بقوله : (وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها) .

روى بدل : (لزقت) ، (قلصت) و (غاصت) ، والمعنى متقارب، وهو انقباض حلقاتها ووقوف كل حلقة مكانها .

وتصوير البخيل بأنه يريد أن ينفق فلا ينجز هو التصوير الصحيح ، فان البخيل مهما اشتد بخله يريد أن يتمتع بلذة المحمدة وحسن السمعة ، ويدرك ما فى الإنفاق من مجد وفخار ، ولكنه حين تمتد يده إلى المال ليحرز به الفخار تغلبه شقوته ويمثل له المال محبوباً لا يعوض فترجع يده مغلولة إلى عنقه ، فهو يهم ولا يفعل ويكاد لا ينجز ، كما قال القائل :

يحب المديح أبو مالك ويفرق من صلة المادح

فأنت ترى فى هذا المثل العديد من الصور الناطقة التى رسمت على هذه اللوحة التصويرية الرائعة المفعمة بالحيوية والبهاء . فأين هى الريشة ؟ وأين هى العدسة ؟ التى تستطيع أن تبرز هذه الجزيئات والتفاصيل الدقيقة ، التى لا تكتفى بتصوير المنظر الخارجى بل تغوص إلى الأعماق البعيدة ، إلى سويداء القلوب ، فتبرزها شاخصة تراها العين ، وتلمسها اليد ، وتسمعها الأذن ؟ .

فقد أخرج هذا المثل الرائع المصور ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، وما لا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة ، وما لا قوة له فى الصفة إلى ما له قوة وفى هذا التصوير الفنى الذى أخرج ما تكنه قلوب البخلاء تحقير وازدراء للبخل والبخلاء يحقق ما يهدف إليه الحديث من الناحية الدينية والفنية على على السواء حيث يكون تثبت المعنى الذى تشتمل عليه أقوى وأشد .

وقد برزت أمامنا فى هذا المثل الذى ضربه الرسول عليه الصلاة والسلام للمنفق والبخيل طريقة التصوير التشخيصى بواسطة التخييل والتجسيم ، ونعنى بالتشخيص خلع الحياة ، وتجسيمها على ما ليس من شأنه الحياة المجسمة من الأشياء والمعانى والحالات النفسية .

فنحن أمام مشهد من المشاهد التى تستجيش الخيال ، مشهد متحرك ناطق نتتابع فيه الحركات وهى محسوسة مجسمة .

فالبخل وهو مرض نفسى لا يمكن إدراكه بالحواس المعروفة رأيناه شاخصاً مجسماً فى صورة حلقات تلتصق فى جسد البخيل كلما حاول أن يوسعها تزداد التصاقاً ، وتضاعف ألمها وتباريحها .

فمحاولة البخيل الإنفاق حركة نفسية لا تقع عليها الحاسة أخرجها التعبير المصور إلى ما تقع عليه الحاسة وتنفعل برؤيته : فليس الحس وحده هو الذى يجمع بين المشبه والمشبه به بل الحس والنفس معاً ، بل إن للنفس النصيب الأكبر والحظ الأوفى ، فليس التشبيه الفنى البليغ فى واقع الأمر سوى إدراك ما بين أمرين من صلة فى وقعهما على النفس ، ولن نقدر التشبيه بنفاسة عناصره ، بل بقدرته على التصوير والتأثير فالتشبيه لمح صلة بين أمرين من حيث وقعهما النفسى . .

وإننا فى هذا المثل الذى ضربه الرسول عليه الصلاة والسلام للبخيل والمنفق نلمح شعور النبي صلى الله عليه وسلم واضحاً وضوحاً وجدانياً نحو البخيل والمنفق ، فكأنه قد وصف لنا شعوره نحوهما ، ودلنا على محبته وتكريمه للمنفق ، واحتقاره واشمئزازه من البخيل . فتأمل كيف يصف لك شعوره عليه الصلاة والسلام نحو المنفق (فلا ينفق إلا سبغت ووفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره) ، وكأنه يمسك بيدك ووجهه يتهلل بشراً ، وهو يقول لك : انظر : انظر : كيف صنع الله بهذا الرجل الطيب الذى اكتسب ماله من وجوهه المشروعه ، وأنفقه فيما يحبه الله ويرضاه ، فأحبه الله ورضى عنه .

وعلى الجانب الآخر ترى الصورة شاحبة باهتة وهو يصف شعوره نحو البخيل : (أما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع) ، فهو يرسم الصورة كما تحس بها النفس ويدركها الوجدان لتحدث أثرها فى نفوس المخاطبين ، فاى تصوير يقرب معنى : (الإنفاق والإمساك) إلى الذهن ، ويلصقه بالخواطر والأحاسيس كهذه الصورة الفنية البديعة التى نقلت المنظر كله بذلك التشبيه أمام المخيلة ، وتجسيم فى أعماق التفكير ، وكان له أثره العميق فى إبعاد كثير من الناس عن سلوك هؤلاء البخلاء ، وترغيب كثير من الناس فى الإنفاق فى سبيل الله عن طواعية وطيب نفس .

وعلى أية حال فالصورة تثير السخرية والاشمئزاز من حالة البخيل المزرية ، وهو ما قصد إليه التعبير ، فهى صورة فنية ساحرة ، فيها روعة القصة ، وفيها تخييل قوى ، لو أريد تصويرها بالحركات .

إنها صورة عجيبة يرسمها الحديث بأسلوبه البديع ، صورة مؤلفة من عدة لقطات لإبراز حالات المنفقين والممسكين ، حالاتهم الظاهرة والمضمرة ، فلقطة تصور حالة المنفق من الداخل ، وإندفاعه الشديد إلى عمل الخير ، وسعادته بما يقدم لدنياه وآخرته ، ولقطة تصور مباركة الله تعالى وتقبله لنفقته ، ومضاعفة ثروته وستر عيوبه ، ومغفرة ذنوبه . ولقطات تصور حالة الممسك الخارجية ، فقد بخل حتى على نفسه ، فهو فى بؤس وشقاء حتى فى ملبسه ومأكله ومشربه ، يملك الملايين ويعيش عيشة الفقراء المعوزين وقد صورت هذه الحالة كلمة من كلمات هذا الحديث التى تلصق صورة المعنى باحساسك بقوله : (وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع) . فقد أختار الحديث كلمة « الحلقة » وقد سميت بذلك تشبيهاً لها بالحلق فى الهيئة . وقيل حلقة ، وقال بعضهم : لا أعرف إلا فى الذين يحلقون الشعر .

واعتبر فى الحلقة معنى الدوران ، فقيل حلقة القوم ، وقيل : حلق الطائر إذا ارتفع ودار فى طيرانه .

فعلى أى معنى من هذه المعانى للحلقة فهى تلزق أو تلصق فى جسد المنفق وتدور معه حيث يدور ، فاذا ارتفع ارتفعت وإذا حاول تخفيفها وتوسيعها ازدادت لصوقاً به . . وهذه الحلقة هى « المال » فكلما حاول البخيل إخراجه ازداد به التصاقاً وتمسكاً فلا يريد له فراقاً ، إنه حبيبه بل معبوده . . فأية محاولة لابعاد هذا الحبيب فهى تثير الحرص والتمسك والحذر الشديد من مفارقة المحبوب . فكل قرش يلصق مكانه فى جيب صاحبه أو فى كفة أو فى حفرة تحت الأرض أو فى مصرف من المصارف ، إنه يتمركز فى نفس المكان ولا يمكن إخراجه أو زحزحته منه ، مهما حاول البخيل ، لأن نفسه المحبة للمال شديدة الحرص على إخراجه ، فلا تطاوع عقله أو يده فى أن تمتد إلى إخراج قرش واحد من هذه الكنوز (فهو يحاول أن يوسعها فلا تتسع) . . فما أروعها من لقطة تصور معاناة البخيل النفسية وصراعه الداخلى ، وما يجيش به وما يشغله .

وهى لقطات متتابعة تصور المنفقين والبخلاء كما هم بحالاتهم النفسية ومناظرهم الخارجية . فى مشهد متكامل ، متقابل المناظر ، منسق الجزيئات ، معروض بطريقة معجزة فى التناسق والأداء ، المتمثل بمناظره الشاخصة لكل خالجة فى القلب ، وكل خاطرة ، المصور للمشاعر والوجدانات ، بما يقابلها من الحالات والمحسوسات الموحى للقلب باختيار الطريق فى يسر عجيب . .

وهكذا أقام هذا المثل العجيب بالايحاء الشعورى الرهيب ، الذى لا يدع مجالا للتردد فى الاختيار ، قبل أن تذهب فرصة الاختيار . .

فسبحان من أعطى رسولنا عليه السلام جوامع الكلم ، واختصر له القول اختصاراً ونسأله سبحانه أن يمن علينا بتوفيقه لعمل الخير ، وخير العمل ، أنه سميع مجيب . .

الطاعات تفرج الكربات

روى الشيخان عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (انطلق ثلاثة نَفَر ممن كان قبلكم حتى آواهُم المبيتُ إلى غار فدخلوه ، فانحدرتْ صخرةٌ من الجبل فسَدَّت عليهم الغارَ ، فقالوا : إنه لايُنجيكم من هذه الصخرة إلا أنْ تدعُو الله تَعالى بصالح أعمالكم . قال رجلٌ منهم : اللهمَّ كان لى أَبوَانِ شيخان كبيران ، وكنت لاأَغْبِق قبْلَهما أَهلاً ولامالاً ، فنأَى بى طلبُ الشجر يومًا فلم أُرحْ عليهما حتى ناما ، فحلبتُ لهما غَبُوقَهما فوجدتُهما نائمَينِ ، فكرهتُ أَن أُوقِظَهما ، وأَن أَغْبِقَ قبلهما أَهلا أَو مالاً فلبثتُ والقَدَحُ على يدى أَنتَظر استيقاظهما حتى برَق الفجرُ ، والصبية يَتَضَاغَون عند قدمىَّ ، فاستيقظا فشربا غَبُوقَهما ؛ اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاءَ وجهك ففرِّجْ عنا مانحن فيه من هذه الصخرة ؛ فانفرجَتْ شيئاً لايستطيعون الخروج منه .

قال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنةُ عمٍّ كانت أَحبَّ الناس إلىَّ ، فراودتها عن نفسها فامتنعت منى ، حتى أَلمَّت بها سَنَةٌ من السنينَ ، فجاءَتنى فأَعطيتها عشرين ومائة دينار على أَن تخَلِّى بينى وبين نفسها ، ففعلتْ ، حتى إذا قدرتُ عليها ، قالت : اتق الله ولاتفُضَّ الخاتَمَ إلَّا بحقه ! فانصرفت عنها وهى أَحبُّ الناس إلى ، وتركت الذهبَ الذى أَعطيتُها ؛ اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاءَ وجْهك ، فافرجْ عنا مانحن فيه ، فانفرجَت الصخرة ، غير أَنهم لايستطيعون الخروج منها .

وقال الثالث : اللهم إنى استأجرت أُجَرَاءَ وأَعطيتُهم أَجرَهم غيرَ رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمَّرتُ أَجرَه حتى كثرت فيه الأَموال ، فجاءنى بعد حين فقال : ياعبد الله أَدِّ إلىَّ أَجرى . فقلت : كلٌّ ماترى من أَجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق . فقال : ياعبد الله لاتستهزىءُ بى ، فقلت : لا أَستهزىءُ بك ، فأَخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً ؛ اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافرُجْ عنا مانحن فيه ! فانفرجت الصخرةُ فخرجوا يمشون » .

روايات أخرى للحديث :

وهنالك روايات أخرى للحديث ، لا تختلف فى مضمونها عن هذه الرواية ، وإنما الاختلاف فى ألفاظ بعض العبارات . رأينا أن نثبتها للحاجة إليها لا سيما ونحن نتعامل مع الألفاظ والعبارات .

١ -- الرواية الأولى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« خرج ثلاثة يمشون فأصابهم المطر ، فدخلوا فى غار فى جبل فانحطت عليهم صخرة ، فقال بعضهم لبعض : ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه ، فقال أحدهم : اللهم إنى كان لى أبوان شيخان كبيران فكنت أخرج فأرعى ثم أجىء فأحلب فأجىء بالحلاب فآتى به أبوى فيشربان ثم أسقى الصبية وأهلى وامرأتى ، فاحتبست ليلة فجئت فاذا هما نائمان ، قال : فكرهت أن أوقظهما والصبية يتضاغون عند رجلى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهما حتى طلع الفجر ، اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج عنهم . وقال الآخر اللهم إن كنت تعلم أنى كنت أحب امرأة من بنات عمى كأشد ما يحب الرجل النساء ، فقالت : لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مائة دينار ، فسعيت فيها حتى جمعتها ، فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فقمت وتركتها ، فان كنت تعلم أنى

فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة . قال ففرج عنهم الثلثين .
قال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنى استأجرت أجيراً بفرق من ذرة فأعطيته
وأبى ذاك أن يأخذ فعمدت إلى ذلك الفرق فزرعته حتى اشتريت منه بقراً
وراعيها ، ثم جاء فقال : ياعبد الله أعطني حقى . فقلت : انطلق إلى تلك
البقر وراعيها فانها لك ، فقال : أتستهزئ بى ؟ قال فقلت : ما استهزئ بك
ولكنها لك ، اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك إبتغاء وجهك فافرج عنا .
فكشف عنهم » .

٢ — والرواية الثانية : روى البخارى ومسلم عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال « بينما ثلاثة نفر يتماشون ، أخذهم المطر . فأووا إلى غار فى جبل . فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل ، فانطبقت عليهم . فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله ، فادعوا الله تعالى بها ، لعل الله يفرجها عنكم . فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران ، ولى صبية صغار كنت أرعى عليهم . فاذا أرحت عليهم حلبت بدأت بوالدى فسقيتهما قبل بنى ، وإنه نأى بى ذات يوم الشجر ، فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب ، فقمت عند رأسيهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أسقى الصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء . . . ففرج الله منها فرجة . فرأوا منها السماء .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد مايحب الرجال النساء وطلبت إليها نفسها ، فأبت حتى آتيها بمائة دينار ، فتعبت حتى جمعت مائة دينار ، فجئتها بها . فلما قعدت بين رجليها قالت : ياعبد الله ، أتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه . فقمت عنها فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة ، ففرج لهم .

وقال الآخر : اللهم إنى كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز ، فلما قضى عمله قال : أعطنى حقى . فعرضت عليه حقه ، فتركه ورغب عنه ، فلم أزل

أزرعه حتى جمعت منه بقراً ورعيتها فجاءنى فقال : اتق الله ولا تظلمنى ، وأعطنى حقى . فقلت اذهب إلى تلك البقر وراعيتها فخذها . فقال : اتق الله ولا تستهزىء بى . فقلت : إنى لا استهزىء بك ، فخذ تلك البقر وراعيتها. فأخذه فذهب به . فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى ففرج الله ما بقى » .

المعانى والتصوير :

هذا الحديث رواه البخارى وغيره فى عدة مواضع ، حسب ماحوى من فضائل وأحكام وفوائد ، من بر الوالدين ، وخشية الله حين استحكام الفتنة ، وإجابة دعاء من اتقاه ، وإكرام أهل طاعته ، وتفريج كرباتهم فى الدنيا والآخرة .

والروايات التى ذكرناها متفقة على قصة ثلاثة نفر وقعوا فى ضيق وكرب ، فتوسلوا إلى الله بأعمال صالحة ظنوها مقبولة عند الله لإخلاصهم فيها ، فقبلها الله ، وأجاب دعاءهم ، وأزال عنهم ضيقهم ، وفرج كربهم .

وهذا التوسل بالأعمال هو خير أنواع التوسل وأصدقها فى إجابة السؤال ، فقال تعالى :

(يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) .

أى القربة إليه بطاعته وطاعة رسوله .

وهذا الضرب من التوسل هو أصل الدين ، بدليل ماجاء فى الآية بعد ذلك :

(وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

أى جاهدوا أنفسكم بكفها عن الأهواء وحملها على التزام الحق فى جميع الأحوال ، رجاء الفوز والفلاح ، والسعادة فى المعاش والمعاد ؛ فان كل جهد يحمله الإنسان فى الدفاع عن الحق والخير والفضيلة فهو جهاد فى سبيل الله .

فالتوسل بالأعمال الصالحة يقدمها العبد والدعاء بها خير وسيلة لتفريج الكروب ، فان الله يجيب دعوة المضطر ، قال تعالى :

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ، أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرون) .

وفى الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : (ما من داع يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ، ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له من الخير مثلها ، قالوا : يا رسول الله إذن نكثر . قال : الله أكثر) .

وقد أرشدنا هذا الحديث الذى نحن بصدده إلى طريق الفلاح ، وصور لنا طاعة الله ، والزلفى إليه بأجمل مظاهرها ، وجلاها فى أبهى حلاها ، على وجه أخاذ يجتذب القلوب إلى التأسى بفاعليها ، وانتهاز الفرصة للحاق بمن استحقوا هذا الثناء وتخليد الذكر بسببها .

والآن تعال نمتع العقل والقلب معاً مع كل قصة من هذه القصص الفنية الرائعة ، التى رواها المصطفى بأسلوبه المعجز الذى لا يكتفى بتصوير الظواهر والمحسوسات ، بل يغوص إلى أعماق النفوس ومكنونات الضمائر ، فيبرزها شاخصة مجسمة نراها رأى العين ، وهى تعج بالحيوية وتضج بالإنفعال .

فما أروع هذا الاستهلال البارع الذى يأخذ بمجامع القلوب والأبصار والأسماع .

(خرج ثلاثة يمشون فأصابهم المطر فدخلوا فى غار فى جبل فانحطت عليه صخرة ..) ، وتعود بنا كلمات هذه العبارة إلى زمان هذه القصة ، وتنقلنا إلى مكانها ، فتلوح لنا عبر الأزمنة المتباعدة ، والمسافات الشاسعة شخوص أولئك الثلاثة وهم يتماشون فى غبطة وسرور ، قد جمعهم الإخاء والصفاء والنقاء ، والمحبة فى الله ، فهم صنف طيب طاهر متجانس فى طبعه وخلقه .

وإن كلمات العبارة لتعيد إلينا المشهد شاخصاً حياً بحيويته وحرارته ، وكأننا نعيش أحداثه الساعة ، فها هو ذا شريط الأحداث المصور ينقل إلينا

منظر هؤلاء الجماعة ، وقد انفتحت أبواب السماء بماء منهمر . فجرت على أثره السيول ، وجرفت الرطب واليابس . وحتى جوامد الصخور وجلاميدها . يا للحيرة إلى أين يذهبون .. إنهم فى منطقة جبلية لا مساكن ولا حياة فيها وهاهو ذا المطر يتدفق بغزارة ، فيملأ السهل والحزن .. هاهى ذى أعينهم تقع على كهف فى بطن جبل . يا للنجاة . ، هاهم أولاء يدخلون — فرحين بهذه النعمة التى أنعم الله بها عليهم فى هذه اللحظة الحرجة — .

ولكن لا يدعنا الحديث نتأمل آثار تلك النعمة عليهم حتى يفاجئنا مفاجأة مذهلة ، فما كادوا يدخلون الغار حتى دحرجت السيول الجارفة صخرة عظيمة سدت فم ذلك الكهف سداً منعياً ، فأصبحوا لا يرون شمساً ولا قمراً .

تأمل سرعة الأحداث وتعاقبها العجيب فى هذا الشريط المصور (خرج ثلاثة فأصابهم المطر فدخلوا فى غار فى جبل فانحطت على فم غارهم صخرة فانطبقت عليه ..) الخ ، انظر الأفعال (خرج — فأصابهم — فدخلوا — فانحطت فانطبقت) .. فكأنه يقول ما إن خرجوا حتى أصابهم المطر الغزير — فدخلوا فى غار فى جبل وما أن دخلوه ولم تهدأ أنفاسهم اللاهثة بعد حتى انحطت صخرة عظيمة على فوهة الغار فسدته سداً منيعاً . فما أقصر هذه اللقطات وأسرعها وكأنها البرق الخاطف . فما تكاد العين ترى خروجهم حتى تراهم وقد حبسوا فى ظلمة ذلك الكهف الذى احتواهم فلا نكاد نسمع لهم ركزا .. ولكن إن اختفت شخوصهم فان العقل والقلب لازال مشدوداً إليهم يود أن يتعرف أخبارهم ، ومادار بينهم من أحاديث وما اعتمل فى نفوسهم وخطر ببالهم من هواجس وأحاديث نفس . فقد اجتمعت عليهم ظلمات وأهوال متعددة ، فهم بين ظلمة الكهف الطبيعية . وازديادها بسد فوهة الغار وحجب الشمس والقمر أن تصل إليه . وبين ظلمة النفس والتى سببتها المخاوف والأهوال الشديدة المزلزلة ، من ذلك أهوال الأمطار التى لا زالت تهطل بغزارة تسمعها آذانهم فى هذه الظلمات الثلاث . وهول الصخرة العاتية التى لا يستطيعون زحزحتها أو حتى رؤية وجه السماء منها ، وهول المكان البعيد عن العمران والسكان ، فلا أحد يرى مكانهم ،

أو يسمع نداءهم ، أو يعثر عليهم ، فقد عفا المطر على آثارهم ، وحجبت الصخرة عنهم العيون ، وحجبتهم عن العيون .

فهم فى هم وغم وكرب شديد لا يقدر قدره إلا الله ، فلا نجاة ، ولا فرج إلا من عند الله . ولا أمل إلا فيه سبحانه ، إذن فاليه يجب أن تتجه الأنظار والألسنة والقلوب ، لأنه وحده الذى يسمع نداءهم ، ويرى مكانهم ، ويقدر على تخليصهم مما هم فيه .

إذن فليبحث كل منهم عن أخلص عمل عمله ابتغاء وجه الله ليتوسل به إليه لعله يفرج به ما بهم من كربات .

وها هو ذا الحديث يصور لنا هذه اللقطة الرائعة والقلوب حائرة والأيدى ضارعة والألسنة لا هجة بالدعاء إلى الله ولسان حالهم يقول : (عفا الأثر ، ووقع الحجر ، ولا يعلم مكانكم إلا الله . ادعوا الله بأوثق أعمالكم) . فلا نجاة إلا بالعمل الطيب لأن الله طيب لا يقبل إلا الطيب . لا نجاة إلا باخلاص العبودية لله والافتقار إليه .

نعم . هذا ما دار فى نفس كل واحد منهم فها هم أولاء يقول بعضهم لبعض كما جاء فى الحديث (فقال بعضهم لبعض) وفى رواية (فقالوا) . وهذا يوحى باتفاق كلمتهم الذى سببه تجانسهم فى ظاهرهم وباطنهم ، وسرهم وعلنهم ، فما قالوه بألسنتهم فى لهجة واحدة هو ترجمة لما فى نفوسهم جميعاً . فلا اختلاف بينهم حتى فى هذه اللحظات التى تضل فيها العقول وتحار الألباب .

فماذا قال بعضهم لبعض يا ترى ؟

قالوا : (ادعوا الله بأفضل أعمالكم) وفى رواية (ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه) .

وفى رواية (انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله ، فادعوا الله تعالى بها ، لعل الله يفرجها عنكم) وفى رواية : (لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم) .

يا سبحان الله ما أكثر تعدد روايات هذا الحديث ، ولكن ما أشد اتفاقها على المعنى المراد ، ومن هنا عمدت إلى ذكرها جميعاً ، فكل واحدة تعضد الأخرى وتقوى معناها ، فلا نجاة إلا بأفضل الأعمال . وأصلحها ، وأخلصها لله ..

فهؤلاء النفر الأخيار الأطهار عرفوا الله فى الرخاء فعرفهم فى الشدة ، أحبوا الله واخلصوا له فى السر والعلن ، فأحبهم الله وابتلاهم بهذا الابتلاء . لأن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، وصب عليهم البلاء صباً حتى يسمع دعاءهم وتضرعهم إليه ، وما هذا الابتلاء إلا للتصفية والتنقية للنفس وتهذيبها وتشذيبها من أدرانها وكل ما علق فيها . كما يفتن الذهب بالنار ليخلص من الشوائب ، ويصبح نقياً صافياً .

وهنا يعرض علينا الحديث نماذج لإخلاص العبادة لله . التى بها ينال العبد الكرامة والمحبة من الله ، فيصبح ولياً من أوليائه الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون .

ومن روائع هذا الحديث الفنية أن يدع أبطال القصة هم الذين يتحدثون ويصورون حالهم وكأنه آلة تسجيل تسجل ما ترى وتسمع ، دون تدخل بذكر يشوش جمال الصورة وبهائها .

فها هو ذا صاحب القصة الأولى يقول : (اللهم إنى كان لى أبوان شيخان كبيران فكنت أخرج فأرعى ثم أجىء فأحلب فأجىء بالحلاب فآتى أبوى فيشربان ثم أسقى الصبية وأهلي وامرأتى ، فاحتبست ليلة فجئت فاذا هما نائمان ، قال : فكرهت أن أوقظهما والصبية يتضاغون عند رجلى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهما حتى طلع الفجر ، اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء . ففرج عنهم) .

إذن صاحب القصة الأولى المثيرة (راعى غنم) ، يقضى سحابة يومه من وقت السحر إلى غسق الليل فى كد وكبد ، فهو يتنقل بأغنامه طوال يومه من مكان إلى مكان ، يلتمس لها المرعى الخصب ، والكلاء والعشب ، وهو مسئول عن رعيته ، عليه أن يرعاها حق رعايتها ، ويحرسها ويسوسها ،

ويرد أولاها على أخراها ، ويداوى مرضاها ، ويدفع عنها الأذى والضرر ، فكلما افتقر المرعى ونضب الماء ، سارع إلى مكان آخر فيه الخضر والشجر مهما بعد المكان وتنأى عن مقر إقامته .

وها هو ذا يخرج من الصباح الباكر فى يوم الأيام — كعادته — فيجد المراعى القريبة قد أجدبت وأتى الرعاة على ما فيها من ماء وكلاء ، فيأخذ فى البحث عن مرعى جديد ويجد فى البحث حتى يتطوح به السير وينأى به طلب الشجر ويبعد كما تقول بعض الروايات : (فنأى بى طلب الشجر يوماً) أو (وإنه نأى بى ذات يوم الشجر ، فلم آت حتى أمسيت) ..

وبطل قصتنا هذا رجل طيب يقدر المسئولية ، فهو يرعى رعيته كلها ويؤدى حق الله بكل طاقته وجهده . فكان من عادته أن يتعهد أبويه الشيخين الكبيرين بالرعاية والعناية والتكريم ، والاهتمام بهما أكثر من الأهل والولد إعترافاً بفضلهما وإحسانهما إليه .

وقد ذكر لنا فى قصته أنه فى كل ليلة بمجرد عودته يسارع إلى حلب أغنامه وتقديم اللبن إلى والديه حتى يشربا ثم يسقى أهله وأولاده بعدهما .

وفى ذات ليلة تأخر فى عودته بسبب بعد المرعى ، فلما عاد وجد الشيخين قد غلبهما النعاس فناما دون أن يتناولا طعامهما الذى يقدمه إليهما فى كل ليلة كعادته قبل أبنائه وأهله .

وهنا يبدأ الصراع العنيف المتعدد الجهات والجبهات فى داخل نفس الراعى وخارجها ، ولا تسل عن هذه المعركة الرهيبة ، التى تدور رحاها فى النفس فتصطلى بلظاها .

فما أعجبها وأصعبها من معركة تتخذ من النفس البشرية ميداناً لها ، ومن غرائزه الفطرية المختلفة ، وميوله الإنسانية ، جنوداً يقاتل بعضهم بعضا ..

نعم إنها معركة وأى معركة . فالإنسان بما ركب فيه من غرائز وشهوات ، وميول ورغبات ، وبما وهبه الله به من نعمة الإيمان والعقل ،

وبطبيعة تكوينه العجيب الأرضية الربانية ، كل هذا يجعل المعارك النفسية أشد بكثير من المعارك الحربية ..

وقد صورت ألفاظ الحديث الدقيقة المصورة لمعناها تلك المعركة التى دارت فى أعماق ذلك الراعى ، حيث تصارعت غريزة الأبوة مع غريزة البنوة ، فاشتدت المعركة بين الاستجابة للطاعة الأبوية الواجبة ، بما فيها من رد للجميل واعتراف بالإحسان ، وتقدير للضعف المستحكم فى أبويه ، وبين ميله الفطرى نحو أبنائه الصغار الذين يتصايحون تحت قدميه كالصيصان وصغار الطير . . وبين زوجة أثيرة تتمزق ألماً لما ترى عيناها وتسمع أذناها من حال صبيتها الذين يصرخون ويستغيثون من آلام الجوع المبرح .

نعم إنها معركة عجيبة رهيبة ، صورتها ألفاظ موحية معجزة فأخرجت المعنى المجرد فى مظهر الأمر المحسوس الملموس ، ومكمن الأعجاز فى ذلك ، أن الألفاظ ليست إلا حروفاً جامدة ذات دلالة لغوية على ما أنيط بها من المعانى ، فمن العسير جداً أن تصبح هذه الألفاظ وسيلة لصب المعانى الفكرية المجردة ، فى قوالب من الشخوص والمحسوسات ، تتحرك فى داخل الخيال كأنها قصة تمر أحداثها على مسرح يفيض بالحياة والحركة والمشاهدة الملموسة .

لقد استحالت تلك الألفاظ النبوية المنتقاة إلى ريشة يسيل من رأسها الأصباغ والألوان والخطوط ، فتعرض صوراً رائعة كاملة فى تنسيقها وتناسقها كأكمل وأتم ما يكون التصوير الفنى البديع .

فقد نقلتنا عبارة هذه القصة (قصة الراعى) إلى معرض من المعارض الفنية التصويرية الرائعة ، بل قل إلى شريط سينمائى متحرك ، فالعين ترى والأذن تسمع ، والنفس تحس وتتأثر ، وتنفعل .. الخ .

فتعال نتأمل ذلك ، ونمتع أبصارنا ، وقلوبنا بما نرى ونحس ونسمع ، ونتفاعل ونتأثر ... فها هو ذا الرجل الصالح قد عاد من عمل يومه المضنى ، فيسارع إلى حلب أغنامه وتقديم اللبن طازجاً لوالديه الكبيرين قبل صبيته ،

ولكنه يفاجأ بأن يجد والديه قد ناما، وإلى جانبهما صغاره يتصايحون من شدة الجوع ، وإلى جوارهم والدتهم تعللهم بعودة أبيهم بالطعام والشراب .

وهنا نرى ونسمع العجب العجاب . فقد كان من الطبيعى فى مثل هذه الحالة أن يقدم الحليب للأطفال الصغار الذين لاقدرة لهم على احتمال آلام الجوع ولا عقل عندهم يدرك المعنى الكريم الذى ذهب إليه والدهم بايثار والديه عليهم ؛ ولكننا نرى رجلا عجيباً اتخذ لنفسه عادة طيبة فاستحكمت فيه ، وأصبحت جزءاً منه ، وأصبح جزءاً منها ، فلا يستطيع منها خلاصاً ، ولا تستطيع هى له فراقاً فقد حكى الحديث لنا عادة ذلك الرجل بقوله : (كنت أخرج ، فأرعى ، ثم أجيء فأحلب ، فأجيء بالحلاب فآتى به أبوى فيشربان ثم أسقى الصبية وأهلى وامرأتى) .

هذه هى العادة العجيبة التى تدل على سمو فى النفس ، وعلو فى الهمة ، وصدق فى الإرادة ، وتصميم فى العزيمة ، فالمرء وإن أحب والديه وبالغ فى محبتهما فإن محبته لابنائه أغلب على طبعه . تجد محبة الآباء مبناها الوفاء ، ومحبة الأبناء مبناها الرجاء ، وهل الأمر بينهما على حد سواء ؟ .

نعم إن المرء يحب أبويه ويكرمهما ويبالغ فى تكريمهما ، ولكنه ينظر إلى ذلك نظر المرء إلى ما يجب عليه ويكلف حمله وأداءه ، لا نظر الغبطة والابتهاج الذى يشمله حينما يغدق على أبنائه ويرفه لهم العيش ..

سأل بعض الناس : إنى ألى من أبوى الآن ما كانا يليانه منى فى الطفولة : أفأكون وفيتهما كل حقهما ؟ فقال : لا ، لأنك تفعل ذلك وأنت تحب أن يموتا ، وكانا يليان ذلك منك وهما يحبان أن تعيش ..

وسئل بعضهم : لماذا نحب أبناءنا أكثر مما يحبوننا ؟ فقال : لأنهم قطعة منا ولسنا قطعة منهم .

ولهذا فقد أوصى الله تعالى الأبناء بالآباء فى كثير من الآيات وشدد فى الوصية – لا سيما وقت الشيخوخة ، ولم يوص الآباء بالأبناء بمثل ذلك اعتماداً على أن حب الأبناء أمر فطرى ودافع غريزى لا يحتاج إلى تذكير أو ترغيب أو ترهيب .

ومن هنا تدرك أبعاد هذه المعركة الوجدانية الهائلة التى تجد فيها هذا الابن الأب يتغلب على عاطفة البنوة التى ملأت قلبه نحو أولاده وفلذات كبده ، لقد انتصرت فى هذه المعركة المحتدمة عاطفة الأبوة المبنية على عرفان الجميل الماضى ، ومراعاة الشيخوخة المتهدمة ، والضعف الذى لا يحتمل معه تأخير عشاء . انتصرت هذه العاطفة على البنوة ، فياعجباً كيف تنتصر ؟ ..

ثم تعال ننظر إلى هذا الرجل العجيب وهو يضحى براحته ، ويضيف إلى كده طوال يومه ساهراً واقفاً متحيراً طوال ليله ، يتقطع قلبه لأطفال صغار يتضاغون من الجوع تحت قدميه واللبن فى يديه .

إنه موقف رهيب ، يذيب جلاميد الصخر . ولكنه يظل واقفاً يواجه الصراع من داخل نفسه وخارجها ، ويقاوم الإعياء الجسدى والعذاب النفسى ، عيناه مثبتتان على أبويه ، وأذناه لا تسمعان صياح أطفاله ، وضراعة زوجة وانتحابها .

يا له من موقف عصيب ، ورجل عجيب ، فما عليه لو أيقظ والديه ، وأراح نفسه من هذا العناء ولو بعد الوقت الذى يظن أنهما أخذا حظهما فيه من النوم ؟ وماضر لو أعطى صبيانه شيئاً من هذا اللبن فيشربانه ولو هذه المرة قبل والديه . وهل عليه من جناية لو كان جلس عند رأس والديه بدل هذا الوقوف الطويل واللبن بين يديه ؟ ..

ويبدو أن بطل قصتنا قد أراحنا من تكلف الإجابة ، فها هو ذا يقول : (كنت أخرج فأرعى ثم أجيء ، فأحلب ، فأجيء بالحلاب فآتى به أبوى فيشربان ثم أسقى الصبية وأهلى وأمراتى ، فاحتبست ذات ليلة فجئت فإذا هما نائمان ، قال : فكرهت أن أوقظهما والصبية يتضاغون عند رجلى ، فلم يزل ذلك وأبى ودأبهما حتى طلع الفجر .

فتأمل السبب : (فكرهت أن أوقظهما) ، وفى رواية (فقمت عند رأسيهما أكره أن أوقظهما من نومها ، وأكره أن أسقى الصبية قبلهما) ، وفى رواية (فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما ،

وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح فى يدى انتظر استيقاظهما. حتى برق الفجر ، والصبية يتضاغون عند قدمى ، فاستيقظا فشربا غبوقهما).

فواضح من هذه الروايات المتقاربة أن سبب كراهته ايقايظهما مخافة أن يسبب لهما الأرق على ماهو من عادة الشيوخ إذا أوقظوا بعد هجعة ، ولأن الإنسان يتأذى عادة لإيقاظه من نومه قبل أن يستوفيه ، وكراهة أن يدعهما خشية أن « يستكنا لشربتهما » أى أن يضعفا بسبب العشاء كما هو شأن الهرم الضعيف .

كما جاء فى رواية أخرى (فكرهت أن أوقظهما وكنت أن ادعهما فيستكنا لشربتهما)[1] .

فياله من مؤمن مرهف الحس ، إذ أبت عليه شفقته إلا أن يلمح أنهما قد يتأذيان من الإيقاظ قبل أن يستوفيا قسطهما من النوم ويستقيظا بأنفسهما ، وأنه قد يند عنهما النوم بعد ذلك فلا يجد السبيل إليه ، فيكون قد اساء إليهما أكثر مما أحسن .. أما صبيته وبكاؤهم تحت قدميه من الجوع فأمر هين ، فالأطفال مرحون بطبعهم ، وما هو إلا أن يسقيهم حتى ينسوا كل شىء ، وفى طبيعتهم قوة التحمل ..

وتأمل روعة هذا التنسيق والتناسق ، بين الكلمات والعبارات فى هذه القصة ، فكل كلمة ترسم فى الفكر والخيال صورة بيانية كاملة فى روعتها، ورقة تصويرها ، بل إن كل كلمة لها صورة بيانية أخرى فوق الاعجاز الذى جاء من حركة وترتيب الأفعال وتعاقبها فى نظام عجيب ، وتسلسل منطقى بديع .

فانظر حروف العطف المستعملة فى هذه الأفعال المرتبة ترتيباً زمانياً دقيقاً : (كنت أخرج فأرعى ثم أجىء فأحلب فأجى بالحلاب فآتى به أبوى فيشربان ثم أسقى الصبية وأهلى وامرأتى ..) .

فتأمل كيف قسم عمل يومه الذى يبدأ بالخروج فقال : (كنت أخرج فأرعى ثم أجىء) ، هكذا فى ثلاث كلمات ينتهى شريط عمل يومى مضنى

(١) الاستكانه : تعنى الضعف .

شاق ، فقد ذكر ثلاثة أفعال (الخروج) و (الرعى) ، و(العودة) وهى مرتبة كالآتى (أخرج – أرعى – أجىء) وهى معطوفة بعضها على بعض بحرف العطف الفاء حيث عطف الرعى على الخروج ، وهو مناسب للمقام حيث يفيد الترتيب والتعقيب السريع ، ثم عطف فعل العودة على الرعى بحرف العطف (ثم) الذى يفيد الترتيب على التراخى والتباعد ما بين المتعاطفين . وهذا مناسب تماماً ، فقد خرج الراعى بغنمه من أول اليوم ولم يعد إلا آخر النهار ، فكان الأنسب استعمال هذا الحرف (ثم) لتباعد زمن الخروج وزمن العودة .

ثم يحدثنا الراعى الكريم عن بقية أعماله بعد عودته ، وهى كثيرة ومتعددة ومتوالية فيقول (فأحلب فأجىء بالحلاب فآتى به أبوى فيشربان ...) فهنا نجد حرف الفاء الذى يفيد الترتيب والتعقيب والسرعة هو الذى احتل الصدارة واستعمل دون غيره . فبمجرد عودته (ثم أجى فأحلب) يسارع فيحلب دون أدنى تأخير ، كأن يأخذ حظاً يسيراً من الراحة ، أو يتحدث إلى زوجه وأولاده ، لا بمجرد وصوله يسارع إلى الحلب بنفسه ، وبمجرد الانتهاء من الحلب يقدم الحليب إلى والديه مباشرة ، فيشربانه طازجاً ، فما بين وصوله وتناول الحليب إلا لحظة واحدة كأنها البرق الخاطف فلا تكاد تراه يصل إلى منزله حتى ترى الحليب طازجاً بين يدى والديه .. وكأن هذه السرعة فى هذه الأعمال المقصود منها إيصال الطعام إلى والديه بأقصى سرعة ممكنة مبالغة فى عنايته وتكريمه لهما .

ثم قال بعد ذلك (ثم أسقى الصبية وأهلى وامرأتى –) فما أروع استعمال حرف العطف (ثم) فهو من أسرار هذه الجملة وروعتها البيانية ، وهو المعبر أصدق تعبير عن مقصد هذه القصة ، وهو سر عظمتها وروعتها .

فما أسرع ذلك الرجل الطيب فى تقديم اللبن إلى والديه ، وما أطول مكثه واقفاً بين يديهما يشربان على مقتضى راحتهما فى هدوء وبطء دون استعجال لهما لكى يأخذ الصبية نصيبهم ، فبعد أن يأخذا حظهما كاملا فيشربا هنيئاً مريئاً ما شاء الله لهما أن يشربا ، ثم يستريحا ويأخذا أنفاسهما ثم يشربا ثم يستريحا حتى يكتفيا تماماً دون استعجال لهما ، فبعد إعطائهما فرصتهما التامة

فى هدوء وراحة بال يقول : (ثم اسقى الصبية ..) وبقية الرعية ، فإذا فرغ الصبية شرب الأهل ، ثم الزوجة .

فتأمل كيف شاركت الأفعال مشاركة عظيمة فى تصوير أحداث هذه القصة العجيبة تصويراً دقيقاً محكماً .. فأنت أمام لوحة زيتية فنية رائعة تناسقت فيها الخطوط والألوان والظلال والإطار ، فالصورة من الإطار والإطار من الصورة ، بل إنك أمام شريط مصور متحرك ترى بعينيك وتسمع بأذنيك ، وتتفاعل بوجدانك ، فلا تملك إلا إظهار دهشتك لما ترى وتسمع . فها أنت ذا تسمع ذلك الرجل العجيب وهو يقول فى نهاية قصته بأدب جم مع مولاه عز وجل ، حيث رد كل شىء إلى علمه سبحانه حتى نيته ومقصده ، لأنه أعلم به من نفسه ، فهو الذى يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فلا يزال صدى كلماته ودعواته الطيب يتجاوب فى الآفاق إذ يقول : (اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء) ..

يا الله .. إنها لإحدى الفضائل العظمى التى لا تصدر إلا من قلب ملأته خشية الله وتقواه ، وحق لمن هذا شأنه أن يرعاه الله ، ويجعل له من كل ضيق مخرجا ، ومن بعد عسر يسرا ، إن نفساً واحدة كهذه بين رعاة الغنم لتحمل النفوس على احترام طائفة بأسرها ، ولكن من هذا وقد كان من بينهم خيرة الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام .

نعم : لقد استجاب الله لدعوة هذا الراعى ، فكشف الله عنهم بقدر ما طلب حيث قال فى دعوته (فأخرج عنا فرجة نرى منها السماء) ويقول الحديث : (ففرج الله عنهم فرجة ، فرأوا منها السماء) وفى رواية : (ففرج عنهم) وفى رواية أخرى (فانفرجت عنهم شيئاً يستطيعون الخروج منه) .

وإن مثل هذا الراعى ليدخل فى مضمون قوله صلى الله عليه وسلم : (رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره) . ولله فى خلقه إرادة ، فلقد كان قادراً على أن يكشف الباب جميعه ، ولكنه أراد أن يوجه

كل من الثلاثة قلبه نحو خالقه ، ويمنحه شطراً من كرامته ، حتى يتبين للناس إكرام الله لأهل طاعته ، جعلنا الله منهم . .

ثم الى صاحب القصة الثانية وهو يقول : (اللهم إن كنت تعلم إنى كنت أحب امرأة من بنات عمى كأشد ما يحب الرجل المرأة ، يتدله فيها ويهيم بها ، ويسأل عنها ضوء الكواكب ويستنشق منها ريا النسيم ، تتطاول به السنون ، وهو يعلل النفس بما يكون أو لايكون ، ثم تسعفه الفرصة ، ويكاد يبل تلك الغصة ، أصابتها سنة قحط فلوت قيادها ، وألانت عنادها ، فجاءته تزجيها الحاجة ، وتعلوها الذلة ، فطلبت إليه مع ذلك شططا : طلبت مائة دينار فى تلك السنة المجدبة ، ليس معه منها درهم ، ويقول : (فسعيت حتى جمعتها) وفى رواية : (جمعت لها عشرين ومائة) ، وفى رواية : (وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار ، فتعبت حتى جمعت مائة دينار ، فجئتها بها) ، وفى رواية أخرى : (فراودتها عن نفسها فامتنعت مى ، حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى فاعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها) .

فياسبحان الله ما أشد سلطان الحب : يخلق من الجبان أسداً ، ومن الضعيف مارداً .

فها هو ذا يعود إليها بعد أن أجهد التجوال فى البلاد ، والأقطار والأمصار ، وقد جمع لها ما طلبت وزيادة ، فينقدها الدنانير الكثر ، ليصل إلى ذلك الأمر . وها هى ذى الفريسة قد استسلمت للصائد ، ولانت عريكتها ، ولكن خشية الله ومراقبته لم تتخل عنها . الله أكبر ، الله أكبر : إن مجرد همسة الرجل فى إذن المرأة وقوله لها أحبك ، تعمل فى نفسها عمل السحر ، وتملأ قلبها بالأمل بعد الأمل فتسيطر عليها عاطفتها ، وتتخلى عن عقلها ، فكيف ببطلة قصتنا وصاحبها هو ابن عمها يقضى الأيام الطوال فى محراب حبها ، يترضاها ويتدلها ، ويبدو لها منه ما هى أدرى به ، تتحداه بالمرهق المعجز فى السنة الجدباء ، ولكنه يتحدى المستحيل ، ويتجاوز الصعاب ، فيحضر لها ما أرادت ، برهاناً على صدق الوداد . . وهل كانت تلك الفتاة إلا فتاة لها حظ فى الرجل كحظه منها ؟ .

ها هى ذى أمامك تعال فانظر إليها، كما صورتها ألفاظ الحديث الموحية المصورة إنها فى تلك الساعة الرهيبة ، التى يعجز القلم عن وصفها تدركها خشية الله ، فترتعد وتبكى ، وتذكر ابن عمها وعشيقها بالله ، وإنه معها يسمع ويرى ، وأنه محاسبهما على تعديهما حدوده ، وإننا لنكاد نسمع صوتها المتحشرج ، وأنفاسها اللاهثة ، وعباراتها المضطربة ، وكلماتها المتعطفة المتكسرة، بل إننا لنكاد نرى منظرها واضطراب حالها ورعشتها ، والنيران تضطرم بين جوانحها ، وقلبها الصغير تصطرع فيه العواطف المختلفة فهى بين رغبة جامحة ، وبين خشية من الله مغرطة ، فصوت العقل يناديها : اتق الله فإنه يراك، ونداء العاطفة الهوجاء يستصرخها أن تصم أذنيها أمام صيحات العقل ونداءته . . ياله من موقف رهيب عصيب، ها هو ذا ابن عمها وعشيقها ومنية نفسها قد وفى بكل ما طلبت منه ، وبه من العواطف ما بها وأشد ، وقد تمكن منها تماماً كما تصور ذلك عبارة الحديث : (فلما قعدت بين رجليها . .) . ولكننا لا نكاد نلمح هذا المنظر حتى تنتهى رؤيته كأسرع من لمع البرق ،فها هى ذى تلك المخلوقة العاطفية الرقيقة تثور كالبركان، وتزأر كالأسد ، وتنتفض كالطود الشامخ ، وتجأر بأعلى صوتها الذى لا زال يتردد فى الآفاق عبر الأزمان والمسافات : (ياعبد الله ، اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقة . .) . . .

الله . الله . الله ، يا لك من مارد جبار ، ما أروع الإيمان ، ومن أعظم من ذاق طعمه ، ووجد حلاوته ، فإنه موصول بالقوة العظمى التى لا تذل ولا تقهر . .

المرأة المعروفة برقتها وعاطفتها تقول للرجل القوى العنيف والدم يغلى فى عروقه فى مثل هذه الساعة الرهيبة : (اتق الله ، ولا تفض الخاتم إلا بحقه) . .
وها هو ذا أيضاً تلحقه الخشية ، وتحوطه تقوى الله ، ويتذكر حين ذكرته فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، فيقول فى نفسه : هذه تخاف الله فى الشدة ولم أخفه فى الرخاء ، فو الله لن تكونى أتقى وأخشى منى لله ، فيمده الله بعونه ، وتأييده ، فينصرف عنها ، وتنصرف عنه ، وهما طاهران نقيان تقيان :

فما أروعهما وأعظمهما من مثالين رائعين فى دنيا الشباب ، والحب ، وما أجمل العفة والانكفاف عن الحرام مع القدرة ، وما أحرى الشباب بالتزود بتقوى الله ومراقبته فى السر والعلن ، حتى ينالوا رضوانه وجناته التى أعدها لمن خافه واتقاه .

(وأمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ ربِّه ونَهَى النَّفْس عن الْهَوى فَإنَّ الْجنَّةَ هِيَ المأْوى) . (ولِمنْ خَافَ مقَام ربِهِ جنَّتَانِ) . (قَدْ أَفْلَحَ منْ زَكَّاهَا وقدْ خابَ منْ دسَّاهَا) .

ولم يكتف ذلك الشاب العفيف الطاهر بكبح جماح نفسه ، وزجرها ، وردها إلى الله ، بل أردف ذلك بمنة عظيمة أخرى فترك لصاحبته المائة دينار التى طلبتها ، ونفلها عليها عشرين ديناراً أخرى كما جاء فى بعض الروايات وهذا انتصار آخر على رغائب النفس ومحبوباتها فقد جبلت النفس البشرية على حب النساء والمال والبنين والقناطير والمقنطرة من الذهب والفضة .. الخ فالإنسان يحب المال حبا جماً ، ويحرص عليه حرصاً شديداً، لا سيما ذلك المال المكتسب بكد اليمن ، وعرق الجبين ..

فهذا الشاب العظيم ترك للمرأة الذهب الذى أعطاه إياها ، فأضاف إلى النفع القاصر النفع المتعدى ، لا سيا وقد كانت بنت عمه ، فتكون فيه صلة رحم أيضاً .

هكذا انتصر الشاب انتصاراً باهراً فى معركتين عظيمتين : معركة الشهوة إلى الجنس ومعركة حب المال والحرص عليه . وقد انتصر فيهما على نفسه وشيطانه بسلاح الإيمان والتقوى وخشية الله التى امتلكت قلبه . مع أن للشيطان فى مثل هذه الحال لجولات وصولات ، ولكن الشيطان لا سلطان له على عباد الله المخلصين . فاللهم إنا نعوذ بك من الشيطان والهوى . فإنه لا توفيق إلا توفيقك ، ولا معصوم إلا من عصمت ..

وهاك القصة الثالثة (قصة الأجير) : وهى قصة فريدة عجيبة حقاً ، تعبر عن النفس البشرية بما فيها من خير وشر .. فترى الأجير فى تلك القصة

طماعاً حسوداً ، يحسد الناس على ما آتاهم من فضله، ويدفعه حسده وشراهته إلى أن يحسد من عمل نصف يوم مثل عمله فى يوم على أن يأخذ مثل أجره . فيذهب به الغضب والحسد ، فينصرف مغاضباً رافضاً أخذ أجره ، وتدل القصة أن الحسد قد امتلك عليه نفسه ، فقد ظل قلبه يغلى حقداً ويفور غيظاً على المالك الذى أعطى زميله مثل أجره ، ولو فكر قليلا ، وكان لسلطان العقل عليه سبيلا ، لما غضب مطلقا ، فلا حرج على المالك لو أعطى الناس جميعاً بلا مقابل ، ولكن الحسد والحقد يستولى على قلبه ، فتأبى عليه نفسه العودة إلى المالك ليأخذه أجره إلا بعد مرور السنين الطوال ، كما دل سياق القصة على ذلك ، فقد زرع المالك فرق(١) الذرة أو القمح ونماه واشترى من غلته بقراً وراعيها ، وإبلا وراعيها ، وغنما وراعيها ، ولن يأتى ذلك فى عام أو عامين طبعاً . .

فما أشد أمانة ذلك المالك ، وأعظم خشيته وتقواه لمولاه ؟ فقد جعل من نفسه أجيراً وخادماً لذلك الأجير ، فهو الذى يزرع وهو الذى يحصد ، ويعاود الزرع والحصاد، ويشترى ويتعهد أموال ذلك الأجير بنفسه، ويحرص على نمائها وزيادتها بكل ما أوتى من جهد ، وقد بارك الله له فى جهده ، وحسن نيته .

فها هو ذلك الأجير الغاضب المحتج على المالك يجىء بعد سنين يطلب أجره، وما كان يظن أن المالك لا زال يذكره ويذكر ذلك الأجر اليسير بعد مرور الأيام والأعوام ، وقد مر عليه مئات الأجراء ، ولو شاء المالك لتجاهله وأنكره، ولو سمحت نفسه وأعطى الأجير أجره بعد كل الذى حدث منه لكان جميلا منه ، وعملا يدل على كمال أمانته ، وصدقه ، ولكنه امتحن الله قلبه للتقوى فوفقه لزراعة وتنمية غلته حتى اشترى منها بقراً وراعيها ، وإضافه إليها إبلا وغنما، فأصبح مالا وفيراً ورزقاً كبيراً، ومتى تبتلى النفوس بالشح إلا حينئذ ؟

---

(١) الفرق : ثلاثه أصيع من ذره أو أرز أو غيرها .

وها هو الأجير جاء راضياً بأخذ الفرق الذى استحقه على عمل يومه، وما كان يطمع فى غيره، بل إن لهجته فى طلبه لتدل هذه المرة على أنه غير واثق من حصوله عليه، فها هو ذا يقول : (ياعبد الله اعطنى حقى) ، وفى رواية : (اتق الله ، ولا تظلمنى ، واعطنى حقى) . وفى رواية (ياعبد الله اد إلى أجرى) فكان أقصى ما يصل إليه طموحه هو أن يقول له المالك: خذ أجرك . . ولكنه يفاجئه مفاجأة مذهلة وهو يقول له : (انطلق إلى تلك البقر وراعيها فإنها لك ؛ فقال : اتستهزىء بى ؟ قال : فقلت : ما استهزىء بك ولكنها لك) : وفى رواية (كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق : فقال : عبد الله لا تستهزىء بى ، فقلت : لا استهزىء بك ، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً) .

وفى رواية : (اذهب إلى تلك البقر وراعيها فخذها . فقال : اتق الله ولا تستهزىء بى . فقلت : إنى لا استهزىء بك . فخذ تلك البقر وراعيها ، فأخذه فذهب به) .

ونلاحظ أن الرويات على اختلافها قد اتفقت وأجمعت على دهشة الأجير وشدة استغرابه لما سمع من مقالة المالك حتى ظنه يسخر منه ويهزأ من طلبه بأن ينكر عليه أجره الصغير ؟ .

وحق له أن يقول : (أتستهزىء بى) وهل يظن هذا إلا أنه استهزاء به ؟ جاء يطالب بفرق ذرة أو أرز بعد عشرات السنين ،وقد ذهب مغاضباً رافضاً له ، فيقول له المالك : استق هذه النعم برعاتها ويصر على أن الأمر جد لا هزل ، ولا سخرية فيه ولا استهزاء ، ولكن الأجير لا يكاد يصدق ما تسمعه أذناه، وما تراه عيناه، ويكاد يجن جنونه، وهو يرى هذه الماشية والأموال الكثيرة تصبح ملكاً له ، فيصير مالكاً كبيراً بعد أن كان أجيراً صغيراً، ولذا فلا غرابة من تكراره هذه العبارة : (ياعبد الله اتق الله ولا تستهزىء بى) ورغم أن المالك الأمين يؤكد أن الأمر جد وأنها له ، ويقول إنه لا يستهزىء بالأجير : (ما استهزىء بك ولكنها لك) إلا أن الأجير فى شك من أمره مريب .. أكل هذه الأبل وهذه البقر وهذه الغنم برعاتها له ؟ ؟ ؟ . .
ومن أين له هذا ؟ وكيف كان ؟ وكل ما له قليل من الأرز أو الذرة ؟ ؟ . .

ولكن المالك الأمين التقى النقى يشرح للأجير الموقف ويهدىء من روعه ، ويزيل دهشته واستغرابه ، فلا يقول له : لقد منحتكها ، أو تصدقت عليك بها ، إنه يأبى أن يقول ذلك ، ولكنه يؤكد فى صدق : أنا لا استهزىء بك ولكنها لك .

فهو أمين يخشى الله ولا يريد من الناس جزاء ولا شكوراً ، إنه يدخر ذلك ليوم تشخص فيه الأبصار إلى الله ، وتبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها . . فهو لا يقبل أن يظهر نفسه أنه صاحب جميل فيما أعطى ، بل يقول إنه أخذ وديعة فحفظها وصانها ونماها ، وردها لصاحبها وكفى . . .

فهذه هى الأمانة حقاً وصدقاً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وبعد : فإن هذا لهو القصص الحق ، يبين لنا المصطفى عليه الصلاة السلام ، سبيل الهدى لنسلكه ، ويبين لنا سبب الخير لندركه ، ويصور لنا روح الطاعة لنتحلى بها ، ويحمل لنا سبب الزلفى لنتعلق بسببها .

وهكذا نقل إلينا الحديث هذه الحقائق والإرشادات السليمة بأسلوبه القصصى المشوق الذى يقنع العقل ، ويمتع العاطفة ، ويدخل إلى النفس من منافذ شتى . فقد أتى الحديث بأسلوبه البيانى المعجز بالحقيقة الناصعة ، وبالمتعة الوجدانية الطيبة ، فتسجل النفس احساسها بما فى الأشياء من لذة وألم . فهو قادر على أن يخاطب العقل والقلب معا بلسان ، وأن يمزج الحق بالجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان .

وهذه عجيبة من عجائب الأسلوب النبوى الشريف لا تجدها فى كلام غيره من البشر . . فإنك لتقرأ الحديث فترى الجمال اللغوى ماثلا أمامك فى ألفاظ من الشفوف والملاسة ، ودقة التصوير ، وجمال التعبير عن المعانى ، ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها فكأنه لا يسمع كلاماً ولغات بل يرى صوراً ، وحقائق ماثلة .

فاللهم صلاتك وتسليمك على من هذا كلامه . .

حبائل الشيطان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إيَّاكُمْ والظَّن ، فإن الظَّن أكذَبَ الحديث ، ولا تحسسوا ولاتجسسوا ، ولاتحاسدوا ، ولا تَدابَرُوا ، ولَا تَبَاغَضُوا ، وكونوا عِباد الله إخْوانا ، كما أَمركمْ الله تَعالَى ، المسلم أَخُو المسْلم لايسلمه ولايظْلِمه ، ولا يخذله ، ولايحْقِره ، يحسب امرئ من الشَّر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسْلم حرام دمه وَمالَه وعِرْضِهِ . إن الله لَا ينْظُر إلى أَجْسادكُمْ ولا إلى صُوركمْ ، ، ولكِن ينظر إلى قُلُوبكم وأعمالكم ، التَّقْوى هَاهُنَا ، التقوى هَاهنا (ويشير إلى صدره). رواه البخارى .

رواية أخرى للحديث :

وهنالك رواية أخرى فى صحيح مسلم : (إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب ، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكتنىء ما فى صفحتها ، فإن الله عز وجل رازقها .

المعانى والتصوير :

اشتمل هذا الحديث على آداب سامية وتوجيهات عالية لتحفظ على المجتمع وحدته ، وعلى الأخوة رباطها ، ولتسلم الصدور وتصفو النفوس بالبعد عن الإيذاء والترفع عن الإيلام . فهذا الحديث يحذر المؤمنين طائفة من الأعمال التى تعد عوامل إفساد لإيقاع العداوة والبغضاء بين أبناء الأمة الواحدة ، والواجب عليهم دائماً أن يكونوا فى وحدة ومحبة وأخوة : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) .

ويبدأ الحديث بالتحذير من الظن والنهى عنه، فيقول : (إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث . .) . والظن اسم لما يحصل عن أمارة ومتى قويت أدت إلى العلم ، ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز حد التوهم ، ومتى قوى أو تصور القوى استعمل معه أن المشددة وأن المخففة منها . . ومتى ضعف استعمل أن وأن المختصة بالمعدومين من القول والفعل .

والمراد هنا التهمة التى لا سبب لها ، أو الشك الذى يعرض للإنسان فى الشيء فيعتمد فى الحكم على ذلك الشيء، كما يتهم رجلا بالفاحشة من غير أن يظهر عليه ما يقتضيها ، أو دون دليل أو برهان . ولذلك عطف عليه قوله : (ولا تجسسوا) وذلك أن الشخص يقع له خاطر التهمة فيريد أن يتحقق فيتجسس ويبحث ويسمع ، فنهى عن ذلك .

ومن هنا قيل إن المعنى هو : (إياكم وسوء الظن وتحقيقه) .

وقد قرر العلماء أن الظن فى كثير من الأمور مذموم ، ولذلك قال تعالى : (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً) وقوله (وأنهم ظنوا كما ظننتم) .

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم الظن بأنه أكذب الحديث، والمراد بالحديث حديث النفس ، لأن كل ظان يحدث نفسه بما ظنه ، وحينئذ يتخيل مالا حقيقة له ، ويتوهم ما لا وجود له .

وكلمة الحديث تؤدى معنى أشمل من حديث النفس ، فهو كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى يقظته أو منامه، يقال له حديث ، قال عز وجل : (وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً) وقال : (وعلمتنى من تأويل الأحاديث) ، أى ما يحدث به الإنسان فى نومه . . وقال عليه الصلاة والسلام : (إن يكن فى هذه الأمة محدث فهو عمر) وإنما يعنى ما يلقى فى روعه من جهة الملأ الأعلى شيء ، وقوله عز وجل :

(فَجعَلْنَاهمْ أَحاديثَ) ، أَى أَخبارًا يُتَمَثَّلُ بهم .

وتأمل سر وصف الظن بأنه أكذب الحديث؟ مع أن تعمد الكذب الذى لا يستند إلى ظن أصلا أشد من الأمر الذى يستند إلى ظن ؟

وإننى — اعتقد — أن ذلك للإشارة إلى أن الظن المنهى عنه هو الذى لا يستند إلى شىء يجوز الاعتماد عليه . وإنما صار أشد من الكذب لأن الكذب فى أصله مستقبح مستغنى عن ذمه ، بخلاف هذا فإن صاحبه بزعمه مستند إلى شىء فوصف بكونه أشد الكذب مبالغة فى ذمه والتنفير منه ، وإشارة إلى أن الاعتزاز به أكثر من الكذب المحض لخفائه غالباً ووضوح الكذب المحض.

والكذب فى أصل اللغة ضد الصواب والصدق ، وهو مختص بالأقوال والأفعال ، وقد يطلق الكذب على الخطأ — وهو ضد الصواب — لأن الكذب يشبه الخطأ فى كونه ضد الصواب ، وإن افترق الكذب عن الخطأ من حيث النية والقصد ، لأن الكاذب يعلم أن ما يقول كذب ، والمخطىء لا يعلم ، والعرب تستعمل الكذب فى موضع الخطأ ، مثل قول القائل : (كذبت عينك) ويقال : رَجُلٌ كذّاب وكذُوب وكذيْذُبٌ وكَيْذُبَان كل ذلك للمبالغة .

ومهما كان من الكذب فإنه رذيلة ينفر منها الدين ، فإذا وصف النبى عليه الصلاة والسلام الظن بأنه كذب ، وبأنه أشد ألوان الكذب ، كان ذلك تأكيدا للنهى عنه ، وتحذيراً من سوء المغبة التى يوصل إليها الظن . .

وإنما نهى الحديث عن ظن السوء بالمؤمنين لأنه مدعاة إلى التحقير والسخرية واللمز ، ومدعاة إلى إيقاع الضرر بالمظنون به ، وظن السوء ؛ خدش للعرض وهتك للحرمة ، وقد أمر الله تعالى بصيانة عرض المسلم .

وقال عليه الصلاة والسلام لمعاوية : (إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم) .

وقد نهى القرآن الكريم عن الظن وشدد فى ذلك ، وفى هذا موافقة الحديث لقوله تعالى :

(اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بعْضُكمْ بعْضًا) .

فنهى سبحانه عن ظن السوء بالمؤمنين ، ونهى عن التجسس وتتبع عورات المسلمين ، فإن من حق المسلم على المسلم ستر عورته ، ومن ستر على مسلم ستره الله تعالى فى الدنيا والآخرة . .

ثم نهى الحديث عن التجسس والتحسس وهما أمران مترتبان على سوء الظن المنهى عنه ، لأن سوء الظن والشك فى أمر من الأمور يدفع صاحبه إلى محاولة التجسس والتحسس ، وهما من مادة واحدة تقريباً لفظاً ومعنى .

فالتجسس من مادة (جس) بفتح الجيم ، والجس فى الأصل هو مس العرق وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والسقم وهو أخص من الحَسّ فان الحس تعرف ما يدركه الحِسّ وهو البحث عما يدرك بحاسة العين والأذن . والتجسس هو البحث عن العورات ، والتفتيش عن بواطن الأمور ، وأكثر ما يقال فى الشر ، ولذلك قالوا إن الجاسوس هو صاحب سر الشر ، والناموس هو صاحب سر الخير .

وقيل إن التحسس هو أن يطلب الإنسان أخبار الناس ليقدمها إلى غيره. والتحسس فيه معنى التتبع لأشياء ظاهرة يستطيع الإنسان أن يعرفها بحسه . فالحاسَّةُ هى القوة التى تدرك الأعراض الحسية، والحواسُّ المشاعر الخمسة. يقال : حَسَسْتُ وَحسَيْتُ . وحَسِسْتُ بمعنى علمت وفهمت ، ولكن لا يقال ذلك إلا فيما كان من جهة الحاسة.وأما أحْسَسْتُهُ فحقيقته أدركته بحاسَّتى ، وأحسست مثله لكن حذفت إحدى السينين تخفيفاً نحو ظلت ، وقوله تعالى : (فلما أحس عيسى منهم الكفر) فتنبيه أنه قد ظهر منهم الكفر ظهوراً للحس فضلا عن الفهم . وقوله تعالى :

(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ) ، أى هل تجدُ بحاستك أَحدًا منهم؟

وعُبِّر عن الحركة بالحسيس والحِسِّ ، قال تعالى : (لَايَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا) .

وقيل : إن التحسس هو أن يطلب الإنسان لنفسه أسرار غيره .

وقيل : هو الاستماع إلى حديث الآخرين .

ونلاحظ أن التحسس قريب فى مفهومه من التجسس ، ولذلك قيل إن معناهما واحد فى تطلب معرفة الأخبار ، وقيل إن الجس أخص من الحس — بفتح الحاء — فان الحس هو تعرف ما تدركه الحواس ، والجس تعرف أى حال ، سواء كان التعرف بالحواس أم بغيرها .

والحق ، وإن كان معنى الكلمتين متقارباً إلا أن الفرق بينهما - كما ترى - دقيق للغاية ، وكلاهما مترتب على الآخر . فسوء الظن يترتب عليه التجسس ، والتجسس يترتب عليه التحسس . .

وعرفنا أن معنى سوء الظن هو حديث النفس واتهامها الآخرين ، فاذا حدث الإنسان نفسه بسوء أمر من الأمور فانه يحاول أن يتعرف على حقيقة هذا الشيء ويسعى للتأكد منه . فهنا تبدأ عملية البحث عن العورات والتفتيش عن بواطن الأمور ، وتتبعها سراً ، وهذه هي المرحلة الثانية لسوء الظن . . ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي : (التحسس) ، وهي البحث عن الأمور لمحاولة إدراكها بحاسة العين والأذن ، فالعين تتلصص والإذن تسترق السمع . . وكأن هذه المراحل الثلاث سلسلة فى حلقات ، كل حلقة تمسك بعنق أختها ، فمن سوء الظن الذى هو حديث النفس ، إلى محاولة التجسس فى الخفاء إلى التحسس واستعمال العين والآذان وغيرهما فى معرفة أحوال الناس وكشف عوراتهم .

ومن هنا فقد شدد القرآن الكريم والحديث الشريف على هذا الصنف الخبيث من الناس الذى ليس له من عمل إلا تتبع عورات الناس وجمعها وإشاعتها بين أفراد المجتمع . ويوحى الحديث بضعف همة هؤلاء وسوء نيتهم وطويتهم ، ويصورهم بصورة الشرير الماكر الذى تراه يروغ كالثعلب ، ويلتوى كالأفعى تنفث سمومها بين الناس ، فلا يدخل جهة إلا أفسدها [1].

ومن هنا فان النبى صلى الله عليه وسلم ينهانا عن تتبع عيوب الناس وكشف عوراتهم التى يريدون إخفاءها ولا يودون أن يطلع عليها غيرهم ، ولو أن كل إنسان عرف عورات غيره كلها وأسراره جميعها ، ما استطاع الناس أن يعيشوا معاً ، ولما استقر للحياة نظام ، ولعل هذا هو ما يشير إليه الحديث الشريف : (لو تكاشفتم ما تعايشتم) .

وجاء فى الحديث الشريف : (يامعشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان فى قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين ، فان من تتبع عورات المسلمين فضحه الله فى قعر بيته).

وكل من أغلق باب داره وتستر فلا يجوز الدخول عليه بغير إذن لتعرف المعصية .

---

(١) يراجع بتوسع كتابنا « نظرات فى سورة الحجرات » .

وقد دفعت كراهة المنكرات عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى تتبع العورات بعض الأحيان فقد كان يعس بالمدينة فسمع صوت رجل فى بيته يتغنى ، فتسور عليه ووجد عنده امرأة ، وعنده خمر ، فقال عمر : ياعدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت على معصية ؟ فقال له الرجل : وأنت يا أمير المؤمنين ، لاتعجل علىّ ، فإنى إن كنت عصيت الله فى واحدة فقد عصيت أنت الله فى ثلاث ، فقد قال تعالى : (ولا تَجَسَّسُوا) وقد تجسست ، وقال : (وَأْتو الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِهَا)وقد تسورت ، أى قفزت من السور ، وقال تعالى : (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) ، وقد دخلت بغير إذنى ، وكأنه قال له : وأنت يا أمير المؤمنين : تبعاتك وعصيانك أشد . فقال عمر : فهل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال الرجل : - نعم والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت لا أعود إلى مثلها أبداً فعفا عنه عمر وخرج وتركه .

ثم قال الحديث بعد ذلك : (ولا تحاسدوا) ، والحسد هو تمنى زوال نعمة من مستحق لها وربما كان مع ذلك سعى فى إزالتها ، وروى : (المؤمن يَغْبِطُ والمنافِقُ يحسد وقيل : إن الحسد أن يرى الإنسان لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه ، وهو غير الغَبْط - بفتح فسكون - لأن الغبط هو أن يتمنى الإنسان أن يكون له نعمة مثلها ولا يتمنى زوالها عن غيره .

ولا ريب أن الحسد رذيلة من أقبح الرذائل [١] ، لأنه يدل على خبث الطوية ، وسوء النية ، وهو فوق هذا نقص فى الإيمان لأنه تضمن عدم الرضا بما قدر الله وقضى ، فالله سبحانه هو الذى أعطى الحسود ما أعطاه ، ولذلك أمرنا القرآن أن نستعيذ من شر الحاسد فقال :

(مِن شَرِّ حَاسِدٍ إذَا حَسَدْ) وذم الله بنى إسرائيل بقوله :

(أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) .

---

(١) براجع كتابنا (نفحات من النبوة) موضوع (الحسد أسبابه وعلاجه) .

رمزاً إلى سوء الدافع الذى يدفع إلى الحسد حين قال (وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ) .

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ثلاث لا يسلم منها أحد : الطيرة (التطير) ، والظن ، والحسد) قيل : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ) .

وأنت ترى أن الحسد أيضا وهو حديث النفس ، الذى يدل على سوء النية ، وخبث الطوية ، الذى هو ثمرة التجسس والتحسس وتتبع أخبار الغير ، وكشف أحوال الناس ، فاذا رأى عندهم خيراً حسدهم ، وإذا رآهم على شر فضحهم وكشف عوراتهم ، فتأمل كيف تتعاقب هذه الشرور وتتوالى ، ومصدرها الأصلى صغير وهو « سوء الظن » ، الذى كان بإمكان الإنسان أن يتحرز منه ، حتى لا يصطلى بلظاه فيما بعد .

ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام : (ولا تدابروا) ، والتدابر معناه أن يعرض هذا عن ذاك وذاك عن هذا . يقال : تدابر القوم إذا ولى بعضهم عن بعض ، واشتق التدابر من مادة (دبر) ودبر الشىء خلاف القُبُل ، وكُنِىَ بهما عن العضوين المخصوصين ، ويقال : دُبُرٌ ودبْرٌ وجمعه أدبار ، قال تعالى :

(وَمَنْ يُوَلِّهِم يَوْمَئِذٍ دُبُرَه) ، وقال : (يَضْرِبُونَ وُجُوهَهمْ وَأَدْبَارَهُمْ) أى قُدَّامهم وَخَلْفُهم .

وأَدبرَ : معناه أعرض وولى دُبُرَهُ ، قال تعالى: (ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَر) .

والدّبَارُ مصدر دابَرْتُه أى عاديْتُه من خَلفِهِ ،والاستدبار طلب دُبُرالشىء .

فيكون قوله صلى الله عليه وسلم (ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا) ، أى ألا يذكر أحدكم صاحبه بسوء من خلفه ، فكأنه ينتظر حتى يدبر صاحبه ويتكلم عنه بما يسوؤه بعد ذلك .

فيكون معنى « التدابر » : التقاطع والإعراض بما فيه من هجر وغضب وخصام بأن يولى كل دبره للآخر ، أو بمعنى ذكر الأخ أخاه بما يكره فى غيبته وبعد انصرافه .

ومهما يكن معنى التدابر فهو أمر لا يليق بالأمة المؤمنة ، لأن فى كل هذا تنكر للأخوة فى الله والتلاقى فى حماه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث : يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام) ..

ثم قال الحديث : (ولا تباغضوا) ، والتباغض هو الثمرة الطبيعية للحسد ، فالذى يتمنى زوال نعمة غيره ، وأن تكون له دونه شرير خبيث لا يمنعه خلقه الذميم من السعى الحثيث فى تحقيق رغبته بأى وسيلة كانت .

والحاسد عدو لنفسه عدو لغيره ، لا يعرف قلبه الرحمة والمحبة والمودة بل ينطوى على البغض والكراهية والحقد والعداوة نتيجة لنيران الحسد المتلظية فى قلبه الخبيث ..

ومن هنا فقد نهى المربى الكريم عن التباغض وقال (ولا تباغضوا) ، والبغضُ فى اللغة نِفارُ النفس عن الشىء الذى ترغب عنه وهو ضِدُّ الحبِّ ، فان الحب انجذاب النفس إلى الشىء الذى ترغب فيه . يقال : بغض الشىء بُغْضاً وبَغَضْتهُ بَغَضْاءَ .

قال الله عز وجل : (وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ والْبَغْضَاءَ) وقال تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ) . وقوله عليه الصلاة والسلام : (إنَّ الله تعالى يَبْغَضُ الفاحش المتفحِّش) ، فذِكْرُ بُغْضِهِ له تَنبيهٌ على فيضه وتوفيقِ إحسانِه منه.

فقد نهى عليه الصلاة والسلام عن التباغض بينهم فى غير الله تعالى بل على أهواء النفوس ، فان المسلمين جعلهم الله إخوة يتحابون ولا يتباغضون ، فقد قال النبى عليه الصلاة والسلام :

(والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم) . .

ثم دعا الحديث الرشيد المسلمين إلى أن يكونوا إخوانا متحابين فى الله فقال (وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله تعالى) ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) فلاشىء أقوى ولا أعظم من هذه الرابطة الإيمانية التى تجمع قلوب إخوة العقيدة على اختلاف أجناسهم وشعوبهم وألوانهم ولغاتهم وأوطانهم وأزمانهم :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) .

والأحاديث التى تحث على المحبة فى الله ، والتباغض فى الله ، والتآخى فى دين الله كثيرة تغنى كثرتها عن التمثيل لها(١) ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : (المتحابون لجلالى فى ظل عرشى يوم لا ظل إلا ظلى) (٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ..)(٣) الخ .

وهذا الحب هو أصفى ألوان المحبة وأخلصها وأصدقها وأدومها ، وهو الذى ينجم ويقوم على الحب فى الله ، والتآخى فى دين الله ، والود من أجل الله ، وهو أشرف ألوان المحبة غاية ، وأجلها قصداً ، وأرفعها مكانة ، وأسماها منزلة ، وأجلبها للخير ، وأبعدها عن الشر ، وأبقاها على الزمن ، وأدومها على مر الأيام والشهور والأعوام ، يبلى الزمان ، ولا يبلى ، وتنقضى السنون فلا يزداد إلا قوة واستمساكاً .

ثم عمد الحديث إلى تثبيت هذه المعانى السامية وتأكيدها فى عقول المؤمنين وقلوبهم ، فقال : (المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم) .

---

(١) راجع كتابنا (من روائع الادب النبوى) ص ١٣ وما بعدها .
(٢) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير عن العرباض بن سارية .
(٣) متفق عليه .

وهنا يبرز الحديث القاعدة الاجتماعية التى يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامى المتضامن المتآخى .

فالدين الإسلامى الخالص أساس الأخوة الوثيقة العرا ، تؤلف بين أتباعه فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتجعل منهم على اختلاف الأمكنة والأزمنة وحدة راسخة الدعامة سامقة البناء لا تنال منها العواصف الهوج ولا الأنواء المزعزعة .

فهذا الحديث الكريم يصور لنا قاعدة جليلة من قواعد الحياة الاجتماعية السعيدة ، الذى يشعر كل فرد من أفراد الأمة بأنه لبنة فى بناء ، وعضو فى جسم ، وجزء من كل ، فواجبه يقتضيه أن يكون متجاوباً متعاوناً مع إخوته فى الله يتحابون ويتراحمون ، ويحرص كل منهم على مصلحة أخيه ، فاذا الأمة وحدة وإذا الحياة سعادة ، وإذا المجتمع صورة رائعة لحياة الأخيار من الناس ، وقد قال عليه الصلاة والسلام فى ذلك : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه [١]) .

والمراد بـ (الأخ) فى هذا الحديث وفى كل أحاديثه عليه الصلاة والسلام من له أخوة الإسلام مطلقاً ، دون غيرها من المسميات الحديثة (أخوة الوطن) ، وأخوة العمل وأخوة القومية ، وأخوة التنظيم السياسى .. أو .. أو .. فجميع هذه المسميات لا يعرفها الإسلام ، ولا يعترف بها . وقد صرحت بعض روايات الحديث بذلك فقال :

(حتى يحب لأخيه المسلم) ، أو كما قال فى هذا الحديث الذى نحن بصدده (المسلم أخو المسلم) ، وفى رواية النسائى (والذى نفس محمد بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير) . وهذا قيد لا بد منه .

وترى أنه صلى الله عليه وسلم قد نفى الإيمان عمن لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير ، فلن يكون مؤمناً حقاً ، ولن يكون جديراً بصفة الإيمان الكامل إلا إذا أراد لأخيه فى الله ما يريده لذاته . ومن البديهى أن الإنسان

---

(١) رواه الشيخان من حديث أنس رضى الله عنه .

ما دام يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فانه سيكره لأخيه ما يكرهه لنفسه ، وبذلك يتحقق قول المصطفى : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) .

وقد اشتد بعض السلف فى تفسير هذا « الحب » فجعلوه شاملا لكل صغيرة وكبيرة من الأشياء ، مما يصعب على كثير من النفوس أن تطيقه أو تحتمله ، كما ترى فى تفسير الفضيل بن عياض لقوله تعالى :

(تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَايُرِيدُونَ عُلُوًّا فى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).

حيث قال : (لا يحب أن يجعل نعله أجود من نعل غيره ، ولا شراكه (أى سير النعل وخيطه) أجود من شراك غيره .

وما دمت تحب لأخيك ماتحب لنفسك ، فأنت إذن لن تظلمه ولن تسلمه ولن تخذله ؛ بل ستعاونه وتتكافل معه ، وتدله من الخير على ما لا يعرف ، وتحذره من الشر ما يجهله أو يغفل عنه ، وتخلص له النصيحة ، وإذا كان عنده نقص جبرته ، وإذا كان عنده عيب سترته وأصلحته .. الخ .

فمن حق الأخ المسلم على أخيه أن يكره مضرته ، وأن يبادر إلى دفعها ، فإن مسه ما يتأذى منه شاركه فى الألم وأحس معه بالحزن ؛ أما أن يكون ميت العاطفة قليل الاكتراث لأن المصيبة وقعت بعيداً عنه فالأمر لا يعنيه ، فهذا لا يكون إلا ممن انبتت صلته بمشاعر الأخوة الغامرة التى تمزج بين نفوس المسلمين ، وتجعل منهم جسماً واحداً ، وإذا تألم منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ..

فأخوة الإسلام تفرض التناصر بين المسلمين ، تناصر المؤمنين المصلحين لإحقاق الحق وإبطال الباطل وردع المعتدى وإجارة المهضوم .

فلا يجوز ترك جماعة المسلمين تكافح وحدها فى معترك الحياة ، بل لا بد من الوقوف بجانبها والدفاع معها ، وذلك هو معنى التناصر الذى

فرضه الاسلام ، قال صلى الله عليه وسلم فى ذلك (المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم) .

وقال عليه الصلاة والسلام : (لا يقفن أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً ، فان اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدافعوا عنه) .

فاذا رأيت إساءة نزلت بأخيك ، أو مهانة وقعت عليه ، فأره من نفسك الاستعداد لمظاهرته ، والسير معه ، حتى ينال بك الحق ويرد الظلم .

وروى عن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال : (من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدمه على الصراط يوم القيامة) .

فهذه الأحاديث تحث على وجوب تضافر المسلمين وتماسكهم لدرء خطر الأعداء ودفع عدوانهم ، والعمل متعاونين لغاية واحدة وغرض سام هو تأييد الإسلام وإعزاز شأنه ، وبهذا يأمنون شر التفكك وما ينتهى إليه من المذلة والاستعباد ، وكل طائفة لا تتضافر آحادها على الإيثار والتضحية فهى خلو من المناعة الخلقية ، والقوة المعنوية ، لا تستطيع أن ترد عدوانا ، أو تقيم بنياناً .

وأنت ترى كيف وضع الرسول عليه الصلاة والسلام القاعدة التى يقوم عليها المجتمع الاسلامى (الأخوة فى الله) ، فالمسلمون على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وديارهم وألسنتهم وألوانهم أسرة واحدة مصداقاً لقوله تعالى :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَة)

وقوله عليه الصلاة والسلام : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وشبك بين أصابعه [1]) .

فهذه الأخوة التى نوه بها الرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا الحديث : (المسلم أخو المسلم) تقتضى ألا يظلم المسلم أخاه ، ولا يخذله ، ولا يحقره .. الخ . وهذا ما نص عليه هذا الحديث الشريف (المسلم أخو المسلم لا يسامه ولا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ..) الخ .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

وأصل الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء وضع الشيء فى غير موضعه المختص به ، إما بنقصان أو زيادة ، وإما بعدول عن وقته أو مكانه .

والظلم يقال فى مجاوزة الحق الذى يجرى مجرى نقطة الدائرة ، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز ، ولهذا يستعمل فى الذنب الكبير وفى الذنب الصغيرة ،ولذلك قيل لآدم فى تعديه ظالم وفى إبليس ظالم وإن كان بين الظلمين بون بعيد .

وقال بعض الحكماء الظلم ثلاثة :

الأول : ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى وأعظمه الكفر والشرك والنفاق ، ولذلك قال تعالى : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

والثانى : ظلم بينه وبين الناس ، وإياه قصد : (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ) .

والثالث : ظلم بينه وبين نفسه ، وإياه قصد بقوله (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) وقوله (ظَلَمْتُ نَفْسِي) (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) .

وكل هذه الثلاثة فى الحقيقة ظلم للنفس فان الإنسان أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه ، والظلم كذلك العدول عن الطريق ، ومنه قولهم : أخذ فى طريق فما ظلم يميناً ولا شمالا ، فكأن الظلم فيه أيضا معنى الانحراف عن سواء السبيل . وأى عدوان منك على صاحبك فى ماله أو جسمه أو ولده أو ما يتعلق به يعد ظلماً . .

فلا يجوز أن يظلم أخاه المسلم بالاعتداء عليه فى أى أمر من الأمور بل عليه مناصرته والوقوف بجانبه لقوله صلى الله عليه وسلم : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) .

ثم قال الحديث : (ولا يخذله) ، والخذلان هو ترك المناصرة والتأييد فى الموقف الذى يحتاج فيه الإنسان إلى ما ينصره ويؤيده .

وقال الراغب[1] : الخذلان هو تَرْكُ من يظن به أَن يَنْصُرَ نُصْرَتَهُ ، ولذلك قيل خَذَلَت الوحشية ولدَها وتَخاذلت رجلاً فلان. ومنه قول الأَعشى :

بين مَغْلُوبٍ تَلِيلٍ خَدُّهُ   وخَذُولِ الرِّجْلِ منَ غير كَسحْ

ورجلٌ خُذَلَةٌ كَثيرًا ما يخذُلُ .

وهذا ما يفهم من مثل قوله تعالى: (وكَانَ الشَّيْطَانُ للإنسان خذولا) ، أى كثير الخذلان .

فالواجب على المؤمن أن يأخذ بيد أخيه إذا رآه فى ضيق أو شدة أو متعرضاً لحرمان ــ كما سبق أن بينا .

ثم قال الحديث : (ولا يحقره) ، والاحتقار هو أن يستهين الإنسان بغيره ، فيحط من مكانته ، أو يبخسه حقه ، أو يتطاول عليه بتصرف ذميم ، أو لفظ أثيم .

وقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن احتقار المسلم لأخيه المسلم أمر فظيع ، وكأنه الغاية فى الشر ، التى لا شر بعدها ، ولذلك قال : (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم) .

ولا شك أنها عبارة مهددة متوعدة ، تنم عن شدة محاربة الإسلام لهذه الرذيلة المنافية لصفة الإسلام والمسلمين .. وكأن الذى تسول له نفسه بالاستعلاء على أخيه المسلم واستحقاره قد خرج من كل خير ، وانغمس فى كل شر ورذيلة ، وباء بغضب الله وسخطه .

وقال عليه الصلاة والسلام فى حديث آخر : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة[1]) . . وقال (من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة) ..

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى .

ثم قال الحديث : (كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه) ، وهنا ينبه عليه الصلاة والسلام إلى ضرورة صيانة الإنسان المسلم حق الصيانة ، والمحافظة عليه وعلى ممتلكاته حق المحافظة .. فذكر الرسول أشياء تجب المحافظة عليها ، وليس الأمر مقصوراً على هذه الأشياء بل كل ما يتعلق بالمسلم .

فالقاعدة الكلية : (كل المسلم على المسلم حرام) فذكر : دمه ، والمراد به حياته ، فلا يجوز الاعتداء عليها إلا فى قصاص ، أو فى حد من حدود الله . فقد قال عليه الصلاة والسلام : (لا يحل دم امرئ مسلم إلا باحدى ثلاث : الثيّب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة [1]) ، وعنه صلى الله عليه وسلم : (سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر) [2] ، فمن استحل دم امرئ مسلم بغير حق فهو كافر .

ولا يجوز الاعتداء على مال المسلم أو أخذه منه إلا بحق الإسلام لقوله صلى الله عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فان قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها) . فالزكاة المفروضة لقوله :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً . .)

فيجب صيانة أموال المسلمين والمحافظة عليها من السرقة والتلف ، والإسراف والغصب .. الخ .

ثم قال (وعرضه) .. والعرض هو موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان فى نفسه أم فى سلفه أم من يلزمه أمره ، وقيل إن العرض هو جانب الإنسان الذى يصونه : من نفسه وحسبه ، ويحامى عنه أن ينتقص ويثلب .

وقد أكد الرسول عليه الصلاة والسلام حرمة الاعتداء على الأعراض حين قال فى خطبة حجة الوداع : (إن أعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا) .

---

(١) رواه الشيخان .
(٢) رواه الشيخان .

وما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم سباب المؤمن فسوقاً إلا لأنه يتضمن الغيبة ، والقذف واللعن والسخرية والاستهزاء بعباد الله) .

(بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

ثم تأمل كيف استطاع الحديث أن يلفتنا إلى الأساس فى الإيمان واليقين : هو القلب وعليه مدار الصلاح والفساد ، والتقوى والإيمان ، أو الفسوق والعصيان ، والخير والشر ... إن مدار هذا كله هو القلب ، فاذا استقر الإيمان فى قلب إنسان كان مؤمناً حقاً ، وظهرت دلائل ذلك الإيمان فى تصرفاته وأعماله قال عليه الصلاة والسلام (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم وصوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) .

وهنا يرشدنا صلى الله عليه وسلم إلى القيم الحقيقية ، إلى المخبر والجوهر : لا العرض والصورة الخارجية ، فكثيراً ما تخدع المظاهر ، فكم من أناس يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، وكم من أناس تعجبك أجسامهم وأقوالهم ولكن أفئدتهم هواء ، هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وكم من أناس تحلو أشكالهم وتحسن صورهم ولكن صدورهم كالخرائب أو المستنقعات الآسنة .

فالعماد هو القلب ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم مشيراً إلى صدره : (التقوى هاهنا) وكرر قوله هذا ليؤكده ويوطده ، وقال فى الحديث الصحيح : (ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت ، فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب) (١) .

فى الحديث يريد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، أن ينبه أمته إلى أن تكون نافذة البصر فى حكمها ، ثاقبة النظر فى تقديرها ، فلا تحكم بالعنوان ، ولا تقدر بالأشكال ، فان للعناوين خدعاً ، وللمظاهر غشاً ، وللصور سحراً ، فكل الناس يدعى الفضيلة وينتحلها وكلهم يلبس لباس الشرف ، ويتزيا بزيه ، من منظر أنيق يستهوى السذج والأغبياء ، ومظهر سرى يخدع الأغرار والبسطاء ، فاذا أصغيت إلى قوله خلبك بفصاحته ، وسحرك بلباقته :

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما .

(وَمِنَ النَّاس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فى الْحَيَاةِ الدُّنيَا ويُشْهِدُ اللهَ علَى مَا فى قَلبهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحرثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَايُحِبُّ الفَسَادَ) .

فلا ينبغى أن تكون خشونة الملبس دليلا على مهانة القدر ، ولانظافة الظاهر عنواناً على نظافة الباطن ، فكم من فقير فى زيه ، ساذج فى هيئته ، رفيع القدر لطهارة نفسه ، عظيم المنزلة لسموأخلاقه ، وقوة إيمانه وصدق يقينه.

وعن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال :

(مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما تقولون فى هذا ؟ قالوا : حرىٌّ إن خطب أنْ يُنْكَحَ ، وإن شَفَعَ أن يُشَفَّع ، وإن قال أن يُسْمعَ ، قال : ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين ، فقال : ما تقولون فى هذا ؟ قالوا : حرى إن خَطَبَ أن لايُنْكح ، وإن شَفَعَ أن لايُشَفَّع ، وإن قال أن لا يُسْمَع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هذا خير من ملء الأرض مثل هذا [١]) .

هذا هو منبع شقاء الإنسانية ، ومصدر أنينها ، وسر دائها ، فالحياة كلها أصبحت أشكالا وصوراً ، ومظاهر وظواهر ، وهيئات وأزياء ، ولا تشفى الإنسانية من دائها ، إلا إذا اهتمت بطهارة الباطن ، ولا تفيق من ويلاتها إلا إذا رجعت إلى نقاء السرائر وتمسكت بالإيمان ، وجعلت تقديرها للأنفس الطاهرة الزكية ، ولو كانت تحت أسمال بالية وأطمار سحيقة ، ووقفت احترامها وتقديرها للقلوب العامرة النقية ، ولو كان أصحابها فى سذاجة ملبس ، وخشونة عيش .

فالرسول عليه الصلاة والسلام يدعو المؤمنين إلى أن يجعلوا العبرة فى التقدير إلى الأعمال ، والمقياس الصحيح فى الاحترام هى الأخلاق والاعتبار الدقيق على زكاة النفوس وطهارتها . ولذا قال عليه الصلاة والسلام : (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم [٢]) .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب النكاح من صحيحه .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

فعلينا أن نتعمق فى صميم الأمور . فنخرج الحقائق منها طاهرة من أدران التزوير خالية من شوائب التمويه ، حتى نعلم أن هذا الرجل الفقير الذى لا يؤبه له ولا يلتفت إليه ، هو خير وأفضل من عشرات الألوف من مثل ذاك الذى ينظر الناس إليه بعين الإجلال والإكبار .

هذا إذا كان الفقير نقى الباطن . سليم الخلق ، قوى الإيمان . صافى الغريزة ، أما إذا كان خبيث الباطن . موبوء النفس ، ضعيف الإيمان ، تافه اليقين . فقد خسر الدنيا والآخرة . وكان شراً كله ، بغيضاً إلى الله بغيضاً إلى الناس .

وبعد : فمهما يكن من شىء فالحديث معجزة بيانية ومعنوية ، وثروة لغوية وفكرية ، ومتعة وجدانية وعقلية معاً ، فقد جمع أصول الإسلام فى كلمات قليلة فى لفظها غزيرة فى معناها ، وذاك بحسن اختياره لعباراته وكلماته الموحية المصورة لمعناها أجمل تصوير ، فكلمات الحديث صور من المعانى والحقائق ، وهى تلصق صورة المعنى وشكله بإحساسك ونفسك معا ! .

فتأمل هذه الكلمات المختارة : (تجسسوا — تحسسوا — تدابروا — تحاسدوا — تباغضوا) ، إن كل كلمة تحتاج إلى كتاب لاستيعاب مافيها من حقائق وأحكام ، وإنك لترى التلاؤم والائتلاف بين مخارج الحروف والكلمات ، والإنسجام فى النغم بينها ، لتناسق حروفها ، وتوالى حركاتها وسكناتها ، وإنك لتحس بما لهذا التلاؤم من حسن الكلام والسمع ، وسهولته فى اللفظ ، وتقبل النفس لمعناه ، لما يرد عليه من حسن الصورة ، وطريقة الدلالة .

وإن الكلام — أخى القارىء — يذاق كما يذاق الطعام ، فكلما كان التنسيق والتلاؤم حسن فى الذوق ، ولذلك كان لمخارج الحروف أثره فى فصاحة الكلمة وبلاغتها وسهولتها وتقبل النفس لها .

فانظر هذه الكلمات : (تحسسوا — تجسسوا) ، و (تدابروا — تباغضوا — تحاسدوا) تلاحظ التقارب فى مخارج الحروف ومقاطع الكلمات ليسهل النطق بها على اللسان ، وتتقبلها الأسماع ، فلا أقرب مخرجاً وأسهل لفظا ، وأوقع فى نفس السامع من كلمتى (تجسسوا — وتحسسوا) بما

تلقيانه فى النفس من هذه الموسيقى الرقيقة من توالى حركة السينات فكل واحدة منهما ترسم بجرسها الذى تلقيه فى الأذن وبوزنها الذى تلقيه فى الخيال معنى تتبع عورات الناس والبحث عن عيوبها ، فكأنك تسمع حركة هذا الباحث ووسوسته وما تحدثه هذه الحركات والوسوسات من أصوات تشبه صوت السين مع الحاء ، والسين مع الجيم فإنك تسمع هذا الصوت (إس ، إس) وهو يشبه الهمس فى الأذن والمشى على أطراف الأصابع حتى لا يسمع أحد بحركة المتتبع لعيوب الناس فيكشف أمره وينفضح حاله .

وأظنك تلاحظ أن كلمات الحديث اختيرت اختياراً دقيقاً لإخراج المعنويات فى مظهر المحسوسات ، ثم بث الحياة والروح والحركة فى هذا المظهر نفسه .

فتأمل كلمة (تدابروا) وهى من الكنايات الدقيقة التى تعد من البراعة والبلاغة بمكان ، ويسمى علماء البيان هذا الضرب من الكناية ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه .

والتدابر هو التقاطع والهجران والتخاصم بأن يولى المسلم ظهره لأخيه المسلم ويعرض بوجهه عنه كأنه لا يريد أن يرى له وجهاً . وهذه الحالة مشاهدة فى الواقع بين المتخاصمين فكلاهما يعطى الآخر ظهره على عكس المتحابين فكلاهما يلقى الآخر بوجه طلق بشوش .

وقد اختيرت هذه الكلمة بالذات لما فيها من التشنيع والتقبيح لهذا العمل ، فترسم الكلمة (تدابروا) صورة التقاطع ، كأنها شاخصة حاضرة ، تبرز الحركات الظاهرة والانفعالات المضمرة ، وتلتقى فيها الصورة الحسية بالصورة النفسية .

فأى حركة نفسية أو حسية من حركات المقاطعة والمخاصمة ، وأية سمة ظاهرة أو مضمرة من سمات الموقف ، لم تبرزها هذه الكلمة الدقيقة المساوية فى لفظها صورة الموقف كله ؟ فهذان شخصان كانا من قليل يقبل بعضهما على بعض ويشاركان بعضهما السراء والضراء ، قلوبهما صافية ، ووجوههما ضاحكة مستبشرة ، وبعد قليل ينزغ الشيطان بينهما ،

فيولى كل منهما دبره للآخر ، فيعرض هذا ويعرض هذا ، وتذهب تلك الألفة والمودة ، وتكشر الوجوه وتحقد القلوب وتفور عداوة وبغضاً .

والرسول عليه الصلاة والسلام أخذ هذا الاستعمال من القرآن الكريم فمن النماذج المصورة للتعبير بالكناية فى القرآن تلك الصورة الهائلة المروعة التى رسمتها هذه الآية للمنافقين فى قوله تعالى : (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) .

قال مجاهد : يريد بالأدبار الأستاه ، ولكن الله كريم يكنى ، وفى تخصيص العضوين نوع من الخزى والنكال .

وقال تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأَدْبَارَ ، وَمَنْ يوَلِّهِمْ يوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرِ) .

والمراد من تولية الأدبار الانهزام ، فان المنهزم يولى ظهره من انهزم منه ، وعدل عن لفظ الظهور إلى الأدبار تقبيحاً للانهزام وتنفيراً منه ، وفيه تصوير للفرار بصورة بشعة تشمئز منها النفس ، وتستثير النخوة ، وتحفز الهمة (١) .

وقد عمد الحديث إلى تصوير الحالات الظاهرة والمكنونات المضمرة فى عالم النفس والضمير وإبرازها مجسمة شاخصة حاضرة تراها العين ، وتلمسها اليد ، فحتى المعانى الخفية التى تدور فى مكنونات الضمائر سلطت عليها الأنوار الكاشفة فأخرجتها فى صور حية مرئية . . فالظن مثلا — وهو حديث النفس — لا يطلع غليه أحد ، حين نسمع قول الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يحذرنا منه بقوله (إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث . .) فاننا نتخيل صورة ذلك الرجل الذى شك فى أمر من الأمور فألح عليه الشك فأخذ يحدث نفسه أولا ثم يحاول أن يؤكد هذا الأمر فيلتمس له

---

(١) واجع آيات الجهاد فى القرآن : التصوير بالكتابة ص ٤٧٦ وما بعدها .

دليلا بأية وسيلة كانت ، فتجره وساوسه وحديث نفسه إلى الخطوة التالية حتما وهو التحسس ثم التجسس ثم ، ثم ، ثم ، .. الخ وتتوالى حلقات هذه السلسلة الخبيثة (سوء الظن — التجسس ، التحسس ، التحاسد ، التدابر — التباغض) .

فقد بدأت هذه الحلقة صغيرة حقيرة لا يؤبه لها ثم أخذت تكبر شيئاً فشيئاً ، ويزداد خطرها وشرها خطوة خطوة ، فبدايتها من القلب بل وأعمق أعماقه ثم أخذت تظهر شيئاً فشيئاً من الأعماق إلى السطح ومن الهمس وحديث النفس إلى التدابر والتباغض وسفك الدماء وانتهاك الأعراض واغتصاب الأموال .

فتأمل حكمة المربى العظيم ومدى خبرته بخفايا النفس ، وأن الجريمة تبدأ صغيرة ثم تزداد حتى تأتى على الأخضر واليابس ، فمعظم النار من مستصغر الشرر . ولكنه صلى الله عليه وسلم يحذرنا من صغائر الأمور مثل تحذيره من كبائرها . فالذى يستهين بالصغيرة لا يبالى بارتكاب الكبيرة . فمن سولت له نفسه إساءة الظن بأخيه المسلم هان عليه بقية الأمور التى ذكرها الحديث من تجسس وتحسس ، وتحاسد وتدابر ، وتباغض.

وهنا لا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل يحذرنا النبى الكريم من مغبة ذلك فيذكرنا بتقوى الله وحقوق المسلم على المسلم ، فكأنه يقول أيها المسلم إن كنت مسلماً حقاً فتجنب سوء الظن لأنه سيؤدى بك إلى انتهاك حرمة أخيك المسلم فتعتدى على ماله وعرضه ودمه ، ولذا قال : (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) . فالقاعدة الاجتماعية العظيمة التى يقوم عليها البناء الاجتماعى الإسلامى هى حسن الظن بالمسلمين جميعا مصداقاً لقوله تعالى :

(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا) .

فنتيجة سوء الظن ، سفك الدم الحرام ، ونهب المال الحلال ، وانتهاك العرض المصون . .

ويدلنا الرسول الكريم ببالغ حكمته إلى مصدر سوء الظن ، فيربط أول الحديث بآخره . إذ يقول فى أوله : (إياكم والظن ، فان الظن أكذب الحديث) . ويعلل سبب سوء الظن فى آخره إلى خداع الظواهر ، فيقول فيقول (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم) فهنا البلاء وسر الداء ، .

فان كثيراً من الناس يحكمون على ظواهر الأمور ، ويتعجلون فى إصدار الأحكام ، فلو رأى رجل صديقه مع والدته المحجبة فى مكان ما فربما يظن به السوء ويقول ربما معه امرأة أجنبية ، وهنا يتبع هذا الظن ببقية السلسلة المعروفة ، .

وكان الأولى أن يظن خيراً ويقول فى نفسه إنها أمه ، أو زوجته أو.. ولكن استعجاله فى الحكم على الظواهر هو الذى دفعه إلى سوء الظن .

وهنا يضع الرسول الكريم القاعدة المانعة ، والعلاج الشافى لكل أمراض النفوس ، بالتوجه إلى هذه القلوب وتنظيفها وإشعارها بتقوى الله ومراقبته فى السر والعلن ، وأن تعبد الله كأنها تراه ، فان ذلك يمنع من خداع الظواهر ، ويمنع من إساءة الظن بالناس ، ويجنب صاحبه من الوقوع فى الكثير من الآثام والشرور .

فتأمل كيف انتظمت عبارات الحديث وكلماته فى سلسلة واحدة كل فكرة تقود إلى أختها فى إحكام وانتظام تام . فمقدمة الحديث مرتبطة مع خاتمته . وخاتمته مرتبطة تماماً مع مقدمته . فالمقدمة من الخاتمة ، والخاتمة من المقدمة .

فياسبحان الله ما أروع كلماك ، وأطيب نصحاك ، وأعظم حكمتك يارسول الله .

إنها التربية العظيمة المستمدة من الخالق سبحانه وتعالى ، والمتأثرة بالقرآن فى معانيه ومبانيه ،وبأخلاقيات الإسلام العظمى ، صيغت بأسلوب هو الغاية فى الروعة والإعجاز بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ! !

تربية الأولاد

عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قال : كنت خلف رسول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم يومًا فقال : يا غلامُ ، أَو يا غُلَيمُ ، أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ الله بِهِنّ ؟ فقلت : بلى . فقال : احْفَظِ اللهِ يَحْفَظْك ، احْفَظْ الله تجدْه أَمَامَكَ ، تَعَرَّفْ إلى الله فى الرخاء يعرفْك فى الشدة ، وإذا سأَلت فاسأَل الله ، وإذا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، قَدْجَفَّ القَلَم بما هو كائِن ، فَلَوْ أَنَّ الخَلْقَ جَمِيعًا أَرَادُوا أَن يَنْفَعُوكَ بِشيءٍ لم يقضِه الله لَمْ يَقْدِروا عَلَيْهِ ، وإنْ أَرَادُوا أَن يضروك بشيءٍ لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عَلَيْهِ ، واعْلَمْ أَنَّ فى الصَّبْر عَلَى ما تكره خَيْرًا كَثِيرًا ، وأَنَّ النَّصْر مع الصَّبْر ، وأَنَّ الفرج مَعَ الكَرْب ، وأَنْ مَعَ العُسْر يُسْرا) .

رواه الإمام أحمد بإسناد حسن . ورواه الترمذى وقال حسن صحيح .

عناية المسلمين بتربية الأولاد :

هذا الحديث الشريف يتضمن عدة وصايا عظيمة القدر ، خطيرة الأثر ، جامعة الأحكام ، والحكم والمعارف ما يفوق الحصر ، وهو أصل كبير فى رعاية حقوق الله ، والتفويض لأمرة والتوكل عليه وشهود توحيده وتفرده ، وعجز الخلق وافتقارهم إليه . فقد تضمن طائفة جليلة من الوصايا النبوية الجامعة الشريفة التى يجب أن يهتدى بها المسلم ليزداد إيماناً، ويستقيم على طريق الهداية والخير . فهذا الحديث كأمثاله يدل المسلمين الذين آمنوا بالله وبرسوله، ويرشدهم إلى ما كان صلى الله عليه وسلم قائماً به من دعوة الأمة إلى الله تعالى وبيانه لهم ما جاءهم به من العقائد الصحيحة وأعمال الدين والدنيا ، وإرشادهم إلى ما يزكىّ نفوسهم من الفضائل ومكارم الأخلاق .

وهو يدل على ما كان من عناية النبي صلى الله عليه وسلم بتبليغ رسالة ربه فى الحضر والسفر رجالا أو ركباناً ذكراناً أو إناثاً أو صبياناً ، فما كان من وقت يمضى عليه الصلاة والسلام إلا وهو مشتغل فيه بأمر دينى محض أو دنيوى

يقصد به وجه الله تعالى ويصلح به أمور الأمة أو يقصد الأمرين جميعاً تقريباً إلى الله عز وجل باصلاح الدين والدنيا معاً .

وكذلك يدل هذا الحديث على عنايته التامة بتربية الأطفال وتغذية نفوسهم بالعقائد الإسلامية. وغرس الأعمال الصالحة فى نفوسهم لينشئوا نشأة حسنة علماء بدينهم عاملين بتعاليمه حريصين على حسن أدائها حتى إذا كبروا كانوا مرجعاً لغيرهم يفزعون إليهم فى تعلم ما ورثوه هم عن الرسول صلى الله عليه وسلم كما كان شأن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما وغيره من الصحابة الأجلاء الذين كانوا نعم الموئل والملجأ للمسلمين بعد النبي صلى الله عليه وسلم . نشأ عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن هو وغيره من غلمان المسلمين كعبد الله بن عمرو وعلى بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل والحسن والحسين وغيرهم رضى الله عنهم على هذه النشأة الحسنة ، ثم كبروا وانضموا إلى رجالات الصحابة الأجلاء الصدور فى العلم الإسلامى والتزام حدوده وحسن الحض على الحرص عليه وعلى العمل به من غير تواكل ولا هوادة ، فكانوا جميعاً بعد الرسول صلى الله عليه وسلم مشرقاً بزغت منه شمس الدين المحمدى وانبعث منه نور الإسلام الحنيف فأضاء المشارق والمغارب ، وشرح الله صدور أهلها للدخول فى دين الله أفواجاً وتحولت أقطار الأرض من جهلها ووثنيتها إلى أقطار موحِّدة تدين بالدين المحمدى ، فأصبح المسلمون لذلك العهد سادة أهل الأرض بما نشروا من الدين والعلم النافع وما أقاموا من العدل والقسطاس المستقيم .

هذه بعض تنشئة أطفالنا نحن المسلمين التنشئة الدينية الإسلامية ، وهذه بعض تربيتنا لهم التربية التي ربى النبيَ صلى الله عليه وسلم ابن عباس وغيره من أطفال المسلمين كعلى وعبد الله بن عمر والحسن والحسين رضوان الله عليهم أجمعين (١) .

واعلم – أخى القارئ – أن العلم الذى جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وبلغه الناس عن ربهم جلت حكمته علم يصلح النفوس ويهذبها ، وكذلك

---

(١) مجلة نور الاسلام ٥/٣/١ حسين منصور .

يصلح الأبدان ويقيها أمراضها وأدواءها ، فكان هذا الدين الإسلامى المحمدى لهذا مثقفاً للنفوس شافياً لها من العقائد الفاسدة وقبائح الجهالات والغواية ودواء ناجعاً من سيئات الأعمال وشرور عواقبها ، فكان لذلك شفاء وعلاجاً نافعاً أيما نفع للأرواح والأشباح ، من لدن حكيم كما قال جل ثناؤه :

(قُلْ يَـأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى : (قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ويُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بإِذْنِهِ ويَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) . .

لقد جاء هذا الدين الحنيف مصلحاً لأرواح الناس وعقولهم ببيان العقائد والعبادات والفضائل النفسية ، كما جاء مصلحاً للأحكام والأعمال الدنيوية لم يفرط من ذلك فى شىء ، كما قال الله الحكيم العليم :

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمة وبُشْرَى لِلْمُسْلِمِين) . .

وهذا حديث جليل القدر جم الفوائد والمنافع الدنيوية والأخروية ، قد علمه السلف من الأمة الإسلامية وفقهوا ما فيه من الوصايا والتعاليم وعملوا بها وحرصوا على الاعتصام بها والاستقامة عن سننها حتى صلحوا أن يكونوا خلفاء عن صاحب هذا الحديث عليه الصلاة والسلام فأصلحوا بذلك أنفسهم ونشروا دين الله تعالى وعلموا الناس وثقفوا عقولهم وزكوا أرواحهم وأرشدوهم إلى ما تستقيم به أمورهم فى الحياتين الدنيوية والأخروية .

هكذا عمل سلفنا بهذا الحديث الشريف فأفلحوا وسادوا وعلت كلمتهم الصادقة ونفذت أحكامهم العادلة ثم خلف من بعدهم خلف انحرفوا عن سنن وصايا هذا الحديث فانحرفت بهم حياتهم وضعفوا بعد قوتهم وافتقروا بعد ثروتهم وذلوا بعد عزتهم وآل أمرهم إلى ما نرى ونسمع .

(وَلَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا) .

وقد قدمنا الكلام فيما تضمنه هذا الحديث الشريف من وجوب تربية الأولاد التربية الدينية الصالحة ، ومن تحتم العناية تنشئتهم التنشئة الحسنة فى فى دينهم ودنياهم . .

وألمحنا إلى المضار التى تنتج بإهمال هذه التربية ، وأن حياة المسلمين الحالية أصدق شاهد على صحة ما نقول ، ولله عاقبة الأمور .

المعانى والتصوير : —

هذا الحديث نموذج للأسلوب التربوى التعليمى ، فقد قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم المؤمنين حقيقة جامعة للدين كله ، وضرورة تنشئة الشباب منذ نعومة أظفارهم عليها ، كما أرشدهم إلى طريقة التربية والتعليم والتوجيه ، ومراعاة المعلم كحالة المتعلم .

وإذا تأملنا كل كلمة من كلمات هذا الحديث الشريف ، لوجدنا أن راوى الحديث هو ابن عباس حبر الأمة ، وترجمان القرآن الكريم ، وكان سنه إذ ذاك نحو عشر سنين .

إذن فأول ما يلفت انتباهنا فى هذا الحديث التوجيهى الهادف ، وأول درس نستفيده من دروسه العظمى هو : « تكريمه صلى الله عليه وسلم للشباب وعنايته الشديدة بتربيتهم وتنشئتهم » . فمن مظاهر هذا التكريم للشباب أنه أردف ابن عباس معه على ركوبته ، تواضعاً منه صلى الله عليه وسلم وتكريماً للشباب والأحداث الصغار . وقد صور لنا راوى الحديث هيئة ركوبه خلف رسول الله أجمل تصوير بقوله : (كنت خلف النبي يوماً) ، وفى رواية أخرى : (كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم) ، وأصل الرديف فى اللغة الذى يركب خلفك ، أو الراكب ، وأصله من ركوبه على الردف وهو العجز . والرواية المشهورة « ردف » بكسر الراء وإسكان الدال ، فكل شىء يتبع شيئاً فهو ردفه ، والترادف التتابع .

فهذا الغلام الحدث ارتقى إلى منزلة عظيمة بركوبه على نفس ركوبته صلى الله عليه وسلم ، وهو قريب منه غاية القرب ، وفى ذلك مافيه من حظوة ومحبة وتكريم. فقرب المتعلم من العالم أوقع فى نفسه ، وأدعى لسماعه وضبطه وتثبت كل حرف من كلامه فى ذاكرته. فمتى أحب المتعلم العالم وتعلق به كانت أجهزة تلقيه مهيأة

لاستقبال كل كلمة من كلماته . وليست هذه هى المرة الأولى والوحيدة التى يعمد فيها المربى العظيم إلى تكريم الشباب ، واستمالة قلوبهم ، ورفع أقدارهم بهذه الطريقة العملية الهادفة ، بل تكرر هذا الصنيع منه صلى الله عليه وسلم كثيراً فهذا معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه يقول : (بينما أنا رديف النبى صلى الله عليه وسلم ليس بينى وبينه إلا آخرة الرحل ، فقال مُعاذ ، قلت : لبيك يارسول الله وسعديك . .) . وكثيراً ما أردف الحسن والحسين والفضل وعبد الله بن عمر وغيرهم من شباب الأمة ، وهذا موقف من التربية عظيم ، وأسلوب عملى حكيم انتهجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الشباب ليزدادوا تعلقاً به ، وإقبالا عليه ، فكان معلماً ومربياً ومرشداً وهادياً ، لا يترك فرصة للتربية النموذجية الهادفة إلا اغتنمها ، وفى ذلك الإشارة إلى المربين ، والمعلمين وممن يتصدون للتربية والتعليم والإرشاد والتوجيه أن يحذوا حذوه فى خلق الجو المناسب لإلقاء دروسهم ونصائحهم ومواعظهم .

وأول ما نلاحظه هو هذا الأسلوب الذى انتهجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تربية الشباب ، ومخاطبتهم ، أنه عمد إلى الإثارة والتشويق والتنبيه ،لأنه هو الأنسب والأمثل فى تعليم صغار السن والناشئة ، وما توصل علماء التربية وعلم النفس إلى اكتشاف هذا الأسلوب العظيم إلا حديثاً بعد مناقشة العديد من النظريات ، وإجراء الكثير من التجارب ، فقد اختار رسول الله لتلقين هذه الوصايا الجامعة ، ذلك الشاب الذكى ، وهيأه نفسياً وذهنياً وجسمياً لتلقى هذه الحقائق والمعلومات باختيار المكان المناسب والطريقة المناسبة ، وهى طريقة السؤال والجواب ، السؤال الذى يثير الانتباه ويوقظ الوعى ، ويحرك الملكات ، وينبه مراكز التلقى ويفتح عقله وقلبه معاً . .

أما عن المكان المناسب الذى جلس فيه المتعلم فهو مكان تقدير وتكريم ، وأما عن الطريقة التربوية المثيرة المشوقة ، فقد اعتمد المربى العظيم أسلوب النداء ، وهو أنجح الأساليب ، وأنجحها فى إثارة انتباه السامع ، ولذا فهو الأسلوب المختار عند رب العزة خالق النفوس ومربيها وهاديها ومزكيها ، وهو أسلوب «النداء»وتكرر فى الآيات القرآنية أكثر من مائة وخمسين مرة النداء بـ(يا) :

(يأَيُّهَا الَّذينَ آمنُوا) و(يأَيُّهَا النَّاسُ . .) ، كما تكرر لفظ (قل) **أكثر من (٣٢٠) مرة .**

وقد أصبح هذا الأسلوب شائعاً فى حياتنا اليومية فى محادثاتنا وخطبنا ومعاملاتنا ودروسنا . فأنت تسمع كل خطيب يبدأ كلامه بـ (يا) وتسمع الإذاعة والتليفزيون وغيرهما من وسائل الإعلام فتكرر عبارة (أيها المستمعون) و (أيها المشاهدون) . كل ذلك لإثارة انتباه السامع أو المشاهد وتهيئته وإعداده لما سيلقى عليه .

وهكذا ترى سبق الأساليب الإسلامية التربوية إلى كل نافع ومفيد منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، ولكن ياليت قومى يعلمون فلا يعمدون إلى استيراد أفكار الأجنبي كما يستوردون ملابس النساء ! !

فتأمل كيف بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثه الكريم مع ذلك الغلام الصغير (ياغلام ، أو ياغُلَيم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ فقلت : بلى . .) الخ .

هكذا بدأ الدرس هادئاً مترفقاً ، كأنه صلى الله عليه وسلم يهمس فى أذن الغليم همساً مراعاة لحداثة سنة ، فإن الصوت الجهير يخيف الصغير ، وينفره مما يسمع .

وإنك لتلمح أسلوب الترقيق والتحبب فى مخاطبة الغلمان مراعاة لمقتضى الحال ، ومخاطبه كل على قدر عقله .

والمراد بقوله (ياغلام ، أو ياغليم) الطارّ الشاربُ ، يقال غلام بيّن الغُلُومَة والغلوميّة . قال تعال : (أنّى يكون لى غلام) وقوله (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ) ، والجمع غِلْمَة وغِلْمان ، وأصله من الاغتلام ، وهو شدة الشبق . ويطلق هذا اللفظ على الصبى من حين يفطم إلى تسع سنين ، وكانت سن ابن عباس حينذاك عشر سنين تقريباً .

وطريقة الترغيب والتحبيب واضحة فى استعمال أسلوب التصغير « غليم » فلم يكتف باستعمال كلمة « غلام » التى تدل على الصغر بل صغرها وقال « غليم » مبالغة فى التحبيب وإزلة الكلفة والرهبة من النفس ، ومن عادة العرب ، أن يستعملوا أسلوب التصغير للملاطفة والتدليل .

ثم قال الرسول المربى العظيم بعد هذا النداء الحبيب القريب : (ألا أعلمك كلمات) فعمد إلا أسلوب الاستفهام الذى يدعو إلى الحض والتهييج وإثارة الانتباه ، واستعمل الهمزة لخفتها ورقتها ومناسبتها لمقتضى الحال ، وأدخلها على (لا) التى تفيد النفى ،وهذا يتضمن الحث على التعلم ، والتحريض عليه بأوجه وجوه الأدلة وأقواها ، وأوضح أساليب البيان وأسماها .

وهو أن الاستفهام الذى يحيل النفى إثباتاً كما يحول الإثبات إلى النفى ، وقد دخل هنا على نفى التعليم فكان دليلا على إثباته ووجوبه ، فكلمة (ألا) موضوعة للتحضيض على التعلم . وإذا قال (ألا تعلمت)كان تأنيباً ، لأن ما يلزم إذا تُرك ذُم على تركه ، ويحض على فعله قبل وقته . .

وفى هذا الاستفهام كما ترى من الإثارة والإغراء بضرورة الاستعداد للتلقى والحفظ ما فيه . .

وقد سلك القرآن الكريم فى أسلوب الاستفهام مسلكاً فريداً لم نره كثير الاستعمال عند العرب قبل نزول القرآن الكريم ، ولكنه شاع بعد نزوله من غير سمو إلى مسلك القرآن ، وهو دخول أداه الاستفهام على حرف النفى مثل قوله تعالى فى سورة التوبة :

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مرَّة ؟ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ)؟

وقد قال أبوحيان : ألا حرف عرض ومعناه الحض على قتالهم ، وزعموا أنها مركبة من همزة الاستفهام ولا النافية فصار فيها معنى التحضيض .

وقال الزمخشرى : دخلت الهمزة على تقرير انتفاء المقاتلة ومعناها الحصن على المبالغة . وأنت ترى تأثر أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم بأسلوب القرآن وإفادته منه . فهو صلى الله عليه وسلم تلميذ القرآن وخصيصه وصفيه ونجيه كما رد عليه الصلاة والسلام على أبى بكر رضى الله عنه حين قال له : (لقد طغت العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أدبنى ربى فأحسن تأديبى) .

وقد أدبه ربه وصنعه على كرائم ما يؤتى الناس من مبان ومعان جل مواهبها . وذلك الركن الركين والسر الكمين والغاية التى لا تدرك . . فهذا الكتاب (القرآن) نعم المؤدب والمهذب . وللقارئ فيه من العلم والأدب والبيان واللسان بمقدار ماله فى القارئ من تفرغ . واتجاه ، وهل كان إلا للقرآن يتعهده ويهذبه ويعلمه البيان .

وفى هاتين الناحيتين (مدارسة القرآن وتأديب الرحمن) موضع التفرد فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اصطفى له ما شاء من صور البيان كما اصطفاه على جميع الأنام وكانت له بلاغة : (سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها . ألفاظ يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه فهى إن لم تكن من الوحى لكنها حادث من سبيله ، وإن لم يكن منه دليل فقد كانت هى دليله [1]) .

ولعمر الحق فقد كان نبى الله أفصح العرب قاطبة ، ولن يصفه واصف بأبلغ ولا أوجز ولا أدل من قوله :(أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ، واسترضعت فى بنى بكر بن سعد) .

نعود مرة أخرى إلى كلمات هذا الحديث البديعة وعباراته الرائعة ونسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول لابن عباس : (ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن) .

والعلم هو إدراك الشيء بحقيقته ، وهو نظرى وعملى ، وعقلى وسمعى . وأعلمته وعلّمته فى الأصل واحد إلا أن الإعلام اختص بما كان بإخبار سريع ، والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر فى نفس المتعلم .

قال بعضهم : التعليمُ تنبيه النَّفس لتصوُّرِ المعانِى ، والتَّعلُّمُ وتَنَبُّهُ النفس لتصوُّرِ ذلك ، وربما استعمل بمعنى الإعلام إذا كان فِيهِ تكرير نحو (أَتُعلِّمُونَ اللهَ بدِينِكُمْ) ، فمن التعليم قوله : (الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ) و (عَلَّمَ بِالْقَلَم) ، ونحو ذلك .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى .

ثم ذكر الحديث (الكلمات) بصيغة القلة وبالتنوين (كلمات) ، ليؤذن بأنها قليلة اللفظ ، فيسهل حفظها ، وليعلمه بعظم خطرها ، ورفعة محلها ، فيتأهل لقبولها.

وقد جاءت هذه الكلمات من أبلغ العبارات وأوجزها ، وأجمعها لأحكام الشريعة قليلها وكثيرها ، فهى من بدائع جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم التى اختصه تعالى بها .

وقد اشتمل على سبع كلمات معجزات ، ووصايا جامعات يجب أن يهتدى بها المسلم ليزداد إيماناً ، وليستقيم على طريق الهداية والخير . .

وقد ألف الإمام ابن رجب الحنبلى فى شرحه كتاباً مطبوعاً لطيف الحجم سماه (نور الاقتباس فى مشكاة وصية النبي لابن عباس) .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس (ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن) قبل أن يذكر له الكلمات التى يريد تعليمها إياه ، ليكون ذلك أوقع فى نفسه ، فيشتد شوقه ، ويعظم إقباله . .

أما الكلمة الأولى أو الوصية الأولى : قوله صلى الله عليه وسلم : (احفظ الله يحفظك) .

وفى رواية أخرى : (احفظ الله تجده أمامك) . وفى رواية : (تجده تجاهك) . وحقيقة الحفظ : صيانة المحفوظ من الضياع ، أو من أن يصل إليه أى أذى ، والحفظ يقال تارة لهيئة النفس التى بها يثبت ما يؤدى إليه الفهم وتارة لضبط فى النفس ويضاره النسيان . وتارة لاستعمال تلك القوة فيقال حَفِظْتُ كذا حفظاً ، ثم يستعمل فى كل تفقد وتعهد ورعاية ، قال الله تعالى : (وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) (وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ) كناية عن العفة ، حافظات للغيب بما حفظ الله أن يحفظن عهد الأزواج عند غيبتهم بسبب أن الله تعالى يحفظهن أن يُطَّلَعُ عليهن . وقرىء (بما حفظ الله) بالنصب أى بسبب رعايتهن حق الله تعالى لا لرياء وتصنُّع منهن . وقوله تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) .

فيه تنبيه أنهم يحفظون الصلاة بمراعاة أوقاتها ومراعاة أركانها والقيام بها فى غاية ما يكون من الطوق وأن الصلاة تحفظهم الحفظ الذى نبه عليه فى قوله تعالى :

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) .

وبعد أن جلينا حقيقة الحفظ ، وعرفنا المراد به ، نود أن نعرف معنى أن العبد يحفظه الله .

فالمراد بحفظ العبد لله — والله تعالى أعلم — حفظ فرائضه وحدوده وحقوقه ، وحفظ دينه من التضييع والتبديل ، بأن يحفظ أوامره التى أوجبها ، ونواهيه التى حرمها ، فيقف عند أوامره بالامتثال ، وعند نواهيه بالاجتناب.

وقد صرح القرآن الكريم فى بيان أوصاف المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة إذ قال :

(وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ)

وقد وصف القرآن المفلحين من المؤمنين بأوصاف محددة فى السورة التى سميت باسمهم (المؤمنون) فقال تعالى :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ،الَّذِينَ هُمْ فى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضونَ ، وَالَّذِينَ همْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ ملُومِينَ ، فَمنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ، والَّذِينَ هُمْ لِأَمانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ ، والَّذِين هُمْ عَلَى صلواتِهِمْ يُحَافِظُونَ ،أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ، الَّذِينَ يرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وإذا حفظ العبد ربه وأطاعه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه كان جزاؤه من جنس عمله ، فيحفظه الله فى نفسه وبدنه وولده وأهله وماله ، وسائر مصالح دنياه ، ويحفظه فى دينه وإيمانه ، ويحميه من الشبهات المضلة ، والشهوات المحرمة . قال تعالى :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) وقال : (فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ) وقال : (إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ) .

فإذاحفظ الإنسان حقوق ربه وأدى ما عليه لله فإن الله تبارك وتعالى ثيبه بأن يحفظه فى دينه ودنياه ، ويوفقه فى عمله ومسعاه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ربه أن يحفظه فيقول : (اللهم احفظنى بالإسلام قائماً ، وبالإسلام قاعداً ، واحفظنى بالإسلام ، ولا تطمع فىّ عدواً ولا حاسداً) ..

ومن ألوان الحفظ حفظ الشبيبة وصيانتها لتكون رصيداً لصاحبها عند الكبر ، فقد قال بعض العلماء : (من لم يحافظ على صباه جارت عليه شيخوخته)

فمن حفظ الله فى صباه وقوته ، فإن الله يحفظه حال كبره ، وضعف بنيته ، ويمتعه بسمعه وبصره ، وإدراكه وعقله .

فقد وثب أحد العلماء (الجوينى) يوماً — وهو طاعن فى السن — وثبة واسعة ، فلامه بعض معارفه على ذلك ، فقال : (هذه جوارح حفظناها عن المعاصى فى الصغر ، فحفظها الله علينا فى الكبر) . وقد روى أن جماعة من العلماء كالحسن البصرى والبغوى والجوينى جاوزوا المائة سنة ، ومع ذلك بقوا متمتعين بقوة عقولهم وسلامة أبدانهم .

وقد يتعدى الحفظ بسبب صلاح العبد إلى ذريته بعد موته ، فربما جعل الله تعالى حفظه لعبده متمثلا فى حفظ اولاده ، كما قال تعالى :

(وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) ، أى أنهما حفظا بصلاح أبيهما .

وكان عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين يقول : (ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله فى عقبه وعقب عقبه) .

وقد يتعدى الحفظ إلى جيرانه ، وأهل ناحيته قال ابن المبارك : إن الله ليحفظ الصالح ولده ، وولد ولده ، والدويرات التى حوله ، فما يزالون فى حفظ من الله وستر) .

وعلى النقيض من هذا من ضيع الله ، وتعدى حدوده ، وأهمل حقوقه ، فان الله يضيعه بين خلقه ، ويدخل عليه الضرر والأذى ممن كان يرجو منهم

الخير والنفع ؛ رأى بعض السلف شيخاً كبيراً يسأل الناس فى هيئة زرية ، فقال إن هذا ضيع الله فى صغره ، فضيعه الله فى كبره . .

أما الكلمة الثانية فى وصيته الجامعة عليه الصلاة والسلام فهى (احفظ الله تجده أمامك) كما جاء فى بعض الروايات . وجاء فى بعضها الآخر : (تجده تجاهك) ومعنى تجاهك : مقابلك . وهذه الكلمة توكيد للكلمة الأولى ومن ثم أوردها بلا عاطف ، لكمال الاتصال بينهما . والمعنى أنك إذا حفظت حقوق الله وراقبته وجدت الله معك فى كل الأحوال يهديك ويرعاك ويؤيدك.

فإذا حفظت الله وجدته أمامك أى : معك بالحفظ والإحاطة ، والتأييد والإعانة حيثما كنت . وأينما توجهت ويممت ، فتأنس به ، وتستغنى به عن خلقه . فالجهة هنا معنوية لا ظرفية ، فهو على حد قوله تعالى :

(إنَّ اللهَ مع المُتَّقينَ)

وإنما خص الإمام من بقية الجهات الست ، إشعاراً لشرف المقصد ، وبأن الإنسان مسافر إلى الآخرة غير مستقر فى الدنيا . والمسافر إنما يطلب أمامه لا غير ، فكأن المعنى : أن من حفظ حدود الله . وراعى حقوقه ، وجد الله معه فى أحواله كلها ، حيث توجه يحوطه الله وينصره ، ويحفظه ويوفقه ويسدده . .

وقدأشار القرآن الكريم فى كثير من الآيات إلى هذه «المعية» الخاصة — أى معية الصيانة والحفظ والرعاية والتوفيق ، منها قوله تعالى :

(إنَّ اللهَ مع الَّذِين اتَّقَوْا والَّذِين هُمْ مُحْسِنُونَ)

وقوله على لسان رسولنا عليه الصلاة والسلام لصديقه أبى بكر رضى الله عنه :

(لَاتَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعنَا) .

ولقد كتب بعض السلف إلى أخ له فى الله تعالى فقال له : (أما بعد . فان كان الله معك فمم تخاف ؟ وإن كان عليك فمن ترجو ؟) .

وقال قتادة : (من يتق الله يكن معه . ومن يكن معه فمعه الفئة التى لا تغلب ، والحارس الذى لا ينام والهادى الذى لا يضل) .

وقد اشتملت هذه الكلمة الجامعة (احفظ الله تجده أمامك) على أمرين عظيمين لا ينالهما إلا من حفظ الله تعالى وأدى مأموراته وهجر منهياته : أولهما أن من حفظ الله سبحانه لاتتوجه نفسه فى شأن من شؤونه إلا إلى الله عز وجل ، فإذا نزل به أمر أو احتاج إلى ما يصلح به أحواله مثلا ، فإن نفسه لا تفزع إلا إلى سيدها الأجل الذى له الخلق والأمر .

وثانيهما : قرب الله سبحانه وتعالى من هذا العبد الذى حفظ حدوده ، وسرعة إغاثته له على حسب ما تقتضيه مشيئته جل وعلا ، وهذا كما قال سبحانه للرسولين الكريمين موسى وهارون عليهما السلام ، حينما خافا فرعون مصر أن يَفْرُط عليهما أو أن يطغى : (لَاتَخَافَا إِنَّنِى معكُمَا أَسْمعُ وأرى). وهما كسائر النبيين والمرسلين الذين حفظوا الله حق الحفظ ، فلهذا كافأهما على حفظهماله ، فكان قريباً منهما بمعونته وعلمه وحراسته أن يفرط عليهما هذا الجاهل الظالم أو أن يطغى .

ولابد من وقفة متأنية على هاتين الكلمتين الجامعتين وبسط القول فيهما لما فى ذلك من الخير ، والدلالة العظيمة على عظمة الأسلوب النبوى وروعته وإعجازه حيث يعطى المعانى الغزيرة والأحكام الكثيرة فى كلمات قليلة .

فماذا يمكننا أن نفهم من الكلمة الأولى مثلا وننتفع به فى حياتنا المعاصرة ؟ فقد أوصى النبى عليه الصلاة والسلام ابن عباس رضى الله عنهما بقوله (احفظ الله يحفظك) ، وهذا أمر فى الحقيقة للأمة بأسرها ، فإنه ما من أحد إلا وهو مأمور بهذا الحفظ لأنه حق وجب لله العلى الكبير بمقتضى عبودية العباد لله رب العالمين . .

إن حدود الله هى تكاليفه وأحكامه التى عرفها المسلمون وجاءت مفصلة فى الشريعة السمحة ، وهى نوعان :

الأول : أحكام تتعلق بأعمال القلوب ؛ وحفظها ورعايتها أعظم وآكد من حفظ ورعاية الأعمال التى ليست بقلبية .

الثانى : أحكام تتعلق بأعمال الجوارح والأعضاء الظاهرة وهى الأعمال التى عليها مصالح الدين وهى العبادات من الصلاة وغيرها ، ومصالح الدنيا

أيضاً وهى المعاملات الجالبة للمنافع والدافعة للمضار دينية كانت تلك المنافع والمضار أو دنيوية فى الأنفس والأعراض والأموال .

فلو حفظ المسلمون حدود الله فى أعمال قلوبهم لطهرت أرواحهم ولزكت نفوسهم ولشفيت صدورهم من العقائد الباطلة ولكان ذلك تثقيفاً لما أعوج من العقول وتوسيعاً لما ضاق من المدارك ونزعاً لما فى الصدور من الغل والحقد ولكان مكرِّهاً إليهم الإلحاد والفسوق والعصيان والغش والخيانة ونقض العهود والمواثيق ومحبباً إليهم الإيمان الصادق ومزيناً إليه فى قلوبهم ومرغباً إليهم فى المسارعة إلى الخير والتنافس فى البر ومواساة المحتاجين والمعوزين ، وفى المسابقة إلى ما يرضاه الله ورسوله مع الإخلاص فى كل ذلك ليتقربوا به إلى الله زلفى عسى أن يصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم .

ولو حفظوها كذلك فى أعمال جوارحهم لكفوا ألسنتهم عن الكذب وقول الزور والسباب والغيبة والنميمة والتنابز بالألقاب وتمزيق الأعراض وسائر أنواع الهجر والفحش فى القول . ولأقلعوا عن السرقة والزنى والقتل والتعدى . وكيد المكايد وتدبير السوء ، وإتلاف بعضهم أموال بعض بكل الوسائل الشريرة كذلك لحفظ أصحاب الأموال أموالهم من إنفاقها رئاء الناس فى المباهاة والمفاخرة ، ومن إنفاقها أيضا فى أصناف الفجور والفسوق فى ملاعب الميسر وغيره .

وكذلك يكونون قد حفظوا عقولهم وأبدانهم وأنسابهم وأعراضهم وأقدار أسرارهم فلم يضيعوا أموالهم بانفاقها فى الخمور وغيرها من هذه السموم والمهلكات المفسدات للعقول الفاتكات بالأجسام بل السائقات إلى القبور .

كذلك كانوا يحفظون أسماعهم عن الفاحشة من الكلام والأكاذيب والمفتريات التى تفترى على الناس وعلى الله وعلى شرائعه الإلهية ، ولحفظوا أبصارهم عن المحرمات التى أنكرها دين الله تعالى والعقلاء من الناس[1] .

---

(١) مجلة نور الاسلام ٥١٣/١ حسن منصور .

لو حفظ المسلمون حدود الله لحفظهم ولوفاهم وعده الذى وعدهم فى قوله : (وَعد الله الذينَ آمنوا منكمْ وَعمِلُوا الصالحاتِ ليستخلِفنَّهم فى الأرض كما استخلف الذينَ مِنْ قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضىَ لهمُ وليبدِّلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومنْ كفرَ بعدَ ذلكَ فأولئك همُ الفاسقون) .

ولكنهم لم يحفظوا الله كما أمروا فلم يحفظهم ونسوا الله فنسيهم ووكلهم إلى أنفسهم فضاعوا وحق عليهم قوله سبحانه (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) وقوله (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) .

أما الكلمة الثالثة فهى : (إذا سألت فاسأل الله) ؛ فبعد أن علَّمه أن الله عز وجل معه بعلمه وهدايته كان من المحتم أنه إذا أراد أن يسأل شيئاً ما ، فإنما يسأل من يجده تجاهه وهو الله تعالى القريب الغنى الوهاب .

أى إذا أردت أن تسأل شيئاً ، فاسأل الله دون غيره أن يعطيك إياه من فضله . فإنه الغنى على التحقيق والمولى لكل خير وتوفيق ؛ وخزائن الجود بيده ، وأمرها إليه ، لا معطى ، ولا مانع سواه . قال عامر بن قيس قرأت آيات فى كتاب الله ، فاستغنيت بالله عن الناس منها قوله تعالى :

(وإنْ يُرِدْكَ بخَيْر ، فَلَا رادَّ لِفَضْلِهِ) ، وقوله : (وما مِنْ دَابَّة فى الأَرْضِ إلَّا علَى اللهِ رِزْقُهَا) ، (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دعاهُ ويكشِفُ السُّوءَ ويَجْعلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ؟ أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ ؟ قَليلاً ما تَذَكَّرُونَ ؟)

فالحديث يرشدنا إلى التوجه إلى الله بالسؤال وقَضاءِ الحَوائج ، فلانسأَل غير الله ، ونتوجه إليه وحده بالدعاءِ والرجاءِ ، فهو القائل: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) .

وجاء فى الحديث القدسى : (هل من داع فاستجيب لدعوته ، وهل من سائل فأعطيه سؤله ..)

وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يدعو ربه فيقول : (اللهم كما صنت وجهي عن الشرك فصنه عن المسأله لغيرك ، فإنه لا يملك الضر وجلب النفع سواك) .

وعلى كل حال من استعان بغير الله ذل ، وقد وجهنا الله تعالى إلى عبادته وحده والاستعانه به وحده ، وجعل ذلك فرضاً واجباً بالأعمال والأقوال : فكل مسلم يجب أن يتوجه إلى ربه ويناجيه بهذه الكلمات (إياك نعبد وإياك نستعين) ، أكثر من سبع عشرة مرة فى اليوم .

وقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة فى النهى عن مسألة المخلوقين ، فقد بايع النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئاً ، منهم أبو بكر وأبو ذر ، وثوبان .

بقى أن نعرف أن سؤال العبد لربه سبحانه له وسيلتان :

إحداهما : وسيلة اللسان يدعو ويتضرع مترجماً عن القلب الحاضر الخاشع المستشعر بعجزه وافتقاره إلى المولى الغنى القدير .

وثانيتهما : وسيلة العمل ، فالأعمال التى من شأن التاجر أو الصانع أو طالب العلم أن يعملها ، يجب عليه أن يكون ذاكراً لله تعالى وقت قيامه بها ، متوجهاً إليه سبحانه حينما يعانيها ويقاسى ما صادفه فيها ، رجاء أن يسدده ويوفقه لينال من علمه وعمله ونصبه عاقبة محمودة عند الله .

والكلمة الرابعة قوله عليه الصلاة والسلام : (وإذا استعنت فاستعن بالله) أى إذا طلبت الإعانة على أمر من أمور الدنيا والدين ، فلا تنشد الإعانة إلا من الله تعالى ، لأنه القادر على كل شىء ، وغيره عاجز عن كل شىء ، فاستعانة المخلوق بالمخلوق كاستعانه السجين بالسجين ، فلا تنتصر إلا بالله ، فهو الولى الناصر ، ولا تعتصم إلا بحبله ، فهو العزيز القادر .

وقد اشتملت هذه الوصية النبوية أولا على تعليمين عظيمين :

أولهما : تذكير الإنسان بأنه عاجز محدود القدرة لا يتيسر له أن ينال رغائبه وحده ، وفى هذا تعليم وتهذيب عظيم لما فيه من تعريف لإنسان قدر نفسه ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه فلم يتعد طوره .

وثانيهما : تعليم الإنسان أن قدرة المولى تبارك وتعالى ليس لها حد تقف دونه . لا يغالبها مقدور . ولا يفلت منها هارب . فكان الله تعالى لذلك هو العزيز القهار الغالب على أمره . وما من ممكن إلا وهو سبحانه آخذ بناصيته . وما من شيء في السموات والأرض إلا وقد نفذ فيه أمره وحكمه ، كما قال عز سلطانه (وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) . وقال :

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) .

فإذا عجزت قدرة مخلوق عن شيء ولم تصل يدها إلى أن تتناوله ولم تستطع إلى الاحتيال على الوصول إليه سبيلا . وجب على ذلك المخلوق العاجز أن يستعين بالقادر الذي لا يعجزه مقدور في الأرض ولا في السماء وهو الله تعالى واهب القدر فالواجب على المسلم أن يتوجه إلى الله القريب المجيب بالسؤال والاستعانة . رجاء أن يسدده ويوفقه إلى معرفة الأسباب الصحيحة . ويهديه إلى الصراط المستقيم الذي يصل منه إلى ما يبتغيه . وأن يمده ويعنيه بالوسائل التي جهلها أو عجز عنها ولا يقدر عليها إلا الله العليم القدير . وأن يحفظه من الزلل والخطأ فيها . وأن يحوطه بدوام رعايته وهدايته حذراً من الانحراف عن جادتها القويمة .

وإن العبد بإزاء الأمر الذي يحاوله سواء أكان تحت قدرته أم كان فوقها . يجب عليه أن يسأل الله تعالى قولا وعملا ويستعينه في الحصول عليه ، فإن كان ذلك الأمر في مقدور العبد فسؤاله واستعانته بالله أن يضرع إليه ليديم له الهداية والاستقامة على سنن الصواب . وإن كان في غير مقدوره استوهبه أن يتولى سبحانه ما عجز هو عنه ويمده بما لم تصل إليه قدرته الإنسانية المحدودة . فهو في كلتا الحالتين فقير كل الفقر إلى مولاه القادر الغنى الكريم . متوكل عليه منيب فيما يأتي ويذر .

وخلاصة القول في هذه الوصايا الأربع أن الله تعالى قد حدّ لعباده حدودا إذا حفظوها حفظهم وهو خيرٌ حافظاً . وحرسهم بعين رعايته وعنايته ، وأنهم إذا سألوا شيئاً وجب عليهم أن يخصوه سبحانه وحده بالسؤال

في أقوالهم وأعمالهم ، وأنهم إذا استعانوا وجّهوا وجوههم له سبحانه وتعالى وحده . . .

وبعد ذلك انتقل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى تعليم ابن عباس الأصل الذى عليه مدار هذه الوصايا جميعها . والأساس الذى تدور عليه . فقد قفى هذه الوصايا الأربع بوصيتين أخريين هما ثمرة طيبة وعاقبة حميدة لها . تزيد ابن عباس رضى الله عنهما ومن اقتفى أثره إيماناً على إيمانه وترغبه أيما ترغيب فى الحرص على العمل بها . وتملأ نفسه المطمئنة حسن اعتماد وتوكل . ووثوق بوعد الله الذى لا يخلف وعده .

هاتان الوصيتان هما أن مصدر النفع والضّر فى الحقيقة إنما هو الله عز وجل وهما اللتان تضمنهما الاسمان الجليلان (الضار والنافع) من أسمائه الحسنى .

ولا جدال فى أن ابن عباس رضى الله عنهما قد علم السبب فيما تضمنته الوصيتان المذكورتان .

وقد فقه تمام الفقه منشأ كون النفع والضر إنما هو بيد الله وحده : وذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام قد علمه فى الوصايا الأربع الأولى أن حفظ الله تعالى وكلاءته له . وأن قربه سبحانه منه كأنه تجاهه . وأن استجابته له إذا سأله بقوله أو عمله . وأن إعانته واستعانته له إذا استعانه . كل ذلك معاملة حسنة نافعة مختصة بالله تعالى لا يقدر عليها سواه . فيعامل بها ابن عباس إذا عمل بما علمه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قال إنه بضدها تتميز الأشياء . فيكون الضر بدلا من النفع . والشر عوضاً عن الخير ، إن فرّط فى هذه الوصايا مفرط . أو أعرض عنها معرض . فكما أن عاقبة النفع الطيبة مختصة بالله تعالى لأنها ثمرة طاعة أمره . كذلك عاقبة الضر المكروهة مختصة به لأنها نتيجة عصيان أوامره والوقوع فى منهياته [1] .

ولذا فقد قال عليه الصلاة والسلام : (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك . وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك (وفى رواية :

---

(١) مجلة نور الاسلام ١/٥٩٩ وما بعدها .

(فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله تعالى لم يقدروا عليه ، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه) .

فان العبد إذا علم علم اليقين أن لن يصيبه إلا ما كتبه الله من خير وشر ، ونفع وضر ، وان إجماع الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد ، علم البته أن الله وحده هو الضار النافع المعطى المانع ، وانه إذا أراد أحد أن يضره بما لم يكتبه الله عليه ، دفعه الله عنه بصرف ذلك الأحد عن مراده بعارض من عوارض القدرة الباهرة ، مانع من الفعل من أصله ، ومن تيقن من ذلك كله ، أوجب له توحيد الله تعالى ، وحفظ حدوده ، وإفراده بالطاعة والخوف والرجاء ، والمحبة والسؤال ، والتضرع بالدعاء ، والاستعانة والتعرف إليه فى حالتى الشدة والرخاء لقوله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فى نفس هذا الحديث الذى نحن بصدده : (تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة) ، والمراد بالرخاء الغنى والقوة ، والمعنى : أن الإنسان إذا عرف طريق ربه . وأدى حقوقه وهو فى غنى ويسار ، فمقتضى ذلك أن البطر لم يركبه إن شكر النعمة وقدرها ، ولذلك إذا عرضت له شدة أو ابتلاء كان الله معه : يعينه وينصره . وقد جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى : (من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر الدعاء فى الرخاء) ، وليس المراد بالدعاء هنا مجرد الترديد لكلماته بلا وعى أو تأثير أو انفعال ، بل يجب قرن ذلك بالاستجابة والعمل الصالح والعبادة المستقيمة .

وقال الضحاك بن يونس : (اذكروا الله فى الرخاء يذكركم فى الشدة) .

وقال أبو الدرداء : (ادع الله فى يوم سرائك . لعله أن يستجيب لك فى يوم ضرائك) .

ومن التعرف إلى الله فى الرخاء أن يذكر الإنسان الموت وهو فى صحته وشبابه حتى لا يغتر بهما .

وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسلوبه الحكيم هذا الأمر العظيم بقوله : (واعلم أن الأمة ..) حثاً على تعيين أن لا نفع ولا ضر إلا من الله . والمراد بالأمة هنا جميع الخلق كما جاء فى الروايات الأخرى : (فلو أن الخلق كلهم جميعا) وهى تدل وضعاً على الجماعة . واتباع الأنبياء .

وقد أنث الفعل فى قوله : (اجتمعت) باعتبار اللفظ ، وذكر مابعده ، باعتبار المعنى .

والإيمان بهذه الحقيقة الكبرى يجعل الإنسان لايهاب عبداً من العباد مهما كانت منزلته . ومهما كانت سلطته ، لأن الله تعالى هو المعز المذل ، وبيده مقاليد الأمور كلها :

(قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ ، تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ منْ تَشَاءُ ، وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كلِّ شَىْءٍ قَدِير) .

وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة الهائلة فى هذا الحديث بشتى أنواع المؤكدات وهو يربى شباب الأمة على عزة الإيمان ، وقوة المؤمن وعظمته ، فقوله : (فلو أن الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يقضه الله تعالى لم يقدروا عليه) فمعنى هذه الجملة أن النفع بيد الله وحده ، فلا نافع على الحقيقة إلا الله ، وفى المقابل فانه وحده الذى يملك الضُّر ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام المربى العظيم الذى يربى الأمة على هذه المبادىء العظيمة لا يكتفى بذكر هذه الحقيقة بل يكررها ويؤكدها بقوله : (ولو أرادوا أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه) فالله وحده هو الذى يملك النفع والضر ، وهذه الحقيقة مأخوذة من قوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا) . وقوله تعالى : (ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَة فى الأَرْضِ وَلَا فى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فى كِتَاب مِنْ قَبْل أَنْ نَبْرأَهَا) . .

فمن كل هذا يتبين لك أن الأمة لو اجتمعت على أن تنفع فلانا أو تضره . فانها لن تستطيع أن تنفعه أو تضره إلا بشيء قد كتبه الله العليم الحكيم في علمه أزلا . أما تلك الأمة التي اجتمعت على أن تنفع أو تضر . فانما هي مظهر من مظاهر أقضية الله تعالى وأحكامه الأزلية ووسيلة من الوسائل التي أجرى على طبقها شؤونه في خلقه وتصرفاته فيهم .

(فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .

وبعد أن بين الرسول صلى الله عليه وسلم لابن العباس الأصل الشامل والأساس الكلي . أراد أن يبين له كذلك قدم كتابته المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد . وأن الأمور قد استقرت وانتهت منذ شاء الله . وأنه لا تأثير لأية محاولة ترمى إلى تبديل أو تغيير فيما جرى به القدر . وحكم به القضاء ، فقال له : (رُفِعت الأقلام وجفت الصحف) . أى تركت الكتابة بها ، لفراغ الأمر وانبرامه . وتمت كتابة ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، ويبست كتابة الصحف . فلا يمكن بعد ذلك أن يقع فيها تبديل أو نسخ لما كتب واستقر . وهذا من أحسن الكنايات . وأبلغ العبارات عن قدم تسجيل المقادير والانتهاء منها .

فأنت ترى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ختم وصاياه الجليلة السابقة بهذه الوصية وهى :

(جفت الأقلام وطويت الصحف) وفى رواية : (جف القلم بما هو كائن) ...

فلما عبر صلوات الله وسلامه عليه فى الوصيتين السابقتين بالكتابة ، قضت البلاغة النبوية التى أعطى صاحبها جوامع الكلم ، أن يعبر عن هذه الوصية بالأقلام وجفافها والصحف وطيّها .. وهذه كناية عن أقضية الله تعالى الأزلية . وأحكامه التى حكم بها فى علمه القديم . أقضية مسجلة ، وإحكام ثابته لا يعتريها تغيير ولا يمسها تحويل ، كما قال سبحانه : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم) .

ثم ختمت هذه الوصايا جميعاً بقوله صلى الله عليه وسلم : (واعلم أن صبر على ما تكره خير كثير ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الشدة ، وأن مع العسر يسرا) .

وهى وصية عظيمة تثبت دعائم الإيمان فى النفس البشرية ، وتقوى ركائزه .. فالإيمان نصف صبر ونصف شكر ، ولا أعظم من الصبر على المكروه ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى .

فهنا أرشد النبي الكريم أنه إذا أصابك مكروه أو ابتلاء . واحتملته فى سبيل الله : جاءك من وراء ذلك خير كثير .. وقد قال تعالى :

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) .

وهذا الكلام الطيب مترتب على الوصايا السابقة وهو ثمرة لها . كالمقدمة والنتيجة . فمن آمن بقضاء الله وقدره . ورضى به بذلك عن يقين تام ، فانه لن يهلع عند حدوث المصيبة . ولن يبطر عند حصول النعمة . فالمؤمن إذا أصابته نعماء شكر . وإذا أصابه ضراء صبر . وأمره دائماً بين الصبر والشكر . وقد قال تعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ،وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعُونَ) .

وقد جاء فى الحديث إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم . فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط) .

ومن الكلمات النوابغ المأثورة عن خامس الخلفاء الراشدين — عمر ابن عبد العزيز رحمه الله —

قوله : (أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع القضاء والقدر) . فهو لا يجد لذته إلا فيما تأتيه به المقادير .

ثم قال الحديث : (واعلم أن النصر مع الصبر) ، وهذه قاعدة لا تخطىء ، وحقيقة هائلة تعمل عملها فى النفوس لو استقرت فى أعماق القلوب .

والنصر والنصرة هو العون : (إن تنصروا الله ينصركم) ونصرة الله للعبد ظاهرة ، ونصرة العبد لله هو نصرته لعباده والقيام بحفظ حدوده ورعاية عهوده واعتناق أحكامه ، واجتناب نهيه .

أما الصبر ففيه معنى الاحتمال والثبات ورسوخ العزيمة ، وكما يكون الصبر الحسى سبباً للنصر المادى يكون الصبر النفسى سبباً للنصر المعنوى ، فان الإنسان إذا صبر عن الآثام والمنكرات انتصر على نفسه الأمارة بالسوء وانتصر فى مجال التطهر والتحصن والفضيلة . قال الراغب الأصفهانى(١) : (الصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيه حبسها عنه ، فالصبر لفظ عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه فان كان حبس النفس لمصيبة سمى صبراً لا غير ويضاده الجزع ؛ وإن كان فى محاربة سمى شجاعة ويضاده الجبن ، وإن كان نائبة مضجرة سمى رحب الصدر ويضاده الضجر ، وإن كان فى إمساك الكلام سمى كتماناً ويضاده المذل ، وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبراً) .

وقد قال تعالى : (اصبروا وصابروا ورابطوا) ، أى احبسوا أنفسكم على العبادة وجاهدوا أهواءكم . وقوله تعالى : (واصطبر لعبادته) . أى تحمل الصبر بجهدك . وقوله تعالى

(أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا) ، أى بما تحمّلوا من الصبر فى الوصول إلى مرضاة الله .

ثم قال الحديث : (وإن الفرج مع الكرب) ، والكرب هو الغم الشديد ، قال تعالى

(فَنَجَّيْنَاهُ وأَهْلَهُ من الْكَرْبِ الْعظِيمِ) .

والكربة كالغمة ، أصل ذلك من كرب الأرض وهو قلبها بالحفر ، فالغم يثير النفس إثارة ذلك . وقد وقد يوصف بأنه عقدة على القلب . وهذا

---

(١) مفردات القرآن ٢٧٣ .

إرشاد إلى عدم اليأس والقنوط فان من شأن المؤمن الذى آمن بقضاء الله وقدره أن لا ييأس ، بل يتصل منه الرجاء حتى يصل ويفوز مصداقاً لقوله تعالى :

(إِنَّهُ لَايَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا القومُ الكَافِرُون) .

ثم قال الحديث : (وإن مع العسر يسرا) . والعسر نقيض اليسر ، قال تعالى (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسرًا) والعسر هوالشدة والضيق والصعوبة . واليسر هو التسهيل واللين والتوفيق .

وهذه العبارة الكريمة تشير إلى أن العسر لا يدوم . فان عرضت لك اليوم شدة فسيعقبها الفرج بمشيئة الله .

(سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)

فلن يغلب العسريسرين ، ويقول الحديث : (لو جاء العسر فدخل فى هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه) .

وقال الشاعر :

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

فهما اشتدت الأمور ، فان الفرج سيأتى ، ومهما اشتدت حلكة الليل فسيعقبه بياض الفجر .

وبعد : فقد رأيت أن هذا الحديث يعد معجزة بلاغية عظيمة بما تضمنه من هذه الوصايا الجامعة ، والكلمات التامة ، التى علمها رسول الله المربى العظيم لابن عباس . وقد سماها عليه الصلاة والسلام (كلمات) وهى بحق كلمات موجزات ، ولكنها جامعات للخير كل الخير ، وهى وأمثالها من الامتيازات الكبرى والخصائص العظمى للبلاغة النبوية ، وهو اجتماع الكلام بقلة ألفاظه مع إتساع معناه وإحكام أسلوبه فى غير تعقيد ، وإطراد ذلك فى كل معنى وفى كل باب شىء لم يعرف لأحد قبله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان إيجازه فى غير تكلف ولا عناء مع بلوغ الغاية مصدر إعجاب الأصحاب به وتعجبهم من مسلكه . فهذا أبو بكر رضى الله عنه يقول :

(لقد طفت بالعرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فن أدبك ؟
فقال صلى الله عليه وسلم : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) .

وقد روى أبو على البغدادى فى أماليه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان جالساً فنشأت سحابة فقال فيها ما قال . حتى قال الصحابة : يارسول الله ما رأينا الذى هو أفصح منك . قال : وما يمنعنى : فانما أنزل القرآن بلسان عربى مبين) .

وهذا ما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يتحدث بنعمة الإيمان فيقول : (أوتيت جوامع الكلم . واختصر لى الكلام اختصاراً) . فقد كان صلى الله عليه وسلم موجز اللفظ يقصد إلى الهدف ويهدف إلى الجادة فى القول كما هدى إليها فى الفعل . وهى من خصائص النبوة وآيات العبقرية . ولهذا وصفت البلاغة بين الأدباء بأنها الإيجاز . .

ولا يمنع هذا أنه قد أطنب فى بعض خطبه لزيادة تقرير المعنى وإيصاله إلى السامع .

ففى كلام النبى نوع من الاطناب يسمى « التوشيع » . ولكن الغالب على كلامه صلى الله عليه وسلم هو « الإيجاز » . كما وصفه الجاحظ : (هو الكلام الذى قل عدد حروفه . وكثر عدد معانيه . وجل عن الصنعة . ونزه عن التكلف) . كما نرى فى هذا الحديث وأمثاله ! !

١٠ ـ الإحسان واجب في كل شيء

عن شَدّاد بن اوس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :(إنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء فإ ذا قَتَلْتُم فأحْسنُوا القِتْلَةَ وإذا ذَبَحْتُم فأحْسِنُوا الذِّبحة ، وليحدَّ أحدُكم شَفْرَتَه ، ولِيرُحْ ذبيحته)

(رواه مسلم)

المعاني والتصويـــر :

هذا الحديث النبوي الشريف من القواعد الجامعة للإسلام ، وهو بغية السالكين وكنز العارفين ، ودأب الصالحين ، وهو من جوامع الكلم الطيب التي أوتيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهو حديث جليل ، عظيم الشأن ، لأنه يحث على الرحمة حتى بالحيوان الأعجم ، فإن الرفق من صفات الإسلام وخلق المؤمن ، والإسلام هو شرعة الإحسان في كل شيء .

وقد روى هذا الحديث برواية ثانية تقول : (إنَّ الله عز وجل محسن فأحسنوا فإذا قَتَل أحدكم فلْيُحسن مقتوله ، وإذا ذبح فليحد شفرته ، وليرح ذبيحته) كما روى برواية ثالثة تقول : (إذا حكمتم فاعدلوا ، وإذا قتلتم فأحسنوا ، فإن الله محسن يحب المحسنين) .

وهكذا يستهل الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام هذا الحديث الجامع بهذه الجملة الإسمية المؤكدة بشتى أنواع المؤكدات ، حيث شاركت كل كلمة من كلماتها الدقيقة المختارة في إبراز هذه الحقيقة الخطيرة (الإحسان) وتثبيتها في عالم النفس والحس والضمير بما تلقيه هذه الكلمة في نفس المسلم وحسه من ايحاءات وتلقينات مستمرة المدى إلى يوم الدين .

فقد بدأت الجملة بكلمة (إنَّ) المؤكدة ، ثم جاء لفظ الجلالة (الله) بعدها صريحا لتربية المهابة في نفس المؤمن وتذكيره الدائم بالله سبحانه وتعالى ، ثم قدم لفظ الجلالة على الفعل لما لا يخفى في ابراز هذه الحقيقة وتوكيدها ومن هنا فقد عدل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الخطاب بالجملة الفعلية الى الجملة الاسمية التي تفيد التوكيد والاستمرار ، فالفرق كبير بين الجملتين الفعلية والاسمية ، ولذا لم يقل : كتب الله الإحسان في كل شيء) بل عدل الى الجملة الاسمية المصدرة بحرف التأكيد (إنَّ) . وذلك لأن الجمل الفعلية تستخدم للدلالة على التجدد والحدوث ، والجمل الاسمية للاستمرار والثبوت ، وهنا أفادت الجملة الاستمرار الثبوتي ، وهذا أوكد وأبلغ .

قال صاحب البرهان في علوم القرآن : (إن الفعل يدل على التجدد والحدوث ، والاسم على الاستمرار والثبوت) .

ولم يكتف الأسلوب النبوي الشريف باستعمال الجملة الإسمية وتأكيدها ب(إنَّ) المؤكدة ، وذكر لفظ الجلالة بعدها (الله) وهو أعم أسمائه سبحانه وأشملها ، بل دقق عليه الصلاة والسلام في اختيار كلماته ، فالكلمة عنده دقيقة مختارة ، بل هي أدق من السحر وأهول من البحر ، فقد شاركت كلمات الحديث في تأكيد هذه الحقيقة مشاركة عظيمة ، حيث أن كلمة (كتب) تعنى (الايجاب) و (الإلزام) و (الفرض) و (القطع) . ولكن هذه الكلمة(كتب)تزيد على هذه المعاني التي وضعها لها اللغويون . وهذا هو سرّ اختيار الرسول الكريم لها .

ولكي يتضح لك ذلك جلياً تعال نتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمه في استعمالات في القرآن الكريم ميزان العلوم جميعاً ، وكتاب العربية الخالد . فلو رجعنا الى القرآن لوجدناه يعبر عن الإثبات والتقدير والإيجاب والفرض والعزم بالكتابة ، ووجه ذلك أن الشيء يُراد ثم يقالُ ثم يُكتب ، فالإرادة مبدأ والكتابة

منتهى .. ثم يعبر عن المراد الذي هو المبدأ إذا أريد توكيده بالكتابة التي هي المنتهى ، قال الله تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) وقال : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) وقالَ : (كتب عليكم الصيام) وقوله (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس) وقوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) .

وكذلك جاء في السنة المطهرة قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن قيام رمضان (إني خشيت أن يُكتب عليكم) ، أي يفرض ، لأنه سنة .

ومن هنا فكلمة (كتب) في القرآن والسنة تستعمل بمعنى الوجوب والفرض والإلزام . فقوله (إن الله كتب الإحسان) بمعنى أوجبه وفرضه وألزمه . وهكذا تجد الدقة المتناهية بين التعبير والمعبر عنه ، عدا ما لهذه الكلمة من وقع خاص في نفس المسلم الذي يقرأ القرآن ويستمع الى أحاديث الرسول إذ أنها دوماً مرتبطة بالأوامر المهمة العظيمة الشأن التي لا يجوز التقصير في شأن من شؤونها مهما صغر ، فهي مقترنة بالفرائض التي فرضها الله على عباده ، وبهذا جعل التعبير النبوي السامي (الاحسان) في مرتبة الفرائض ، وليس من قبيل الأعمال الاختيارية التي يجوز التفريط في بعضها والقيام بالبعض الآخر .

فهي ليست مرادفة للايجاب والفرض والإلزام بل تتضمن هذه المعاني جميعها وتزيد عليها ما ذكرته .

وهذه خاصية من أخص خصائص الأسلوب النبوي المعجز الذي لا يرى التهاون في استعمال اللفظ ، ولكنه يختار الألفاظ الدقيقة المعبرة عن معانيها أصدق تعبير وأشمله وأكمله ، فهو صلى الله عليه وسلم يستحضر في ذهنه معاني الجمل ، ويستحضر جميع ما يلائمها من هذه الألفاظ ، فيعبر عن المعنى بأفصح الألفاظ وأبلغها ، إذ يضع الكلمة المعبرة عن المواقف والأحداث ، والمصورة لخلجات النفوس وخطرات الضمائر أصدق تعبير .

ولا أدل على ما نقول من اختياره صلى الله عليه وسلم لكلمة (الإحسان) تلك الكلمة الجامعة لكل خير ...

فالإحسان كلمة جاءت من مادة (الحُسن) وهو ضد القبيح ، والمحاسن من الإنسان هي ضد المساوىء .. والإحسان هنا يتضمن معنى الاتقان ، وإقامة الشيء على وجهه الذي تقتضيه الحكمة والعدل والإصلاح .

فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الله كتب الإحسان في كل شيء) ، أي أوجب الله على الإنسان أن يحسن ويتقن كل شيء . وأصل معنى الإحسان في اللغة : من الحُسْن وهو عبارة عن كُلٍّ مبهج مرغوب فيه ، وذلك ثلاثة أضرب : مستحسن من جهة العقل ، ومستحسن من جهة الهوى ، ومستحسن من جهة الحِسِّ . والحسنة يعبر بها عن كل ما يَسُرّ من نعمة تنال الإنسان نفسه وبدنه وأحواله ، والسيئة تضادها ، وهما من الألفاظ المشتركة كالحيوان الواقع على أنواع مختلفة كالفرس والإنسان وغيرهما .

والإحسان : يقال على وجهين أحدهما الإنعام على الغير يقال أحْسَنَ إلى فلان . والثاني إحسان في فعله وذلك إذا علم علماً حسنا أو عمل عملاً حسناً ، وعلى هذا قول أمير المؤمنين رضي الله عنه (الناس أبناءُ ما يُحْسِنُون) ، أي منسوبون إلى ما يعلمون وما يعملونه من الأفعال الحسنة . ومنه قوله تعالى : (الذي أحسن كل شيء خلقه) .

والإحسان أعم من الإنعام ، قال تعالى : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) وقوله : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) فالإحسان فوق العدل ، وذلك أن العدل هو أن يُعْطِي ما عليه ويأخذ ما له والإحسان أن يُعْطِي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له ، فالإحسان زائد على العدل فتحرى العدل واجب وتحرى الإحسان نَدْب وتطوع وعلى هذا قوله تعالى : (وَمَنْ أَحْسَنُ ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) وقوله عز وجل (وأداء إليه بإحسان) ولذلك

عظم الله تعالى ثواب المحسنين فقال تعالى (وإن الله لمع المحسنين) وقال :
(إن الله يحب المحسنين) .

فالإحسان مصدر ، تقول : أحسن يحسن إحساناً . ويتعدى بنفسه وبغيره تقول : أحسنت كذا إذا أتقنته ، وأحسنت إلى فلان إذا أوصلت إليه النفع . والأول هو المراد لأن المقصود إتقان العبادة .

وقد يلحظ الثاني بأن المخلص مثلاً محسن بإخلاصه إلى نفسه وإحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبة المعبود .

وقوله صلى الله عليه وسلم في تعريف الإحسان (اعبد الله كأنك تراه) أشار بذلك إلى حالتين : أرفعهما أن يغلب مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه وهو قوله (كأنك تراه) أي وهو يراك .

والثانية : أن يستحضر أن الحق مطلع عليه يرى كل ما يعمل ، وهو قوله (فإنه يراك) . وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته ، وقد عبر عن ذلك في وصيته لأحد الصحابة (أن تخشى الله كأنك تراه) .

وقال النووي : معناه أنك تراعي الآداب المذكورة إذا كنت تراه ويراك ، لكونه لا لكونك تراه فهو دائماً يراك ، فأحسن عبادته وإن لم تره . فتقدير الحديث:فإن لم تكن تراه فاستمر على إحسان العبادة فإنه يراك .

وقال الرازي في تفسيره : العدل في الطاعات هو أداء الواجبات ، أما الزيادة على الواجبات فهي أيضاً طاعات ، وذلك من باب الإحسان ، وبالجملة فالمبالغة في أداء الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية هو الإحسان ، والدليل عليه أن جبريل عليه السلام لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الاحسان قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . فإن قالوا : لِمَ سمي هذا المعنى بالإحسان ؟ قلنا : كأنه بالمبالغة في

الطاعة يحسن إلى نفسه ويوصل الخير والعقل الحسن إلى نفسه .

ولقد تكرر ذكر الإحسان في القرآن في مواضع كثيرة : تارة مقروناً بالإيمان ، وتارة مقروناًبالإسلام ، وتارة مقروناً بالتقوى أو بالعمل الصالح .

فالمقرون بالإيمان كقوله تعالى : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين) . وقوله : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملا) .

والمقرون بالإسلام كقوله تعالى : (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه) .

والمقرون بالتقوى ؛ كقوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى في الجنة ، وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان ، لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته فكان جزاء ذلك النظر الى وجه الله عياناً في الآخرة . وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الإحسان بقوله : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . وهذا يؤدي إلى كمال الخشية والهيبة ، وإتيان العبادة على وجهها ، ولذلك قال أبو ذر : (أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم ، أن أخشى الله كأني أراه ، فإن لم أكن أراه فإنه يراني) .

وروى الطبراني أن رجلاً قال : يا رسول الله ، حدثني بحديث واجعله موجزاً ، فقال : (صَلِ صلاة مودع ، فإنك إن كنت لا تراه فإنه يراك) .

وهذا يوجب النصح في العبادة وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها .

وفي حديث حارثة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . قال النبي صلى الله عليه وسلم : انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة قال : يا رسول الله : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة كيف يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار في النار كيف يتعاوون فيها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : أبصرت فألزم ، عبد نور الإيمان قلبه) .

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم للإحسان درجتين : الأولى هي أن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه ، وهناك درجة تالية ، فإن لم يستطع العبد الأولى فعليه بالثانية . وهي : (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) ، أي فإن شق على العبد الوصول إلى درجة الصفاء التي تجعله كأنه يرى ربه وهو يتعبد ويعمل ، فليستعن على ذلك بإيمانه وتذكره أن الله يراه ويطلع عليه ويدرك سره وعلانيته وباطنه وظاهره ؛ فإذا تحققت هذه المنزلة ، أصبحت المنزلة الأولى قريبة منه .

وقد وصى النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة بهذه الوصية . فقد وصى رجلاً فقال له : (استحى من الله استحياءك من رجلين من صالحي عشيرتك لا يفارقانك) . ويروى عن معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمس فقال : (استحي من الله كما تستحي من رجل ذا هيبة من أهلك) .

وقال بعض العارفين من السلف : من عمل لله على المشاهدة فهو عارف ، ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص) .

والناس يتفاوتون في هذا الميدان بحسب إخلاصهم . وقد اشار القرآن المجيد في أكثر من موطن إلى أنّ الله مع الإنسان يراه ويطلع عليه، فقال (وهو معكم أينما كنتم) وقال : (ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة

إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا) وقال(وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) .

وبعد : فهذه الكلمة (الاحسان) من جوامع الكلم الطيب التي أوتيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنَّه لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى ولم يترك شيئاً يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها الا أتى به فقال صلى الله عليه وسلم (اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان) فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد فينفي أن يعمل بمقتضاه فمقصود الكلام الحث على الاخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك .

وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مطلعاً عليه في سره وعلانيته . قال القاضي عياض رحمه الله : وهذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ، ومتشعبة منه .

ومن ثم فالحديث واسع شامل يشمل كل عمل وكل فكرة وكل شعور . إنه بنص اللفظ يشمل (كل شيء) . هكذا على الاتساع (إن الله كتب الإحسان في كل شيء) أي أوجب الإحسان في كل الأمور .

وقد عرفنا ـ أن لفظ الكتابة يقتضي الوجوب عند أهل اللغة والفقهاء والأصوليين ، وإحسان كل شيء بحسبه ، فالإحسان في الإتيان بالواجبات

الظاهرية والباطنية الإتيان بها على وجه الكمال .

والإحسان هنا يتضمن معنى الإتقان ، وإقامة الشيء على وجهه الذي تقتضيه الحكمة والعدل والإصلاح .

فإن الإسلام لا يكتفي بأداء الواجبات على أية صورة ، وكيفما اتفق ، وإنما يوجب الاتقان في الأداء .. ولذا فقد قال صلى الله عليه وسلم (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه) ... فالمطلوب هو الاتقان والإخلاص الذي تصحبه المشاعر الإنسانية ويصحبه الإحسان بالله في قرار الضمير ، والعمل من أجل خشيته ومن اجل مثوبته : (تعبد الله كأنك تراه) .

وتحقيق أصل الإحسان في كل شيء واجب ، ثم يأتي بعد هذا الأصل اللازم درجات ، يكون فيها الإحسان مندوباً ، كصدقة التطوع بعد إحسان أداء الزكاة ، وكمضاعفة البر للوالدين بعد واجب الإحسان إليهما ، وكإتقان النوافل بعد أداء الصلوات المفروضة .. وهكذا ..

والإحسان الواجب في معاملة الخلق ومعاشرتهم هو القيام بما أوجب الله من حقوق ذلك كله .

والإحسان الواجب في ولاية الخلق هو القيام بواجبات الولاية كلها والقدر الزائد على الواجب في ذلك كله إحسان ليس بواجب .

والإحسان كذلك ألوان وأنواع : فهناك إحسان العبد مع ربه ، بإخلاص العبادة له ، والاجتهاد في أداء ما أوجب واجتناب ما حرم ، والإحسان الى الوالدين ببرهما وعدم ايذائهما ولو بأقل كلمة تسوء ، والإحسان إلى النفس بتطهيرها وتزكيتها : (ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) . الخ

وبعد أن تم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الأسلوب البليغ تقرير

شرعة الإحسان في كل شيء شرع في ضرب بعض الأمثلة على مواطن الإحسان ، فاختار مثلين ، وهما القتل والذبح ، لأنهما مظنة الإهمال للإحسان ، ولا يلقى لهما بال ، لأن بهما يكون إفناء الحياة ، فيغيب عن البال الإحسان في هذا العمل العنيف الذي يتم به إزهاق الأرواح !!

فقال أولاً : (فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة)

والقِتْلة بكسر القاف وسكون التاء هي الهيئة والحالة التي يكون عليها القتل ، وهذا بطبيعة الحال فيمن شرع الاسلام قتله . والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب هو إزهاق أرواحهم على أسرع الوجوه وأسهلها من غير زيادة في التعذيب ومبالغة في الايلام ..

والقتل المباح يقع على وجهين : أحدهما : قصاص ، فلا يجوز التمثيل منه بل يقتل كما قتل . ويكون قتله بإحسان كأن يقتل بالسيف ، دون أن نعذبه أو نمثل به ، ولا نتعمد إطالة إيذائه ، بل يتم القصاص في حدوده العادلة ، بحيث تخرج روحه في أسرع وقت ممكن ، وبأسهل طريق مستطاع . يقول الله تعالى : (ومن قُتِل مظلوماً فقد جعلنا لوليِّه سلطاناً ، فلا يُسرِفْ في القتل ، إنه كان منصورا) .

وأسهل وجوه قتل الآدمي ضربه بالسيف على العنق كما قال الله تعالى في حق الكفار : (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) وقال (سألقي في قلوب الذين كفروا الرُّعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) فعين الموضع الذي يكون الضرب فيه أسهل على المقتول ، وهو فوق العظام دون الدماغ !! وكذلك إذا قتل الإنسان شيئاً من الحيوانات أو الزواحف التي شرُع قتلها لدفع أذاها ، فيجب أن يتم ذلك في إحسان وإتقان . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أخف الناس قتلة أهل الإيمان) وقال (من مثَّل بذي روح ، ثم لم يتب مثَّل الله به يوم القيامة) ...

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية تغزو في سبيل الله قال لهم : لا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً .

وروى الإمام أحمد من حديث ابن مرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(لا تمثلوا بعبادي)

وروى أيضاً من حديث رجل من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من مثّل بذي روح ثم لم يتب مثَّل الله به يوم القيامة) .

ثم قال الحديث الذي معنا : (وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة)

والذِّبحة : بكسر الذال هي الهيئة والحالة التي يكون عليها الذبح أي يجب علينا عند ذبح الحيوان المأكول أن نحسن ذبحه .

وقد روى الإمام ابن حزم الإجماع على وجوب الإحسان في الذبيحة ، ولذلك وسائل : منها أن يريح ذبيحته عند اضطجاعها ، وأن يجعل شفرته (سكينه) حادة ماضية ، حتى لا تُتعب في الذبح ، ولذلك قال (ولِيُحِدَّ أحدكم شفرته) فيقال : أحَدَّ السكين وحدّدها مسحها بحجر أو مبرد حتى تصير حديدة مسنونة .

والشَّفرة : بفتح الشين السكين العظيم .

كل هذا التشديد من رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريقة الذبح وآلته ، حتى لا يطول الألم على الحيوان ، ولذلك أوصى أيضاً بعدة وصايا أخرى منها: إخفاء السكين إلى وقت الذبح بالفعل، فلا يجعلها أمام عيني الحيوان ، ولا يحدها أمام بصره ، وأن يقطع الأوداج ، وهي عروق العنق ، ليعجل بخلاص روح الذبيحة منها ، فلا يطول تعذيبها ، كما كانوا في ظلمات الجاهلية يقطعون من الذبيحة الشيء اليسير ، ثم يدعونها حتى تموت !!

ولقد وردت أحاديث وآثار وأخبار كثيرة في النهي عن القسوة في الذبح منها : روى الطبراني والخلال من حديث عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل واضع رجله على صفحة شاة وهو يحُد شفرته وهي تلحظ إليه ببصرها فقال : أفلا قبل هذا ؟ تريد أن تميتها موتات .

وقال الإمام أحمد : تقاد إلى الذبح قوداً رفيقاً وتوارى السكين عنها ولا يظهر السكين إلا عند الذبح .

وقال النووي في شرح مسلم : يستحب أن لا تحد السكين بحضرة الذبيحة وان لا يذبح واحدة بحضرة أخرى ولا يجرها إلى مذبحها . وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو يجر شاه بإذنها ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم (دع أذنها ، وخذ بسالفتها) ، أي بمقدم عنقها !!

وروى عن ابن عطاء أن جزاراً فتح باباً على شاة ليذبحها ، فانفلتت منه ، فجرى وراءها نحو مكان الرسول وسحبها من رجلها . فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اصبري لأمر الله ، وأنت يا جزار فسقها إلى الموت سوقاً رفيقاً) .

وروى مسلم عن سعيد بن جبير قال : (مر ابن عمر بنفر قد نصبوا دجاجة يترامونها فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من فعل هذا) .

ولقد تكلم السابقون عن الحيوانات والبهائم فأشاروا إلى أنها تفهم ، وقالوا : إنها تعرف ربها وتعرف أنها تموت ، وقال ابن أسباط : (البهائم جُبلت على كل شيء إلا أنها تعرف ربهّا ، وتخاف الموت) .

ويلوح لي أن الغرض الأساسي من النهي عن القسوة مع الحيوان هو أن يتعود الإنسان الرفق بالحيوان الأعجم ، فيكون أرفق بالحيوان الناطق المفكر وهو الإنسان ، لأن الإنسان إذا تعود القسوة على ذي الروح الأعجم ، استخف بالحياة مهما كان وعاؤها ، واندفع يقسو على البشر ما دام قد ألف من قبل القسوة على الحيوان !!

وبعد ـ فتعال معي أخي القارىء الكريم ـ نستظل بظلال هذا الحديث النبوي الشريف الوارفة ، فنأخذ منه زاداً لأرواحنا ، وقوتاً لقلوبنا ، وغذاء لعقولنا ، وعلاجاً لنفوسنا ، فقد طوف بنا الحديث آفاقاً تلو آفاق ، وحلق بنا في عالم الحس والنفس والروح والضمير !!

ولا زالت ايحاءات هذا الحديث العجيب بكلماته وعباراته المصورة لمعناه أبدع تصوير تفيض بالمعاني والصور الأخيلية : (وليرح ذبيحته) ، إنها كلمة مؤثرة تهز الوجدان هزاً عنيفاً كما تذكرها وتمثلها : وليرح !!

يا لها من رحمة نبوية عظيمة حتى بالحيوان الأعجم في آخر لحظة من عمره ، فأية جمعية للرفق بالحيوان بل بالإنسان ترتقي بهذه المشاعر البشرية الى تلك القمم السامقة !!

إن هذه العبارة تغرس في حس المسلم ووجدانه وكل كيانه أسمى ايات السمو النفسي والتهذيب الخلقي ، إنها تجعله إنساناً ربانياً قدماه في الأرض ورأسه في السماء !!

وكذلك الحال في أمر القتل (فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة) إن هذا الإرشاد النبوي الكريم يتجه الى قلب الإنسان لتغمره الرحمة الحقيقية حتى تتغلغل الى سويدائه .

وقد ساق رسول الله صلى الله عليه وسلم هذين الأمرين الذبحة والقتلة

على سبيل المثال لا الحصر - كما بيَّنا - :

وربما يخطر بالبال لِمَ اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم هذين المثالين بالذات ؟

فالجواب أن المتبادر من هذين المثالين أن الرحمة هي المقصود الأعظم لهذا الحديث مع أنها ليست الا صورة من صور الإحسان بمعناه الواسع الشامل (الاحسان في كل شيء) - الإحسان في القول والإحسان في العمل ، وفي الاعتقاد ، وفي السلوك ، وفي أعظم الامور وأحقرها (الإحسان في كل شيء) .

نعم في كل شيء .. هكذا قال عليه الصلاة والسلام في كل شيء . فكلمة (شيء) هي أعم النكرات . أي مهما كان هذا الشيء صغيراً أو كبيراً فيجب أن يتم بإحسان وإتقان ومراقبة لله الواحد الأحد ..

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد فسر الإحسان بأن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، فليس وراء هذا في الواقع إتقان في الإيمان والمراقبة وحسن الطاعة مع الإخلاص . ولقد ردد الأولون كلمات بليغة عن الإحسان ، فقال شيخ المفسرين ابن جرير فيه : (هو الصبر على طاعة الله فيما أمر ونهى ، في الشدة والرخاء ، والمنكر ، والمنشط والمكره ، وذلك أداء فرائضه) .

وقال ابن عيينه : (الإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته)

وعرف ابن عباس رضي الله عنهما الإحسان تعريفاً لطيفاً فقال : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ، فإن كان العبد مؤمناً أحببت أن يزداد إيماناً ، وإن كان كافراً أحببت أن يصير أخاك في الإسلام) .

وقال أبو سليمان الداراني : (من أحسن في نهاره كوفىء في ليله ، ومن أحسن في ليله كوفىء في نهاره ، ومن صدق في ترك شهوته ذهب الله بها من قلبه ، والله أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تُركت له) !

رزقنا الله وإياكم الإحسان في القول والعمل ، إنه ملجأ الرجاء والأمل .

١١ ـ مثل المؤمن والفاجر

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة : ريحها طيب وطعمها طيب . ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة : لا ريح لها وطعمها حلو . ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة : ريحها طيب وطعمها مر . ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر) .

(رواه البخاري) .

المعاني والتصوير :

القرآن الكريم هو كتاب الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وهو النور الهادي ، والمرشد الناصح ، والدليل الأمين ، والعصمة من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة ، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن هذا القرآن مأدبة الله عز وجل ، فتعلموا من مأدبته) . وكلمة (مأدُبة) إما أن تكون بضم الدال ، فكأنه أراد تشبيهه بالمائدة التي يصنعها الإنسان ويدعو الناس إليها ـ ولله المثل الأعلى ـ وإما أن تكون (مأدَبة) بفتح الدال من الأدب الذي يتأدب به الإنسان ، ومهما يكن من أمر فالقرآن غذاء ودواء ووقاية وكفاية .

وقد حثنا الرسول عليه الصلاة والسلام على العناية بالقرآن الكريم تلاوة وتدبراً وحفظاً وتحفيظاً ، فقال (خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه) وقال : (إنَّ الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب) ، فهو إذا لم

يضيء قلبه أو لم يعمر صدره بالقرآن المجيد كان فاسداً ، وكان خاسراً ، لا ينفع نفسه ولا ينتفع منه الناس ، فهو كالبيت الخرب ، ليس له جمال الصورة والمنظر ، وليس له فائدة الاستعمال والانتفاع .

ولا أعظم منزلة من الذين يتعلمون القرآن ويعلمونه للناس فيكونون للقرآن وبالقرآن ، فهؤلاء هم أهل الله وأولياؤه ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن لله تعالى أهْلِين من الناس) . قالوا : يا رسول الله مَنْ هم ؟ قال : (هم أهل القرآن أهل الله وخاصته) ، أي حفظة القرآن المتدبرون له العاملون به ، فأهل الإنسان هم أخص الناس به ، وأهل الإسلام من يدين به ، والجمع أهلون ؛ والخاصة هنا هم الذين يختصهم الله تعالى برحمته وفضله .

وليس المراد بأهل القرآن الذين يقتصرون على حفظ آياته وترديد كلماته ، بلا تدبر أو خشية ، وبلا طاعة له أو تقيد بأحكامه ، بل يستغلونه أسوأ استغلال . ويتجرون به أسوأ متاجرة ! فإن هؤلاء لا يستحقون تكريماً ولا تعظيماً ، ولا ينالون أجراً أو ثواباً ، بل لعلهم يلاقون عقاباً ويصلون عذاباً ، جزاء إهمالهم واستغلالهم وإضلالهم .

وأما أهل القرآن الذين آمنوا بربهم ، وأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، وعمروا بالقرآن صدورهم ، ورطبوا بتلاوته ألسنتهم ، وخشعوا لذكره ، واستجابوا لتوجيهه ، ونزلوا على حكمه ، فأولئك هم الذين يختصهم الله برحمته ونعمته ، ويكلؤهم بعين رعايته وعنايته ، حتى يصبحوا أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ولذلك كان أبو عبد الرحمن السُّلَمي إذا ختم عليه القرآن أحدٌ من تلاميذه أجلسه بين يديه ، ووضع يده على رأسه ، وقال له : يا هذا ، اتق الله ، فما أعرف أحداً خيراً منك إذا عملت بالذي علمت ؟

وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول : من قرأ القرآن ، واتبع

ما فيه ، هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة من الحساب . وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول : (فَمِن اتَّبَعَ هداي فلا يَضِلُّ ولا يشقى) . فضمن الله تعالى لمن اتبع القرآن ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة .

وقال ابن عمر أيضاً : حملة القرآن هم العاملون بأحكامه ، وحلاله وحرامه ، والعاملون بما فيه .

وقد أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبين لنا في هذا الحديث الذي معنا فضل قراءة القرآن ، وتفاوت حظوظ الناس في هذه القراءة ، فمنهم من يقرأ عن يقين وتأثر وخشوع ، ويحرص على هذه القراءة المنبثقة من باطن عامر بالإيمان ، ولسان رطب بذكر الله ، وحسٌ متأثر خائف من هيبة الله . ومنهم من يغفل عن القرآن ويهمل في قراءته ، مع أنه من أبناء الإسلام ، ففي داخله إيمان ، ولكن أصابه تفريط .

ومن الناس منافق فاجر مخادع ، ينطق بكلمات القرآن مرائياً بها أو مخادعاً ، ولكنه يطوي صدره على الجحود والإجرام . ومنهم منافق سيىء المخبر في صدره النفاق وهو في الوقت نفسه بعيد عن روضة القرآن المجيد .

إن الصنف الأول من الأصناف الأربعة التي ذكرها الحديث الشريف صنف شريف كريم فاضل يعبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة : ريحها طيب وطعمها طيب) . والأترجة ـ بضم فسكون فضم فجيم مشددة ـ نوع من الفاكهة . والريح هي الرائحة ، والريح الطيبة هي الحسنة التي ترتاح النفس إليها ، وطعمها : أي مذاقها ، أو ما هو يؤديه ذوق الشيء من حلاوة ومرارة وغيرهما .

والرسول عليه الصلاة والسلام لا يريد هنا مطلق التلاوة ، وإنما يريد تلاوة من يؤمن بالقرآن ، ويستجيب له ، ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ونهي . وإلا فكم من تال للقرآن والقرآن يلعنه ، لأنه يقرأ دون أن يتأثر به أو

يستجيب له أو ينزل على حكمه وتوجيهه . ولذلك جاء في بعض الروايات : (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل) وهي زيادة مفسرة للمراد . وقد يقال : لماذا اختار الأترجة مثلاً لهذا الصنف ؟ ولماذا قال : (طعمها طيب وريحها طيب) ؟

ويتكفل كتاب فتح الباري بالإجابة عن هذا السؤال حيث وردت فيه هذه العبارة : (خص صفة الإيمان بالطعم وصفة التلاوة بالريح ، لأن الإيمان ، ألزم للمؤمن من قراءة القرآن ، إذا يمكن حصول الإيمان بدون القراءة ، وكذلك الطعم ألزم للجوهر من الريح ، فقد يذهب ريح الجوهر ويبقى طعمه) .

ثم قيل : الحكمة في تخصيص الأترجة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيب الطعم والريح كالتفاحة لأنه يتداوى بقشرها ، وهو مفرح بالخاصية ، ويستخرج من حبها دهن له منافع ، وقيل إن الجن لا تقرب البيت الذي فيه الأترج ، فناسب أن يمثل به القرآن الذي لا تقربه الشياطين ، وغلاف حبه أبيض ، فيناسب قلب المؤمن ، وفيها أيضاً من المزايا كبر جرمها ، وحسن منظرها ، وتفريح لونها ، ولين ملمسها . وفي أكلها ــ مع الالتذاذ ـ طيب نكهة ، ودباغ معدة ، وجودة هضم ، ولها منافع أخرى) .

ولقد كان سلفنا الأخيار يعرفون لكتاب الله قدره حق المعرفة ، فهم يجلون شأنه ، ويرفعون مكانه ، وهم يعكفون عليه بالأصائل والأسحار ، يتلونه تلاوة المؤمنين ، ويرتلونه ترتيل الخاشعين ، ويريدون به وجه الله وحده ، لا جاه الدنيا ولا عرض الحياة ، إذا مروا بآية رحمة أشرقت لهم مفاتح الأمل فاستبشروا ورجوا ، وتطلعوا إلى فضل الله وبركاته ، وإذا مروا بآية عذاب ارتجفت أوصالهم واضطربت نفوسهم ، وخافوا نقمة ربهم فحاذروا أسبابها ؛ ولا عجب فهم يهتدون في ذلك بقول إمامهم وزعيمهم محمد عليه الصلاة والسلام الذي يقول : (من قرأ القرآن فليسأل الله به ، فإنه سيجيء أقوام يقرأون القرآن يسألون الناس به) .

ولقد روت السنة أن عبد الله بن مسعود كان مع الرسول ، فطلب منه النبي صلى الله عليه وسلم أن يتلو عليه شيئاً من القرآن ، وكأنما عجب عبد الله من ذلك فقال : أأقرأ عليك وعليك أُنزل يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : (إني اشتهي أن أسمعه من غيري) . قال ابن مسعود : فقرأت سورة النساء ، حتى إذا بلغت : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال النبي (كُفَّ) أو (أمسك) فرأيت عينيه تذرفان أي تبكيان !! وإنما بكى الرسول عليه الصلاة والسلام تذكراً وخشية ويقيناً .

وحسبنا في جلال شأن القرآن عظم تأثيره أن نستمع الى الحق جل جلاله يقول في محكم تنزيله : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون) . وليس وراء ذلك تصوير للتأثير .

ومن صفات هذا الصنف الشريف الذي مثّل له الرسول عليه الصلاة والسلام (بالأترجة) أنهم إذا أقبلوا على القرآن أقبلوا عليه بحواسهم ونفوسهم ، وتدبروا فيه بعقولهم وقلوبهم ، وإذا استمعوا من غيرهم سكنوا إليه وحرصوا عليه وتأدبوا معه وتمعنوا فيه ، بلا ضجيج أو صخب ، لأن ربهم يقول لهم : (وإذا قُرِىءَ القرآنُ فاستمعوا له وأنْصتوا لعلكم ترحمون) ، أي استمعوا اليه متدبرين متأثرين ، وأمسكوا حين تلاوته عن الكلام ، لعلكم ترحمون به ، وتنالون الخير عن طريقه .

وبعد أن عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الصورة المشرقة للصنف المشرف تحدث عن الصنف الثاني من أصناف الناس حسب موقفهم من القرآن وموقف القرآن منهم فقال : (ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة : لا ريح لها وطعمها حلو) .

والحلو هو الشيء الذي يستحسنه طاعمه أو شاربه ، وهذا الصنف أقل قدرا ومكانة من سابقه ، لأن المؤمن الذي لا يقرأ القرآن ، تحققت له فضيلة من جهة ، هي فضيلة الإيمان المتعلقة بالقلب والداخل ، ونقص فضيلة من جهة ، وهي فضيلة قراءة القرآن التي تظهر على اللسان ، ولذلك خلا داخله وعدم ظاهرة تلك الرائحة الطيبة التي تحققت للمؤمن قارىء القرآن .

ثم قال الحديث عن الصنف الثالث : (ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة : ريحها طيب وطعمها مر) ، وفي رواية : (مثل الفاجر ...) والنفاق والفجور وصفان يتقاربان . والريحانة نبات طيب الرائحة مر المذاق ، فلما انطلقت كلمات القرآن من فم المنافق كان لهذه الكلمات - في حد ذاتها - رائحة طيبة لأنها كلمات القرآن خير الكلام وأزكاه . ولكن الناطق بهذه الكلمات من معدنه وجوهره خبيث مر ، لنفاقه وفجوره ، والمر ما لا تقبله النفس من مطعوم أو مشروب ، والمر أيضا دواء كالصبر- بكسر الباء - سمى به لمرارته .

وقد قال العلماء : قراءة الفاجر والمنافق لا ترتفع إلى الله ، ولا تزكو عنده ، وإنما يزكو عنده ما أريد به وجهه ، وكان عن نية التقرب إليه ، وشبهه بالريحانة حيث لم ينتفع ببركة القرآن ، ولم يفز بحلاوة أجره فلم يجاوز الطيب موضع الصوت وهو الحلق ، ولا اتصل بالقلب . وهذا الإمام القرطبي يقول في حديث له عن القرآن : (فما أحقَّ من عَلِمَ كتاب الله أن يزدجر بنواهيه ، ويتذكر ما شرُح له فيه ، ويخشى الله ويتقيه ، ويراقبه ويستحييه ، فإنه قد حُمِّل أعباء الرسل ، وصار شهيداً في القيامة على من خالف من أهل الملل ، قال الله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس) . ألا ، إن الحجة على من علمه فأغفله ، اوكدُ منها على من قصر عنه وجهله ، ومن أوتي علم القرآن فلم ينتفع ، وزجرته نواهيه فلم يرتدع ، وارتكب من المآثم قبيحاً ، ومن الجرائم فضوحاً ، كان القرآن حجة عليه ، وخصما لديه ، قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: (القرآن حجة لك أو عليك) خرّجه مسلم. فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته ، ويتدبر حقائق عباراته ، ويتفهم عجائبه ، ويتبين غرائبه ، قال الله تعالى : (كتابٌ أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) وقال الله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

ثم قال رسول الله في الحديث عن الصنف الرابع وهو شر الخلق أجمعين مصوراً له أبدع تصوير في أخصر عبارة وأوضحها : (ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر) .

والحنظلة واحدة الحنظل ، وهو نبات معروف شديد المرارة ، ويقال حنظلت الشجرة ، إذا صار ثمرها مرا وهذا الصنف الرابع ، هو أسوأ الأصناف وشرها ، لأنه أصيب بسوء المخبر وسوء المظهرمعاً ، فلا طيب في الجوهر ولا حسن في الشكل .

والحديث ـ أخي القارىء الكريم ـ كما ترى من جوامع كلم الرسول عليه الصلاة والسلام لأنه صور لنا طوائف الناس بالنسبة إلى القرآن تصويراً رائعاً كأنهم أمامنا نراهم ونحس بهم ونلمس خصائصهم ، بل ونشتم روائحهم ، ونرى مناظرها ، فتبتهج نفوسنا لمرأى بعضهم ، وتشمئز من البعض الآخر.

والسر في هذه الدقة المتناهية في التصوير هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أفصح العرب جميعا ، اذ تهيأت له كل أسباب الفصاحة والبلاغة عمد إلى أسلوب التمثيل والتشبيه الذي يراد منه تقريب المعنى للأفهام ، وإبراز ذلك في صورة حسية ملموسة .

ويراد بالمثل في اللغة : (التسوية) . بمعنى الشَّبَه والنظير . فإذا قلنا هذا الشيء مِثْلَ هذا الشيء كان معنى ذلك أنه مساوٍ له ، وأنه شبهه ونظيره ..

ويقال : مثل بكسر فسكون ، ومثيل بزنة فعيل ، كما يقال : شَبَه وشِبه وشَبيه ، بمعنى واحد .

وقد يراد بالمثل (الصفة) مثل قولنا : مَثَل فلان كَمَثَل كذا ، وهذا يعني أن حالته وهيئته مثل كذا كقوله تعالى في صفة المؤمنين (ذلك مثلهم في التوراة) أي تلك صفتهم .

وهذا المثل الذي ضربه الرسول عليه الصلاة والسلام مثل (قياسي) وقد كثر هذا النوع من الأمثال في الأسلوب النبوي الشريف ، وهو متأثر في ذلك بأسلوب القرآن الكريم ، ويستهدف المثل القياسي توضيح فكرة ما ، أو البرهنة عليها عن طريق التشبيه أو التمثيل الذي يقوم على المقارنة والقياس .

وعلى الرغم من أن أمثال الرسول عليه الصلاة والسلام قياسية في معظمها إلا أن كلامه لا يخلو من الأمثلة الموجزة التي هي من جوامع كلمه الطيب التي تعطي المعاني الغزيرة في كلمات قليلة ، وقد روى أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : (حفظت عن النبي صلى الله عليه وسلم ألف مثل) ... وعلى كل حال فقد فاق رسول الله في هذا النوع من الأمثال الموجزة كل العرب ، وأتي بما لم يُسمع من أحد غيره ، حتى أذهلت فصاحته وبلاغته أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة[١] .

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعد المبتكر للمثل الموجز ، فهو المقلد في المثل القياسي للأمثال القرآنية التي ذكرها القرآن الكريم في مجال الوعد أو الوعيد والإغراء او التهديد ، وللخير والشر ، والجنة والنار ، والطيب والخبيث . وقد جاءت هذه الأمثال في صور رائعة من صور التمثيل والتشبيه المركب تنبيء عن عظمة البلاغة النبوية العالية التي لا تُعالى ..

وها هو أديب العربية الإمام الجاحظ يقول : ولن تجدوا وصايا أنبياء الله

---

(١) راجع كتابنا من البلاغة النبوية .

الا مبيّنة الأسباب ، مكشوفة العلل ، مضروبة الأمثال ، وكان لمحمد صلى الله عليه وسلم كثيراً من الأمثال السائرة بل كان يتمثل بأمثال العرب في الجاهلية ..

والمثل من أساليب الاستعارة التمثيلية التي أساسها التشبيه حالة بحالة أو هيئة بهيئة كما يقول علماء البلاغة . فهذا شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني يقول في كتابه (أسرار البلاغة) :

(مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وأكسبهامنقبة ، ورفع من قدرها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً ، وقصر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً فإن كانت مدحاً كانت أبهى وأفخم ، وأقبل في النفوس وأعظم ، وأهز للعطف ، وأسرع للألف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بغرد المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر ..

وإن كان له ذماً كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد ، وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور ، وسطانه أقهر ، وبيانه أبهر ، وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد ...) ..

وقد شرح مسكويه (٤٢١ هـ) وظيفة التمثيل وضرب الأمثال في الكلام شرحاً عظيماً إذ قال : (إن الأمثال إنما تضرب فيما تدركه الحواس مما تدركه ، والسبب في ذلك أنسنا بالحواس ، وإلفنا لها منذ أول كونها ، ولأنها مبادىء علومنا ، ومنها نرتقي إلى غيرها ، فإذا أُخبر الإنسان بما لا تدركه ، أو حُدث بما لم يشاهده ، وكان غريباً عنه ، طلب له أمثالاً من الحس ، فإذا أُعطى ذلك أنس به ، وسكن إليه لإلفه له ، وقد يعرض في المحسوسات أيضاً هذا العارض ، أعنى أن إنساناً لو حُدِّث عن النعامة والزرافة والفيل

والتمساح لطلب له أن يصور له ليقع بصره عليه ، ويحصل تحت حسه البصري ، ولا يقنع فيما طريقه حس البصر بحس السمع حتى يرده إليه بعينه ، وهكذا الأمر في الموهومات ، فإن إنساناً لو كلف أن يتوهم حيواناً لم يشاهد مثله لسأله عن مثله . وكلّف مخبره أن يصوره ، مثل عنقاء مُغْرِب ، فإن هذا الحيوان ، وإن لم يكن له وجود ، فلا بد لمتوهمه أن يتوهمه بصورة مركبة من حيوانات قد شاهدها ، فأما المعقولات فلما كانت صورها ألطف من أن تقع تحت الحس ، وأبعد من أن تمثل بمثال الحس إلا على جهة التقريب صارت أحرى أن تكون غريبة غير مألوفة ، والنفس تسكن إلى مثل وإن لم يكن مِثْلاً ، لتأنس به من وحشة الغربة ، فإذا ألفتها ، وقويت على تاملها بعين عقلها من غير مثال سهل حينئذ عليها تأمل أمثالها [١] .

ويقول ابن المقفع في بلاغة المثل :

(إذا جُعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق ، وآنق للسمع وأوسع لشعوب الكلام[٢]).

وقد اجتمع في أمثال الرسول عليه الصلاة والسلام أربعة أمور لم تجتمع في غيره من الكلام : ايجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وجودة الكناية ، وحسن التشبيه ، فهو نهاية البلاغة ..

ومن هنا أصابت أمثاله النبوية الشريفة كبد الحقيقة ، وقصدت إلى المعنى في غير إلتواء ، مع حسن التشبيه ، وجودة الكناية ، وانتشارها وذيوعها على ألسنة الناس ، كل ذلك في ايجاز يجمع المعاني الكثيرة في الكلمات اليسيرة وهذا قليل من كثير وغيض من فيض عن بلاغة أمثال الرسول صلى الله عليه وسلم .

وبعد : فهذا الحديث الجليل يدلنا دلالة واضحة على الفضل العظيم

---

(١) الهوامل والشوامل/٢٤٠

(٢) مقدمة مجمع الامثال

لقراءة القرآن الكريم ، وتفضيل القرآن على غيره من الكلام . وفي الحديث اشارة الى إباحة أكل الطيب ، فإن تشبيه المؤمن بما طعمه طيب ، وتشبيه الكافر بما طعمه مر ، فيه ترغيب في أكل الطعام الطيب الحلو . وفيه الحث على قراءة القرآن والتشجيع على العمل به ، والتنفير من هجره ، والتشنيع عن عدم العمل به ، وفيه التزيين للإيمان وتحبيبه الى النفوس والتنفير من النفاق وتهجينه إليها ، حتى تقبل على الخير ، وتقلع عن الشر . فالمؤمن حلو الظاهر والباطن ، حلو المعشر ، حلو السيرة في الدنيا والآخرة ، سيما إذا كان من أهل القرآن الذين يتلونه حق تلاوته ويعملون بأحكامه وآدابه ، وأما المنافق فهو قبيح الجوهر ، براّق المظهر ، يعجبك قوله ، ويزعجك عمله ، فإذا قرأ القرآن تسمع كلاماً طيباً ، وإذا زعم أنه يحب تطبيق أحكام القرآن هشت نفسك وبشت لذلك ، وإذا رأيت التناقض بين الأقوال والأعمال كرهته نفسك وعافته ، وإذا كان ممن يقرأ القرآن فهو سيىء المظهر والجوهر ، خبيث القلب ، سليط اللسان ، كريه إلى النفس ، ثقيل على القلب ، تشمئز لرؤيته العين ، وتكره سماعه الأذن .

ولسائل أن يسأل لِمَ كل هذا الحث على تعلم القرآن والعمل به ؟

فالذي لا شك فيه أن القرآن العظيم هو واسطة العقد ومركز الدائرة وأساس الدعوة . إنه القرآن الذي يقول فيه سيدنا ورائدنا وقدوتنا وقائدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) ويقول (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده) .

إنه القرآن المجيد الذي يقول عنه رب العزة سبحانه في حديثه القدسي : (من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) إنه القرآن الجليل الذي يقول فيه الحق عز شأنه (وكذلك أوحينا إليك روحاً

من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور) .

ولا عجب في ذلك ولا غرابة ، فالقرآن صوت الله ، وكتاب الأبد ، ومعلمة الدهر ، فهو مثابة الملة والدين وهو مصدر التشريع والتقنين ، وهو حافظ اللغة ومحيي البيان ، وهو المذكر بالعقائد والعبادات والمعاملات والعبر والعظات ، ورائد السلوك ، ومكارم الأخلاق ، فمن حق القرآن أن يكون له الصدر ، والقدر ، وحسن الذكر عند الذين يعقلون ويؤمنون .

لقد طالت غربة القرآن بين أهله ، وقد آن أن يعود ذلك الغريب الكريم العظيم الجليل إلى داره وأنصاره ، فمتى ينفخ الله تعالى في صدورنا هماً وعزائم تدفعنا إلى الإقبال على كتابه حفظاً وتحفيظاً ، وفهماً وتفهيماً ، ونشراً وتبليغاً ، ودراسة وتطبيقاً . (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء الله لهداكم أجمعين) .

جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته ، ويتدبره حق تدبره ، ويقوم بقسطه ، ويوفي بشرطه ، ولا يلتمس الهدى في غيره ، وهدانا لأعلامه الظاهرة ، وأحكامه القاطعة الباهرة ، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة ، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة !

١٢ ـ الأمانـــة

عن حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين ، رأيت أحدهما ، وأنا انتظر الآخر ، حدثنا عن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن ، ثم علموا من السنة ، وحدثنا عن رفعها قال : ينام الرجل النومة ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل ، كحجر دحرجته على رجلك فنفط ، فتراه منبتراً ، وليس فيه شيء ، فيصبح الناس يتباهون ، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة .

فيقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، ويقال للرجل : ما أعقله ، وما أظرفه ، وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان .

ولقد أتى على زمان وما أبـالي أيكم بايعـت ، لئـن كان مسـلماً رده الإسلام ، وإن كان نصرانيا رده على ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلاناً وفلاناً .

رواه البخاري ومسلم ..

المعاني والتصويـــر :

إنَّ الأمانة هي قوام التكليف وقوام العقل ، وقوام كل المعاني الإنسانية وهي تسير مع التكليفات سيراً مطرداً ، كلما عظمت التكليفات عظم معها أمر الأمانة ، وكلما علت المعاني الإنسانية علت معها الأمانة ، فهي تعظم بعظم الرجال ، وتتنزل بمقدار نزولهم، ومن يتخلى عنها إنما ينحط إلى درك يتخلى فيه عن معنى الانسانية السامي .

وإن التكليفات الشرعية من عدل ، ومنع ظلم ، وعـدم أكل أمـوال

الناس ، والمعاملة الحسنى والتعاون بكل ضروبه أمانات الله في الإنسانية ، والعبادات ، وإفراد الله تعالى بالألوهية ، والعبادة هو الأمانة الكبرى وكل ما يشم منه إشراك غير الله في العبادة خيانة من أشد الخيانات في هذه الأرض .

وإن الآثار الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم ونصوص القرآن الكريم تؤكد أن الدنيا قامت على أمانة الإنسان ، وأن الجماعات تأتلف وتتكون وتقوى على الأمانة ، فإذا ذهبت الأمانة تقطعت الأواصر ، وتنافرت القلوب ، وحل التنافر محل التعاون ، وحلت البغضاء والتناكر محل المودة والتعاون ، وحل الغدر محل الإخاء . هذا وإذا ذهبت الأمانة من بين الجماعة في آحادها ، فإذا ذهبت من بين كبرائها فإنها الحالقة لكل خير ، والباعثة على كل شر ، ويكون بطن الأرض خيراً لها من ظاهرها .

وهذا الحديث يدور حول (الأمانة)ويصور ما يحقق وجودها وذيوعها بين الناس من خير واطمئنان ، وما يؤدي ضياعها إلى فساد وشر ، وحذيفة يخبرفيه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، تحدّث بحديثين ، أولهما عن شيوع الأمانة بين المؤمنين ، وتمكنها من نفوسهم ، والحديث الآخر عن طروء الفساد على المجتمع بعد ذلك . ولذلك قال : (رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر) . أي علمت مضمون أحدهما ومفهومه ، وانتظر وقوع الآخر ، وهو ضياع الأمانة من بين أكثر الناس ، حتى يصير الامين شبه معدوم بالنسبة إلى ما كان من أمانة شائعة على عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

و (الأمانة) هي ضد الخيانة ، وهي صفة غرزية تحمل صاحبها على تأدية الحقوق لأصحابها ، سواء أكانت مادية أم معنوية ، لله أم للناس .

وإن الأمانة خلق الإنسان الكامل يشمل فروع الأخلاق الإنسانية والفضائل كلها ، فهناك أمانة الجوارح ، بحيث لا يكون عمل للإنسان إلا فيما خصه الله تعالى فالرجل لا تمشي إلا في الحق ، واليد لا تبطش إلا به ، والآذان لا تستمع إلا للحق ، ولا تستمرىء الباطل ، واللسان لا ينطق الا

بالحق ، ولا يعمل إلا بالحق ، وأمانة اللسان هي ملاك الأمر كله . ولقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل : (ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه ، وقال : كف عليك هذا .. قلت يا نبي الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم) .

وإن أمانة العقل ألا ينحرف عن الحق ، ورفع شأن الفضيلة ، وما فيه نفع للناس ، وإن من أمانة القلب ألا ينحرف في اعتقاد ، أو يزيغ عن إيمان ، أو يضل على علم ، وأن يكون متجهاً إلى الحق ، وأن يشرق بهذا الاتجاه ، وألا يكون منه إلا الإذعان والتصديق ، وألا ينافق ، ولا يماري ولا يداجي ..

وقد ورد في معنى الأمانة أكثر من قول ، فقيل إن الأمانة هي ما يودعه الإنسان عند غيره ليحفظه ويصونه ، واستشهدوا لذلك بقول الله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ، وهذا القول ينظر إلى الأمانة المادية ؛ وقيل إن الأمانة هي الفرائض والتكاليف والواجبات التي أوجبها الله تعالى على عباده ، وكذلك الحقوق المتعلقة بالعباد مما طالب الله بصيانته ورعايته ، واستشهدوا لذلك بقول الله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) وهذا القول يشمل الأمانة المادية والأمانة المعنوية والأمانة الدينية . وقد ورد في الحديث : (الأمانة ثلاث ـ الصلاة ، والصيام ، والغسل من الجنابة) ولعل هذا اريد منه ضرب أمثلة للأمانة ، لا حصر انواعها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (الأمانة الفرائض) وهذا القول يشبه سابقه .

ومن قبيل هذا ما قيل إن الأمانة هي (الولاية) بدليل ما رواه أبو ذر رضي الله عنه وهو : (قلت : يا رسول الله ، ألا تستعملني ؟ ... فضرب بيده على منكبي ، ثم قال : يا أبا ذر ، إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة

خزى وندامة ، إلا من أخذ بحقها ، وأدى الذي عليه فيها) . وفي رواية للبخاري ومسلم عن عبد الرحمن بن سمـرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفِّر يمينك وأتِ الذي هو خير) .

فالرسول صلى الله عليه وسلم يريد أن يكون الفرد من أمته ، مهذب النفس بعيداً عن الغرور والعجب فلا تجذبه الـدنيا بغرورهـا ولا تسحـره بفتنتها ، فلا يتطلع إلى ولاية الحكم ولا يحرص على الإمارة إلا اذا عرضت عليه من غير طلب واسندت إليه من غير سؤال . فإنه صلوات الله عليه قد وصفها في قوله فيما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامـة فنعـم المرضعـة وبئس الفاطمة) .

قال ابن حجر: يريد صلى الله عليه وسلم أنهـا نعمـت المرضعـة في الدنيا وبئست الفاطمة أي بعد الموت لأنه يصير الى المحاسبة على ذلك، فهو كالذي يفطم قبل أن يستغني فيكون في ذلك هلاكه . أو أنها نعمت المرضعة لما فيها من حصول الجاه والمال ونفاذ الكلمة ، وبئست الفاطمة عند الانفصال عنها بموت أو غيره وما يترتب عليها من التبعات في الآخرة ..

وقيل : الأمانة هي شهادة أن لا إله إلا الله . ويقرب من هذا قول من قال : الأمانة هي الإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر . وهناك من عمم فقال : الأمانة هي كل ما يؤتمن عليه الإنسان من أمر أو نهي ، ودين ودنيا ، وحقوق وأشياء .

ويمكن أن نقول أن الأمانة هي صيانة الإنسان كل ما تنبغي صيانته من حقوق أو فروض أو واجبات أو حدود أو أشياء مادية أو معنوية ، سواء كانت لله أم للناس .. قال صلى الله عليه وسلم (إذا حدث الرجل بالحديث ثم

التفت فهي أمانة) . وهذا الحديث يهدي الى خلق كريم من أخلاق الأحرار الأبرار ، وهو خلق صيانة الأسرار وكتمانها ، فإذا حدثك شخص بحديث ، ثم التفت عنك ، أو تركك ، فقد صار حديثه لديك أمانة يجبُ عليك أن تصونها وتحفظها ، ولا تطلع عليها أحداً إلا بإذن منه ورضى ، وإلا كان مفشى السر خائناً للأمانة مضيعاً لها .

وقال صلى الله عليه وسلم (لا يدخل الجنة قتات) والقتات هو الذي ينقل الحديث على وجه الإفساد ، ورواية مسلم لهذا الحديث هي : (لا يدخل الجنة نمام) وكذلك قال سيد الخلق عليه الصلاة والسلام : (المجالس بالأمانة) أي كالوديعة التي يجب حفظها ، وهذا ندب الى ترك إعادة ما يجري في المجلس من قول أو فعل ، فكأن ذلك أمانة عند من سمعه أو رآه .

وقد عني أعلام هذه الأمة المؤمنة بالتواصي بكتمان الأسرار وطي الأخبار التي يؤتمن الإنسان عليها ، وهذا هو العباس بن عبد المطلب يقول لولده عبد الله بن العباس رضي الله عنهما : (إن هذا الرجل ـ يعني الخليفة عمر ـ يستخليك .. ويستشيرك ، ويقدمك على الأكابر من الصحابة ، وإني أوصيك بخمس خلال : لا تفشين له سرا ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا يجربن عليك كذبا ، ولا تعصين له أمراً ، ولا تطلعنه منك على خيانة) .

ولقد قال حذيفة راوياً عن الرسول صلى الله عليه وسلم : (حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال) .

والجذر ـ بفتح فسكون ـ هو الأصل ، فجذر كل شيء أصله ، ويقال : نزلت المحبة في جذر قلبه ، أي في أصله .

والمعنى أن الله تبارك وتعالى خلق صفة الأمانة في أصل قلوب الرجال ، ويلحق بهم النساء ـ وقد ذكر الرجال دون النساء على لغة تغليب المذكر على المؤنث ، فهم في الحكم سواء ، فالأمانة كالغريزة في الفطرة النقية الصافية ،

والناس بعد ذلك يحرصون - إذا استقاموا - على تجلية هذه الصفة وتنميتها وتقويتها ، وأما إذا أهملوها فإنها تضمر وتتقلص ، ثم تفسد فيبطل الانتفاع بها .

ثم جاء في الحديث قوله : (ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة) أي أن هؤلاء المتصفين بصفة الأمانة الحسية والمعنوية ، أخذوا يتعلمون من القرآن الكريم ما يقوى صفة الأمانة فيهم ، وما يدفعهم إلى التزام سبيلها ، ثم تعلموا أيضاً من هدى الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته - سواء أكانت قولاً أم عملاً أم تقريراً - ما يعزز تلك الصفة ويؤكدها .

وقد أعاد النص الكريم حرف العطف (ثم) الذي يدل على العطف مع التراخي ، فقال : (ثم علموا من السنة) ليشير إلى أنهم كانوا يحرصون على أن يتعلموا من القرآن المجيد أولاً ، ثم من السنة المطهرة بعد ذلك . ثم قال : (وحدثنا عن رفعها ، قال : ينام الرجل النومة ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت) ...

وقوله هنا : (وحدثنا) فيه إشارة الى الحديث الثاني ، الخاص برفع الأمانة ، وهو الحديث الذي كان ينتظره حذيفة ؛ والمراد بالرفع هنا أن يقل وجود هذه الصفة عند الناس ، حتى كأنها مفقودة .

والمراد بالنوم واحد من معنيين : أولهما النوم الحقيقي ، والآخر أن يكون النوم كناية عن غفلة الإنسان عن أوامر الله عز وجل . وعلى المعنى الأول يكون التعبير كناية عن أن الإنسان يتغير بين يوم وليلة ، فينام وعنده صفة الأمانة ، ويستيقظ من النوم وقد عرض له من الفساد ما يذهب بالأمانة من قلبه .. وعلى المعنى الآخر يكون المراد أن الإنسان يغفل مرة بعد مرة عن هدى الله أوامره ، فتضيع الأمانة من قلبه شيئاً فشيئاً ، وقد جاء في الحديث : (بادروا بالأعمال فستكـــون فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مسلماً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض الدنيا) . وهذا

الحديث يمكن حمله على المعنيين السابقين .

والقبض هو الأخذ ، (فتقبض) أي تنتزع وتؤخذ ، وليس المراد بقبضها هنا أخذها كلها ، بل أخذ جانب كبير منها ، لأنه سيقول بعد ذلك : (ثم ينام النومة فتقبض) فقد تكرر القبض ، ولو كان القبض الأول يعني أخذ الكل لما بقي شيء من الأمانة ليقبض في المرة الثانية .

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد . ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا) .

ويلقي هذا الحديث الشريف الضوء على معنى القبض في الحديث الذي معنا .. فظاهر هذا الحديث يدل على أن قبض العلم يكون شيئاً بعد شيء ولا يكون مرة واحدة ، وليس المراد بقبض العلم محوه من صدور حفاظه ، ولكن معناه أنه يموت حملته ويتخذ الناس جهالاً يحكمون بجهالاتهم فيضلون ويضلون .

وظاهر الحديث يفيد أنه إذا مات العالم ثلمت في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا عالم آخر .

ثم يتابع الحديث النبوي الشريف الذي نحن بصدده القول (ثم ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل اثرها مثل الوكت) .

فقوله (فيظل أثرها مثل أثر الوكت) ، أي يبقى مكان الجزء المنزوع من الأمانة مثل (الوكت) . والوكت : بفتح فسكون ـ هو السواد الخفيف من اللون ـ والوكتة النقطة ، ويقال : (في قلبي وكتة مما قيل) أي أثر يسير ، وفي عينه وكتة من حمرة أو بياض .

وفي الحديث : (لا يحلف أحد ، ولو على مثال جناح بعوضة ، إلا كانت

وكتة في قلبه) .. والمراد بالوكتة الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه ..

والإضافة في قوله : (أثر الوكت) إضافة بيانية ، والتقدير : أثـر هو الوكت ، ولذلك جاء في رواية أخرى : (مثل الوكت) . (ثم ينام النومـة فتقبض ، فيبقى أثرها مثل المجل) . وحرف (ثم) هنا يدل على التراخي والترتيب ، في درجات الأجزاء الممحوة من الأمانة ، ويراد بذلك أنها تؤخذ أو ترفع جزءاً بعد جزء .

والمجل ـ بفتح فسكون ـ هو غلظ يصيب جلد اليد من عمل بآله صلبة خشنة ، يؤدي الى أن يثخن الجلد ويتعجر ، ويظهر فيه ما يشبه البثر ، فيرتفع جزء من الجلد ، ويتجمع تحته ماء قليل . ويقال : (يد مجلة خير من وجنة خجلة) . كما يقال : تمجل رأسه قيحاً ودماً ، أي امتلأ .

ثم قال الحديث : (كجمر دحرجته على رجلك فنفط ، فتراه منبتراً وليس فيه شيء) والجمر : قطع النار المتقدة . ودحرجته : دفعته فتتابـع في حدود وانحطاط من علو إلى سفل . و (نفط) ـ ابوزن علم ـ أي انتفخ ، والضمير يعود إلى (الرجل) ، ولم يقل (فنفطت) مع أن (الرجل) مؤنثة ، لأنه أراد منها العضو ، وهو مذكر . ونفطت يده العمـل ـ بكسر الفـاء ـ وتنفطـت ، وأنفطها العمل . و (منبتراً) أي مرتفعاً ، يقال : نبرت الشيء أنبـره نبـره رفعته ، ومن ذلك صيغ اسم (المنبر) لأنه مرفوع .. والمراد : تورم وامتلأ ماء ، وقد ذكر الحديث كلمة (منبترا) بعد قوله : (نفط) للدلالة على الاستمرار في الارتفاع ، ومع ارتفاعه المستمر لا يوجد فيه شيء ينفع . وبعد أن شبه الحديث الأثر بالوكت ، والأثر الآخر بالمجل ، جاء بهذا التشبيه التمثيلي ، فشبه هيئة ما يتكرر عروضه للقلب من غفلات عن الهدى ، منتزع منه الأمانة جزءاً فجزءاً ، على حين أن مظهره قد يغر ويخدع ، بهيئة الجمر الذي يمر على جلد الرجل فيفسده ، ويظهر فيه هذا الورم الذي يبدو مرتفعاً ، وليس فيه ما ينفع .

وهذه الصورة التشبيهية التمثيلية تذكر بالحديث الذي يقول : إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب واستغفر صقل قلبه ، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي ذكر الله في القرآن : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) . أي طبع وختم على قلوبهم .. والران والرين سواء ، كالذام والذيم ، والعاب والعيب ، ويقال : أعوذ بالله من الرين والران ، وهو ما غطى على القلب وركبه من القسوة ، للذنب بعد الذنب .. وقيل : الرين صدأ يعلو الشيء الجليل ، فقول القرآن : ران على قلوبهم ، أي صار ذلك كصدأ على جلال قلوبهم ، فعميت عليهم معرفة الخير من الشر ؛ وقيل : الرين الدنس ، ويقال : ران ذنبه على قلبه رينا وريونا ، أي غلب ، وكل ما غلبك فقد رانك ، وران بك وران عليك ، ورانت النفس خبثت وغثت .. وقيل : الرين هو الغطاء على الشيء ، وقد رين عليه ، وكأنه والساعي هنا هو الحاكم عليه. ويمكن مراجعة تلك المعاني وغيرها في أساس البلاغة ، ومفردات القرآن ، والنهاية في غريب الحديث ، ومعجم مقاييس اللغة ، والقاموس المحيط . وصورة البثر المنتفخ بلا فائدة من وراء ارتفاعه تذكر بقول المتنبي وهو يعرض بأناس يغره مظهرهم ويسوء مخبرهم .

أعيذها نظرات منك صادقة .. أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ثم قال بعد ذلك : (فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة) . يتبايعون : يبيع بعضهم لبعض ، والبيع يطلق على الشراء أيضاً . و (يؤدي الأمانة) أي يؤدي حقوقها أو يلتزم بتبعاتها ، أي يقل الأمناء بين الناس ، فإذا وجد واحد منها كان وجوده محل استغراب ، فيقال : (إن في بني فلان رجلاً أميناً) أي أن القبيلة الفلانية ، أو في الحي الفلاني رجلاً عنده أمانة ، وهذا كناية عن ندرة الموصوفين بالأمانة في ذلك الوقت ، حتى أن وجود رجل أمين بين القوم يكون مدعاة للتعجب ، فالناس يتحدثون عن وجوده وقد كان أمثاله بالأمس كثيرين ..

(ويقال للرجل: ما أعقله، وما أظرفه، وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان) .. وهذه إشارة إلى سوء الحال واضطراب الموازين التي يوزن فيها الناس ، حتى صارت الأمانة ليست هي المقياس الذي يقاس به الإنسان ، بل أخذ الناس يتوسعون في المديح والثناء ، فيوصف الشخص بقوة العقل ورقة الظرف وشدة العمل ، وليس عنده من الإيمان مقدار حبة من خردل ـ والخردل حب شجر صغير ـ أو وزن أقل الأشياء ، لأن مثقال الحبة من الخردل يضرب مثلاً للضآلـة والقلة ، ولذلك قال القرآن الكريم في سورة الأنبياء (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها ، وكفى بنا حاسبين) وفي سورة لقمان : (يابني إنها إن تـك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير) .

وقد عبر بكلمة (الإيمان) هنا وأراد الأمانة ، لأن الإيمان هو أقوى باعث على التحلي بصفة الأمانة .

ثم قال راوي الحديث : (ولقد أتى عليَّ زمان وما أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلماً رده الإسلام ، وإن كان نصرانياً رده على ساعيه) .. وهو بهذا يشير إلى زمان مضى كانت الأمانة فيه صفة شائعة عند أكثر الناس ، ولذلك كان لا يحتاط حين يبايع الناس ، ولا يبحث عن حال من يعامله ، ولا يدقق في السؤال عنه ، فأيهم بايعه فهو مطمئن اليه . وقوله : (مـا أبـالي) أي لا أكترث ، أو لا أكره ، والمبايعة هي البيع والشراء .. (لئن كان مسـلماً رده الإسلام) : فإن كان الشخص الذي أبايعه مسلماً فإسلامه يرده ويمنعه من الغش والخيانة (وإن كان نصرانيا رده على ساعيه) . وفي رواية : (وإن كان يهودياً أو نصرانياً ليردنه على ساعيه) . والساعي هنا هو الحاكم الذي يحكم عليه .

والمراد بالساعي في الحديث هو الوالي المسلم ، وكان الساعي حينئـذ

مسلماً ، والمسلم ـ وبخاصة الحاكم ـ سيحفظ الأمانة والحق . وقيل إنه أراد بساعيهم رئيسهم الذي يصدرون عن رأيه ، ولا يمضون أمراً دونه ، وقيل إن المراد هو الوالي الذي يجب عليه الإنصاف ، وكل من ولي قوم فهو ساع عليهم . (فأما اليوم فما كنت ابايع إلا فلاناً وفلاناً) .

وحذيفة قد مات سنة ست وثلاثين ، بعد مقتل عثمان بقليل ، وشهد جانباً من التغير الذي طرأ على المجتمع عند اضطرابه ، ولذلك صار يحذر أن يعامل إلا بعد بحث وتنقيب ، وهو لا يعامل إلا أفراداً معدودين معروفين عنده ، بقيت لهم صفة الأمانة ، وقوله : (إلا فلانا وفلانا) ، لعله ذكر اسمين غابا عن الراوي ، ولعله قال هذين اللفظين (فلانا وفلانا) كناية عن قلة الأمناء ، وإذا كان حذيفة قال هذا على عهده فماذا يقول الذين شهدوا عهود الغدر والخيانة ؟

ولقد حث القرآن الكريم حثاً قوياً على التزام الأمانة ، فقال في سورة النساء : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها . واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً) .

في هذا النص الكريم يقترن الحكم بالأمانة ، فهما متعاطفان في النص ، لأنهما متلازمان ، فالحكم يقتضي الأمانة ، ولا حكم من غير أمانة تحوطه وتصونه وتحميه وتجعله في دائرة الحق والخير ، والمصلحة ، فلا يمكن أن يكون حكم صالح ، من غير أمانة حافظة كالئة ، تعم ولا تخص .

ولس الحكم هو السلطان ، أو السيطرة ، أو الولاية العامة فقط ، بل الحكم يشمل الولايات كلها من أدناها إلى أعلاها ، فأي إمارة ، سواء أكانت في تنظيم اقتصادي أو تجاري أو إداري ، أم كانت في الحكم بين الناس ، وتنظيم شؤونهم ، وتدبير أمورهم لا بد أن تكون في ظل الأمانة ، وإلا فقد شغرت الأمة ، وفسدت أمورها ، واضطرب حبل الأمور فيها أو انقلب الحكم

الى تحكم، وانقلبت كل الإدارات فوضى لا ضابط لها،ولا عاصم، وصار من يتولى أمراً اقتصادياً ، أو أمراً إدارياً كأنما يتولى منتهباً ، أو يعمل مغتصباً ، كما ينتهش الذئب دامية الشاء ، فإن كان من فوقه كمثله ذهبت الأمانات بين الناس ، وتوهموا الخيانات حقوقاً ، ولم يعتقدوا أنها أسلاب الأمة تؤخذ بغير حقها ، وتعطي غير أهلها ، وينسى الجميع أن الله تعالى فوقهم ، وقد نسوا مع ذلك أمر الله تعالى إذ ينادي من أعلى الوجود : (يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) .

إن الخيانة إذا كانت في مدير مؤسسة ، أو رئيس مصلحة ، أو مدير دائرة سرت إلى من تحته ، فلا تجد العامل الأمين ، ولا المحصي الأمين ، ولا المدير الامين ، وبذلك تعم الخيانات ، وتكثر السرقات ، وتصعب الأمانة على الأمين ، وتصب عليه اللعنات ، ويصير في جملة حاله كالقابض على النار ، وكالراكب في سفينة تحترق أن تركها غرق ، وإن بقى احترق ، ولا من منجاة له وسط ذلك الإثم الذي طم سيله ، الا أن يتغمده الله برحمة منه ، إذ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .

يروى أن عاملاً على الغنائم جاء الى عمر بن الخطاب بغنائم كثيرة ، فيها ما يبرق ويغري ، فقال الفاروق الإمام العادل : (إن أمة فيها مثل هذا الرجل لأمة أمينة) فقال الإمام الحكيم علي كرّم الله وجهه في الجنة مخاطباً عمر : (لأنك أمين ، ولو خنت لخانوا) .

وإن شر الخيانات أن يأتمنك انسان وتخونه ، ويعطيك ثقته فتخونها ، ويمكنك من دمه فتهدره ، ويختارك لنائباته ، فتكون إحداها أو أشدها ، ويعطيك العهد فتنكث في عهده ، ويثق منك بالوفاء ، فلا يكون منك الا الغدر . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك) وقوله (لا إيمان لمن لا أمانة له) .

وإن من هذا القبيل ما يكون من بعض الحكام الذين يختارهم الشعب ،

أو يرتضي حكمهم ، أو يخضع لهم ويوليهم الطاعة ، ويلزم في ظلهم الجماعة ، ويركن إليهم ، وهو يحسب أنه لا يركن الى الذين ظلموا ، حتى لا يقع في عموم النهي في قوله تعالت كلماته : (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) .

وجعل الحديث الأمانة شيئاً غالياً يرجو الإنسان من الله حفظه ، فجاء في الحديث : « أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك) ... وإذا كان هناك من قال أن الأمانة هنا هي الأهل ومن يخلفه الإنسان وراءه أو ماله الذي يودعه ويستحفظه أمينه ووكيله ، فإني أفهم هنا أن الأمانة هي الإيمان الذي يحفظ على صاحبه صفة الأمانة بكل أنواعها .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يستعيذ من ضياع الأمانة فيقول : (اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئس البطانة) .

وذكر الرسول عليه الصلاة والسلام أن ذيوع الخيانة من أشراط الساعة وعلامات القيامة ، فحينما قال له بعض الناس : متى تقوم الساعة ؟ .. أجاب : اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال السائل : وكيف إضاعتها ؟ فأجاب : إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة .) ، وفي حديث عن أشراط الساعة ذكر أن من علاماتها ان يتخذ الناس (الأمانة مغنماً) أي يريد أن يرى في يده أمانة أن الخيانة فيها غنيمة قد غنمها .

ولقد روى عبد الله بن مسعود حديثاً يشير الى طائفة من ألوان الأمانة وفيه قوله (القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة ، قال : يؤتى بالعبد يوم القيامة وان قتل في سبيل الله — فيقال : أد أمانتك . فيقول : أي رب ، كيف وقد ذهبت في الدنيا ؟ فيقال : انطلقوا به الى الهاوية ، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه فيراها فيعرفها ، فيهوي في أثرها حتى يدركها ، فيحملها على منكبيه ، حتى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبيه ، فهو يهوي

في أثرها أبد الابدين . ثم قال : (الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والوزن أمانة ، والكيل أمانة ، وأشياء عددها ، وأشد ذلك الودائع) .

قال راوي الحديث : فأتيت البراء بن عازب ، فقلت : ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود ؟ قال كذا . قال البراء : صدقه أما سمعت الله تعالى يقول : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)؟

وفي هذا الحديث تصوير بليغ رائع لخيبة من يضيع الأمانة أو يألف الخيانة ، وفيه تفصيل مقنع لألوان من الأمانة التي نسأل الله أن يحلينابها لنكون من المفلحين ، وهذا الحديث النبوي الشريف يذكرنا بفضل أحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه على اللغة العربية ، فقد كان سيد الخلق محمد أفصح العرب ، وكانت تجرى على لسانه كلمات ومفردات فيها ثروة طيبة للمتكلمين بلغة القرآن .. والحديث الذي معنا أحد الأدلة على ذلك حيث تضمن طائفة من الألفاظ التي يحرص الانسان على فهم معناها والاستفادة بها في قول أو كتابة ، مثل كلمات : جذر القلوب ، والوكت ، والمجل ، ونفط ، ومنبترا .

ولا غرو فقد تهيأت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل أسباب الفصاحة والبلاغة فقد نشأ وتقلب في أفصح القبائل ، وأخلصها منطقاً ، وأعذبها بياناً، فكان مولده في بني هاشم، وأخواله من بين زهرة، ورضاعته في بني سعد بن بكر ، ومنشؤه في قريش ، ومتزوجه في بني أسد ، ومهاجرته الى بني عمرو ، وهم الأوس والخزرج ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : (أنا أفصح العرب ، بيد أني من قريش ، ونشأت في بني سعد بن بكر) .

وهذا هو المرحوم الرافعي يشير الى هذه الناحية في أدب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول عن قبيلة قريش : (كانوا أفصح العرب لساناً ، وأخلصهم لغة ، وأعذبهم بياناً ، وأنهم قد ارتفعوا عن لهجات رديئة ، اعترضت

في مناطق العرب فسلمت بذلك لغتهم ، وإنما كان هؤلاء القوم أنضاد النبي صلى الله عليه وسلم من أعمامه وأهله وعشيرته) ثم يشير الى نشأة الرسول صلى الله عليه وسلم اللغوية التي كان فيها صاحب رتبة بعيدة المصعد ، ويقول : (فلا جرم كان صلى الله عليه وسلم على حد الكفاية في قدرته على الوضع والتشقيق من الألفاظ ،وانتزاع المذاهب البيانية ، حتى اقتضت ألفاظاً كثيرة لم تسمع من العرب قبله ، ولم توجد في متقدم كلامها ، وهي بعد من حسنات البيان ، لم يتفق لأحد مثلها في حسن بلاغتها وقوة تأليفها وتنضيدها ، وكلها قد صار مثلاً ، وأصبح ميراثاً خالداً في البيان العربي) ...

هذا ومما يتصل بحديث الأمانة في المعاملات ما رواه بعض السابقين عن تقلص ظل الأمانة ، حيث قال : أتى الناس زمان كان الرجل يدخل السوق ، ويقول : من ترون لي أن أعامل من الناس ؟ فيقال له : عامل من شئت . ثم أتي زمان آخر كانوا يقولون فيه : عامل من شئت إلا فلانا وفلاناً .

ثم أتى زمان آخر ، فكان يقال : لا تعامل إلا فلاناً وفلاناً ، وأخشى أن يذهب أيضاً ..

وبعد : فلقد ضرب لنا الأولون من سلفنا الصالح أمثلة رائعة للأمانة والتحرز من الخيانة ، وبمثل تلك الأمانة المثالية ساد اولئك وقادوا الدنيا الى ميادين الحق والعدل والكرامة الإنسانية .

فاللهم احفظ الأمة ، واكشف الغمة ، وأظلها بالأمانة ، ففيها قوامها . إنك نعم المولى ونعم النصير ..

خـــاتمة

وبعد : فإنى أحمد الله سبحانه حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه على ما هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . وأصلى وأسلم على رسول الله الذى نزل عليه القرآن ، وأدبه بالقرآن . فكان خلقه القرآن . وميراثه القرآن . وكان للقرآن مبلغاً . وبالقرآن متأثراً .

فالله أرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه من خدمة البلاغة النبوية . ورسم معالم الطريق إليها ، كى يتذوق المسلمون روعة بيانه صلى الله عليه وسلم ويدركوا جمال تعبيره ودقة تصويره . وغزارة معانيه ، وعظمة أحكامه . وأود أن أشير إلى أنى استعنت بما كتبه القدماء والمحدثون حول هذه الأحاديث فى الكتب والمجلات . فافدت من أفكارهم وبيانهم . وأخص بالذكر ابن القيم ، وحجة الإسلام الغزالى ، والراغب الأصفهانى . والشيخ عبد الوهاب حمودة ، وأحمد الشرباصى . وطه الساكت . وعبد الرحمن الجزيرى ، وفكرى ياسين ، وحسن منصور وغيرهم .

والله ولى التوفيق .



فهرس